حضارة الرومان

المؤلف

د. محمد علي

إعداد

د. منى سعد المشكلط



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : حضارة الرومان

المـــــــؤلف : د. محمد علي

رقــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٦



Tokoboko_٥@yahoo.com

المقدّمة

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف].

تعتبر الحضارة الرومانية من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة الإغريقية حيث كانت تبسط سيطرتها على جميع شبه جزيرة إيطاليا جنوب بما يعرف الآن بـــفلورنسا وكان ذلك عام ٢٧٥ ق.م .وخلال القرنين التاليين تمكن الرومانيون من بناء إمبراطورية امتدت لما يعرف الآن بأسبانيا حتى جنوبي آسيا عبر الساحل الشمالي لإفريقيا وضموا فيما بعد كلما تبقى من أوروبا إلى إمبراطوريتهم.

مكثت الدولة الرومانية قرابة ألف سنة، نحو خمسة قرون قبل ميلاد المسيح عليه السلام وخمسة بعد الميلاد. وقد سميت بهذا المسمى نسبة لعاصمتها روما ومنطلق حضارتها . وقد اندمجت فيها الثقافة الإغريقية. حتى أن الحضارة الرومانية اشتهرت بتقليدها لمظاهر الحضارة الإغريقية فأقاموا المسارح والمدرجات والجسور والقناطر والمنازل وبرعوا في نحت التماثيل والصور، وازدهر الأدب الكوميدي فيها.

ونظراً لأن هذه الحضارة هي واحدة من أهم حضارات العالم القديم فقد قدم المؤلف هذا الكتاب في شكل بانوراما من خلال نظرة عامة مختصرة لأسباب نشأتها ومظاهرها . وقد راعى أن يكون العرض مبسطاً ليتناسب مع كافة مستويات القراء .راجياً من المولى عز وجل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون نافعاً لكل من يقرأه .ويهدي هذا المُؤَلَّف إلى أرواح شهداء ليبيا الأبرار ، وإلى روح أبيه الطاهرة ، وإلى أبناء عمومته في ليبيا ومصر .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود].

صدق الله العظيم

المُؤلف

أ. د. محمد علي

تمهيد

الحضارة الرومانية

تعتبر الحضارة الرومانية أو روما القديمة ، من أهم وأعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة الإغريقية. ولا يعرف المؤرخون كيف ومتى قامت روما. لكنها كانت تبسط سيطرتها على جميع شبه جزيرة إيطاليا جنوبي ما يعرف الآن بفلورنسا، وكان ذلك عام ٢٧٥ ق.م وخلال القرنين التاليين تمكن الرومانيون من بناء إمبراطورية امتدت لما يعرف الآن بأ سبانيا حتى جنوبي آ سيا عبر الساحل الشمالي لإفريقيا و ضموا فيما بعد كل ما تبقى من أوروبا إلى إمبراطوريتهم . وقد اندمجت فيها الثقافة الإغريقية.

التاريخ :

الحضارة الرومانية : بالإنجليزية Ancient Rome، باللاتينية RomanumImperium، بالإغريقي Βασιλεία Ῥωμαίων.

هي حضارة نشأت من مجتمع زراعي صغير بسيط يعيش على الموارد الطبيعية وخصوصاً الزراعة . بدأت في شبه الجزيرة الإيطالية في القرن التاسع قبل الميلاد ، إلى أن أصبحت حاضرة عظيمة بسطت سيطرتها حول معظم بلاد البحر الأبيض المتوسط بينما كانت الإمبراطورية اليونانية في قمة التطور . لكن مع بدايات ا ضمحلال الإمبراطورية اليونانية بدأ نجم الامبراطورية الرومانية بالبزوغ واصبحت من مجتمع زراعي بسيط إلى قوة سياسية مستقلة تحت مسمى المملكة الرومانية واصبحت قوة لايستهان بها لدرجة أنها استولت على شبه جزيرة القرم وأعلنت نهاية الحكم اليوناني واصبحت المملكة الرومانية حضارة ومملكة معترف بها .

***

الفصل الأول

المملكة الرومانية

المملكة الرومانية هي مملكة مدينة روما القديمة والأقاليم التابعة لها. ولايوجد الكثير من المواد التاريخية الموثقة عن تلك الحقبة ، حيث كان يعتمد في دراســـة تاريخ الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على الأساطير المتواردة إلى حد كبير. ومع ذلك فإن تاريخ المملكة الرومانية بدأ بتأسيس المدينة في الفترة ٧٥٣ ق.م وإنتهى بإنشاء الجمهورية والإطاحة بالملوك في حوالي ٥١٠ ق.م

تأسيس الجمهورية الرومانية :

الجمهورية الرومانية بالإنجليزية Roman Republic ، بدأت الجمهورية الرومانية القديمة، من القرن الســـادس قبل الميلاد، إلى القرن الأول قبل الميلادي وهي المرحلة من تاريخ الرومان، التي تبنوا فيها نظاماً جمهورياً للحكم. وهي بداية تكوينالإمبراطورية الرومانية التي قامت بعد ســـقوطها. والحكم فيها كان حكم جمهوري وقامت بعد أن أطيح بأخر ملك روماني وبعد اسقاط الملكية في عام ٥٠٩ ق.م. ، واستمرت لأكثر من ٤٥٠ عام ، حتى سقوطها على يد يوليوس قيصرــ بعد الحرب الأهلية الطاحنة والذي أعلن أن الجمهورية الرومانية ســـتبدأ بالتحول إلى الإمبراطورية الرومانية. لكن بعد الفوضى التي عمت إثر اغتياله خارج مجلس الشـــيوخ وجد اثنان من الرجال الأقوياء أنفســـهما يتصـــارعان فيما بينهما على الحكم في روما، "مارك أنطونيو" الســـيناتور والشـــاب الطموح "أوكتافيو" من جهة أخرى وبعد معركة أكتيوم بين مارك أنطونيو وأكتوافيين التي انتهت بانتصار أوكتافيين الذي أعلن رسمياً ولادة الإمبراطورية الرومانية .

الموقع:

تقع مدينة روما على ضـــفاف نهر التيبر ، بالقرب من الســـاحل الغربي لإيطاليا. وقد تضـــمنت الحدود بين منطقتي لاتسيو حيث اللغة اللاتينية هي اللغة الأساسية ومنطقة اتروريا في الشمال.



تاريخ الجمهورية :

اختار رميولوس مائة من رؤ ساء العشائر في قبيلته ليعينوه على تشييد روما وليكون منهم مجلس شيوخه. وقد سمى كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد "باتر" أي "الأب" و سمي أبناءهم وأحفادهم "پتريشي" - أي "المنحدرين من الآباء". أما النظرية الحديثة التي تستمد حياتها من تجريح التقاليد المأثورة، فيحلو لها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لعلهم سبنيون Sabines غزوا لاتيوم Latium وحكموا العامة (Plebs) اللاتين بعد هذا

الغزو ووضعوهم في منزلة دون منزلتهم هم. ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضي بفضل تفوقهم الإقتصادي أو الحربي، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية ، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة : - المنلي Manlii، والفليري Valerii، والإميلي Aemaelii، والكرنيلي Cornelii، والفابي Fabii، والهوراشي Horatii والكلودي Claudii والليولي Lulii .... إلخ - خمسة قرون كاملة تمد روما بالقواد العسكريين والقناصل، والقوانين. ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى بعض تكوَّن من رؤ ساء عشائرها مجلس للشيوخ يتألف من ثلاثمائة من الأعضاء. ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث، ويعيشون على أبسط الطعام، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم، وكان العامة يعجبون بهم حتى وقت كفاحهم ، ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه "من الطراز الأول أو الطبقة الأولى Classlscus" . وكان يدانيهم في الثراء، وينقص عنهم كثيراً في السلطة السيا سية رجال الأعمال equites . ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء درجة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ، ويكونوا فيه القسم الثاني من الرجال "الأشراف والمسجَّلين معهم". وكان يطلق عل هاتين الطبقتين اسم "الرتبتين" ويلقبون "بالصالحين" Boni، وذلك لأن

الحضارات القديمة كانت تقرن الفضيلة بالمرتبة والكفاية والسلطان؛ وكان معنى الفضيلة Virtus عند الرومان هو الرجولة أي الصفات التي تكون من مجموعها الرجل vir . ولم تكن كلمة Populus "الناس" تشمل غير هاتين الطبقتين العاليتين، وكان هذا هو المعنى الذي يفهم في بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populusque Romanus) التي كانت تنقش في زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار. فلما شقت الديمقراطية طريقها في روما تغير معنى كلمة Populus تدرجاً حتى شملت عامة الشعب أيضاً. وكانت الكثرة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هذه الطبقة. وكان منها الصناع والتجار، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون، ولعلهم كانوا في بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم، وكان منهم من يتصل بوصفه مولى Clientes أو تابعاً بشريف Patronus من طبقة عليا؛ وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف في وقت السلم ويعملون تحت إمرته في وقت الحرب، ويقترعون في الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك في نظير حمايته إياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية. وكانوا من الأرقاء أدنى الطبقات، وكانوا في عهد الملوك قليلي العدد كثيري الأكلاف، ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملاتهم ويعدونهم أعضاء ذوي نفع كبير في أسرهم.

فلما كان القرن السادس قبل الميلاد، وبدأت روما حياة الغزو والفتح، بيع عدد من أسرى الحرب مطرد الزيادة إلى الأشراف ورجال الأعمال والى العامة أنفسهم، وانحطت منزلة الرقيق. وكانت القوانين تبيح معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه، ذلك أنه من الوجهة النظرية، وطبقاً لعادات القدماء، قد فقد حقه في الحياة حين وقع في الأسر، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذي استحقه بهزيمته. وكان يعهد إليه في بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله؛ وكثيراً ما كان يصبح معلماً أو كاتباً أو ممثلاً أو صانعاً أو عاملاً أو فناناً، ويؤدي إلى سيده بعض ما يصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته، ومن ثم يصبح عضواً في جماعة العامة.

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بحظها، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بني الإنسان بقدر ما هي طبيعية بين الحيوان، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضي جميع رعاياها. وفي روما كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال؛ والفقراء يألمون لفقرهم وحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون.

وكانت قوانين الجمهورية في عهدها الأول تبيح للدائن أن يسجن المدين الذي يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه في سجن انفرادي، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله. وقد جاء في القانون أن في وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم- وهو إجراء يلوح أنه لم ينفذ قط. وطلب العامة أن تلغي هذه القوانين، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون، وأن توزع الأرض التي تنال بالحرب وتمتلكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية ؛ وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال ، وأن يكون لهم مثل من طبقتهم في أعلى الوظائف الحكومية. وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد.

وفي عام ٤٩٤ ق.م "انشق" عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الجبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل روما حتى تجاب مطالبهم. ولجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى روما، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم؛ فلما خشى أن تقع البلاد في القريب بين ناري الغزو الخارجي والشقاق الداخلي وافق على إلغاء الديون أو تخفيضها، وعلى تعيين تربيونين وثلاثة إيديلين Aediles يختارون من بين العامة للدفاع عن مصـــالحهم. ورجع العامة إلى روما ولكنهم أقســموا قبل رجوعهم بأحرج الإيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدي على ممثليهم في الحكومة. وكانت هذه هي المعركة الأولى في حرب الطبقات التي لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها.

وكانت الخطوة التالية التي خطاها العامة في ســبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضــحة محددة مدونة. ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسـيرها، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سراً لا يطلع عليه غيرهم من الأهلين، ويتخذون من هذا الاحتكار، ومما تتطلبه القوانين من مراسـم، أسـلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصـلاح الاجتماعي. وعارض مجلس الشـيوخ في هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة، ولكنه وافق في آخر الأمر (عام ٤٥٤)على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراســة شرائع صــولون Solon وغيره من المشرـعين، وكتابة تقرير عنها. فلما عاد الأعضــاء اختارت الجمعية (في عام ٤٥١)عشرـة رجال- دمسـفراي Decemviri- لوضـع قانون جديد، وخولتهم أعلى سـلطة حكومية في روما مدى ســنتين. وكان رئيس هذه اللجنة رجلاً رجعياً قوي الشــكيمة يدعى أبيوس كلوديوس Appius Claudius، وكانت نتيجة أعمالها أن حولت قوانين روما القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الإثنتي عشرـة لوحة الذائعة الصــيت، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل، وعرضتها في السوق العامة لمن يريد أن يقرأها- وكان قادراً على قراءتها. وكانت هذه الحادثة التي تبدو في ظاهر أمرها تافهة غير جديرة بالعناية من الحوادث الهامة البالغة الأثر في تاريخ روما بوجه خاص وفي تاريخ العالم كله بوجه عام؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرـح القانوني العظيم الذي كان أهم ما قامت به روما من الأعمال وما قدمته إلى الحضــارة من هبات. ولما انتهى العام الثاني من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة العليا أبت أن تعيد الحكم إلى قنصلي الأشراف وتربيوني العامة، وظلت تمارس السلطة العليا- وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والتربيون وأكثر منها تحرراً من التبعات.

هيكل روما الجمهورية:

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور. وقبل أن نفصـــل القول في نظامها نقول إن العالم كله مجمع على أن حكومتها كانت من أقدر ما شـــهده من الحكومات ومن أعظمها نجاحاً؛ بل إن بولبيوس Polilbius كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطو طاليس المثالي.

وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الروماني كما رسمت في بعض الأحيان ميادين القتال في هذا التاريخ. نرى أي الأهلين في هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم "مواطنين" . فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية في روما، أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل. وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم روما حق المواطنة فيها.

ولم يشهد العالم قبل روما أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنية أو قدرته مثل تقديرها. لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التي لم تلبث إلا قليلاً حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانوني، والتعرض للقسر والإرغام، ويمكنه من أن يشكو أي موظف في الإمبراطورية إلى الجمعية الوطنية في روما - أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد. وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات؛ فقد كان من حق الدولة على المواطن- إلا إذا كان فقيراً معدماً- أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية من سن السادسة عشرة إلى سن الستين، ولم يكن في وسعه أن يشغل منصباً سياسياً إلا إذا قضى في الجيش عشر سنين. وكانت حقوقه السياسية وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدي حقه في التصويت في أهم الأمور بوصفه عضواً في فرقته أو في "مائته"، وكان في عهد الملوك يعطى صوته أيضاً في مجلس العشرة **Comitia Curiata** أي أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا في مجلس الأقسام الثلاثين التي انقسمت إليها القبائل الثلاث. وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام الجمهورية هو الذي يخلع سلطة الحكم على الأحكام، وبعد سقوط الملكية بزمن قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق إلى مجلس المئة - فكان الجند يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها في بادئ الأمر من مائة جندي. وكانت هذه المجالس المئوية هي التي تختار كبار الحكام، وتنظر في الإجراءات التي يرفع إليها من استئناف

للأحكام التي يصدرها كبار الحكام، وتنظر بنفسها في جميع القضايا التي يحكم فيها بالإعدام إذا كان المهتمون فيها مواطنين رومان، وتعلن الحرب وتعقد الصلح، ومن ثم كانت هذه الجمعية هي الأساس العام للجيش الروماني والحكومة الرومانية. ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً في أضيق الحدود، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل أو تربيون، ولم يكن من حقها أن تقترع إلا على الأمور التي يعرضها عليها كبار الحكام أو مجلس الشيوخ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات أو تعدلها، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها.

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف. فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازتين). ويلي هؤلاء رجال "الطبقة الأولى"- الذين لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ آس . وكان عدد ممثلي هذه الطبقات في الجمعية ثمانين مائة أي ثمانية آلاف رجل، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذي يقدر أملاكهم بين ٧٥,٠٠٠ و١٠٠,٠٠٠ آس؛ والطبقة الثالثة تشمل من كانت لهم ثروة تقدر بين ٥٠,٠٠٠ و٧٥,٠٠٠ ؛ والرابعة من كانت ثروة أفرادها بين ٢٥,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠. وكان لكل طبقة من هذه الطبقات عشرون مائة. وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١,٠٠٠ و٢٥,٠٠٠

آس وكان لهؤلاء ثلاثون مائة. أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١,٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة(١٠)، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها؛ وكان في وسع أغلبية قليلة في إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى في مائة أخرى وتجعل الفوز في جانب أقلية عددية. وإذا كانت كل مائة تقترع بترتيب مركزها المالي، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لهما ٩٨ صوتاً، وهي أغلبية أصوات الجمعية كلها. ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترع قط. وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أي أن المواطن كان يعطى صوته بنفسه، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلى روما ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها. ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية، فقد كان نظام المئات نظاماً وضع بعد إحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية.

وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حق الاقتراع للأهلين متناسباً من ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أداؤه من الخدمة العسكرية. وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون اقل من مائة ألف آس إلا صوت مئوي واحد؛ ولكنهم في نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلاً لا يؤبه له من الضرائب، وكانوا في الأوقات العادية معفين من الخدمة العسكرية.

وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شيء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطعه من الأبناء، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرستقراطية محافظة لا تستنكف أن تجهر بمبادئها. وما من شك في أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة بمجالس العامة concilia plebis ولعل الجمعية المعروفة بمجلس قبائل الشعب comitia populi tribvta التي نراها تمارس حقوقاً تشريعية منذ عام ٣٥٧ق.م. قد نشأت من هذه المجالس نفسها. وكان المقترعون في هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التي ينتمون إليها والمسكن الذي يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذي حدث في عهد سرفيوس سادس ملوك روما. وكان لكل قبيلة صوت واحد، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء. وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية في عام ٢٨٧ ق.م، وما وافى في عام ٢٠٠ ق.م حتى كانت هي مصدر الشرائع الخاصة في روما. وكانت هي التي تختار تربيوني الشعب Tribuni Plebis (الذين يمثلون القبائل)، وهم غير التربيونين العسكريين Tribuni Militares الذين كانت تختارهم المئات. على أنه في هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يتناقشون. فقد كان أحد كبار الموظفين يقترح قانوناً ويدافع عنه، ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء؛ وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقترع عليه بالقبول أو الرفض، وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية المئوية، ولكنها كانت أبعد ما تكون من التطرف. وذلك أن إحدى وثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضي، فكانوا لذلك رجالاً حذرين، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل، شيء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر.

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى في روما. وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يجددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه. وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلاثمائة عضو على الدوام، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالاً من طبقة الأعيان أو الفرسان. وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة؛ ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أي عضو يضبط متلبسًا بجناية أو بجريمة خلقية خطيرة. وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام في الكوريا **Curia** أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة. وكان من العادات اللطيفة أن يأتي الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون، ليتعلموا السياسة والمماحكة عن قرب. وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصوراً على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها، وكانت قراراته في هذه المسائل استشارية محضة **senatus consulta** ليس لها قوة القانون؛ ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته في جميع الحالات تقريبًا، وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل. على أنه كان من حق أي تربيون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة في المجلس أن تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى. ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا في أيام الثورات والانقلابات.

ولم يكن كبار الحكام يبقون في مناصبهم أكثر من عام واحد في حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة. ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل. ولهذا كانت الصلات الخارجية، وعقد المحالفات والمعاهدات، وإعلان الحرب، وحكم المستعمرات والولايات، وإدارة الأراضي العامة وتوزيعها بين الأهلين، والأشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها- كانت هذه الشؤون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده، وقد أكسبه انفراده فيها سلطة لا تكاد تعرف لها حدود. فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة، وكان هو الحكم الفصل في الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية، والتآمر، والاغتيال، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر في معظم القضايا المدنية الهامة، وكان في وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو **sensatus- consultum ultimatum** وهو "أن من واجب القنصلين أن يعملا على ألا تصاب الدولة بأذى" وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك. وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ في عهد الجمهورية يسئ استعمال سلطانه، فكان يحمي الموظفين المرتشين ، ويعلن الحرب بلا تدبر وتفكير، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالاً شرها، ويقمع بالقسوة رغبة الشعب في أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له في رخاء روما. ولكن تاريخ العالم لم يشهد في غير روما وفي غير عهد الجمهورية- إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من تراجان **Trajan** إلى أورليوس **Aurilius**- ما شهده في هذا العهد من نشاط وحكمة ومهارة في تصريف الشؤون السياسية، كما لم يشهد في غير ذلك العهد ما شهده فيه من سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب. ولسنا ننكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلل، وأنهم كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة، وأنهم كانوا في بعض الأحيان متقلبين لا يثبتون على سياسة واحدة، يعميهم حب الكسب عن رؤية مصالح الدولة. ولكن الذي لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من كبار الحكام، والمديرين والقواد العسكريين، وكان منهم الولاة الذين حكموا ولايات لا تقل

سعة عن الممالك، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات الأعوام تنجب لروما ساسة وقواداً. ولهذا كان من المستحيل ألا يخلو مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة. وكان مجلس الشيوخ في أسوء حالاته في أيام الانتصار وفي أحسنها أيام الهزيمة. وكان في وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون كثيرة، كما كان في مقدوره أن يبدأ حرباً في عام ٢٦٤ ق.م لا تضع أوزارها إلا في عام ١٤٦ ق.م. وحسبنا دليلاً على عظمته أنه لما جاء الفيلسوف سينياس Cineas إلى روما موفدًا من قبل بيرس Pyrrhus عام ٢٨٠ ق.م.وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى بلاده، قال للإسكندر الجديد إن الذي رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة مأجورين، ولم يكن مجلسًا من عقول عادية جمعتها المصادفات المحضة، بل كان في مهابته وحسن سياسته "مجمعًا للملوك بحق" .

الحكام:

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المئوية، أما صغارهم فكانت تختارهم الجمعية القبلية. وكان يعين في كل منصب زميلان متساويان في السلطة، ولا يبقيان فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب. ولم يكن يجوز لشخص ما أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشر سنين، وكان لا بد أن يمضي عام بين خروجه من منصب وتوليه منصبًا آخر، وكان من حق الدولة أن تحاكمه في فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته. وكان الروماني الذي يريد أن يشق لنفسه طريقاً في الحياة السياسية، إذا كان قد قضى في الجيش عشر سنين، يرشح نفسه لأن يختار محاسباً (كوسترا (quaestor ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين في نفقات الدولة، ويعاون المقدمين praetors في منع الجرائم ومحاكمة المجرمين، فإذا نال رضاء الناخبين أو ذوي النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة الإيدليين الذين كانوا يشرفون على المباني العامة وقنوات مياه الشرب، وشوارع المدن، والأسواق، والمسارح، والمواخير، والأبهاء العامة، ومحاكم الشرطة، والألعاب العامة. وإذا اطرد بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون في الحرب قيادة الجيوش ويشغلون في السلم مناصب القضاة وشراح القانون . فإذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة في سلم الوظائف cursus honorum واشتهر بالأمانة وأصالة الرأي كان في وسعه أن يكون أحد الرقيبين censors اللذين تختارهم الجمعية المئوية كل خمس سنين، ويتولى أحدهما الإحصاء الدَّوري للسكان، وهو الإحصاء الذي كان يُعمل كل خمس سنين، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية، وما يجب أن يؤدوه من الضرائب. وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب، ويفحص عن سجل أعماله، ويعمل على صيانة أعراض النساء، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها، وإقامة المباني العامة، وتأجير أملاك الحكومة والتعاقد عليها، والتأكيد من العناية بزراعة الأرض. وكان في مقدور الرقيبين أن ينقصا منزلة أي مواطن، أو يخرجا أي عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة. ولم يكن في وسع أي الرقيبين أن يلغى حق الرقيب الآخر في هذه الناحية. وكان في وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات. وكانا يعدان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات، وكانا عند انتهاء الفترة التي يتوليان فيها منصبهما، ومدتها ثمانية عشر شهراً ، يجمعان في احتفال مهيب يدعى احتفال التطهير القومي Lustrum يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة. وكان

أبيوس كلوديوس كيكس Appius Claudius Caecus (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل، وهو الذي شاد إبان توليه هذا المنصب المجرى المائي والطريقين المعروفين بمجرى أبيوس وطريقه، ورقي الأغنياء من العامة أعضاء في مجلس الشيوخ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة، وعمل على أضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق القوانين وتصريف الشؤون القضائية، وترك له أثراً خالداً في النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الروماني، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذي ألقاه وهو على فراش الموت. ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة. أما من الوجهة العملية فإنه لم يختر من العامة إلا عدد قليل جداً من القناصل، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالاً أوتوا حظًا موفوراً من التعليم والمران ليعالجوا كل الشئون التنفيذية في جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط في حالتي الحرب والسلم. وكان الموظف الكبير الذي يشرف على اختيار القنصل - إذا ما حان موعد الاختيار- يرقب النجوم ليعرف مَن مِن المرشحين الكثيرين يحن أن يعرض اسمه ليختار لهذا المنصب؛ فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المئوية في اليوم التالي، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرته في النجوم أنهم صالحون. وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثي النعمة والزعماء المهرجين وبين تسنم هذا المنصب الرفيع. وكانت الجمعية في معظم الحالات تلتزم هذا الخداع الصالح حتى لا تقع في الزلل، أو لأنها لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها. وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح، وهو ثوب أبيض بسيط، علامة على بساطة حياته وخلقه؛ ولعله كان يحتار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندب الجروح التي أصيب بها في ميادين القتال. فإذا نجح تولى منصبه في اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالي ليوم الانتخاب. وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليه رياسة الطقوس الدينية الخطيرة. وكان في وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المئوية إلى الانعقاد، ويرأس جلساتهما، ويقترح القوانين، وينفذها، ويوزع العدالة بين الناس. وكان في أوقات الحرب يجيش الجيوش، ويجمع ما يلزمها من الأموال، ويشترك مع زميله القنصل الثاني في قيادة الفيالق العسكرية؛ فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا في الأسر أثناء السنة التي يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين Interregnum، وعين من يتولى تصريف الأمور Interrex (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة في أثنائها لانتخاب جديد. ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورثا في مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك. وكانت سلطة القنصل تحددها سلطة زميله القنصل الثاني المساوية لسلطته، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ، وبما كان للتربيون من حق الاعتراض على قراراته. وقد اختير في عام ٣٦٧ ق.م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل في الحرب وعشرة "تربيونين من العامة" يمثلونهم في أوقات السلم. وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محصنين إذا مسهم أحد بسوء إلا في عهد الدكتاتورية القانونية عد ذلك خروجاً على الدين وجريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام. وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان الحكومة، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هي كلمة فيتو Veto ومعناها "أُحَرِّم" كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه. وكان من حق التربيون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية. وكان باب بيته المحصن يظل مفتوحاً ليلاًونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب

إليه المعونة أو الحماية. وهذا الحق- حق الحماية أو القداسة- شبيه بحق الحصانة **habeas corpus** الذي يمنحه القانون الإنجليزي لسكان إنجلترا في هذه الأيام. وكان في وسعه وهو جالس على دكته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها، ولا تستأنف إلا لجمعية القبائل. وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك في استطاعته.

تُرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلطانهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التي فرضت عليهم؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة روما نفسها وعلى أوقات السلم وحدها، أما في زمن الحرب فقد كان التربيونون خاضعين للقناصل. والسبب الثاني أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التربيونين من بين أغنياء العامة؛ وكان ما للثروة في روما من منزلة، وما يصحب الفقر من ضعة، يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمايتهم والدفاع عنهم. وثالث الأسباب أن زيادة عدد التربيونين من أربعة إلى عشرة قد جعل في مقدور الواحد منهم، إن أمكن إغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل، أن يُلغى بما له من حق الاعتراض قرار التربيونين الباقين. وقد سلس قيادتهم على مر الزمن حتى أصبح في الإمكان أن تعهد إليهم دعوة مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك في مناقشاته، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهي مدة بقائهم في مناصبهم. وإذا لم تفلح هذه الوسائل كلها في إضعاف سلطان التربيون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعي أعظم منها أثراً. ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات، كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق في إبان الاضطراب والخطر القومي ما يتطلبه إنقاذ الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد. وكان من حق مجلس الشيوخ في هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشح حاكماً مطلقاً يتولى جميع السلطات. وقد أختير أولئك الحكام المطلقون في جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف؛ ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسئ استخدام هذا المنصب. وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأملاك، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ. وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة. وقد تقيد الحكام المطلقون جميعهم، ما عدا اثنين منهم، بهذه القيود متبعين في ذلك السنة الحسنة التي سنها لهم سنسناتس **Cincinnatus** كما تقول الرواية المأثورة، فقد دعي هذا الرجل من وراء المحراث لينقذ الدولة (عام ٤٥٦ ق.م)، فلما أدى مهمته عاد من فوره إلى مزرعته. ولما أن خرج صولا **Sulla** وقيصر على هذه السنة عاد الحكم الجمهوري إلى الملكية التي نشأ منها.

القانون الروماني :

وكان كبار الحكام يهيمنون على توزيع العدالة في نطاق هذا الدستور الفذ تطبيقاً للألواح الاثنى عشر التي سجلتها فيها لجنة العشرة. ولقد كان تسجيل القانون الروماني في هذه الألواح حادثاً هاماً في التاريخ الروماني؛ وكان القانون الروماني قبل هذا التسجيل خليطاً من العادات القبلية، والمراسيم الملكية، والأوامر الكهنوتية. وبقيت أساليب

القدماء- Mos Maiorum- إلى آخر أيام روما الوثنية القدوة الخلقية الصالحة، والمعين الذي تستمد منه القوانين؛ ومع أن الخيال، والرغبة في الإصلاح والتهذيب، قد أعليا من شأن سكان المدن القساة في عهد الجمهورية الأول، وجعلا منهم أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملا للوصول إليه، فإن القصص التي تروي عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المربين على غرس فضيلتي الصبر وقوة الاحتمال في أخلاق الشباب في روما. أما عدا هذا فإن القانون الروماني القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية، فكان بذلك فرعاً من الدين، يغمره جو من الطقوس الرهيبة والحدود المقدسة. وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب، بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين سلام الآلهة؛ وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها هي والسلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما.

وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل fas et nefas، ويقررون في أي الأيام تفتتح المحاكم وتعقد المجالس. وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق، والعزوبية والزواج بالأقارب، والوصايا ونقل الملكية، وما للأطفال من حقوق، كانت كل هذه المسائل لابد من عرضها على الكهنة كما لا بد من عرض الكثير منها على المحامين في هذه الأيام. وكان الكهنة وحدهم هم الذين يعرفون القوانين والسنن التي لا يكاد يستطاع عمل شيء مشروع إلا باتباعها. وكانوا في روما هم المستشارين القانونيين، وكانوا هم أول من يبدي الرأي القانوني ressponsa في مهام الأمور. وكانت القوانين تسجل في كبتهم، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة؛ وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا في بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكي تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين.

الألواح الاثنى عشر:

ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً، ذلك أنها أذاعت القانون الروماني ونشرته وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية. وتمثل هذه الألواح- كما تمثل غيرها من كتب القانون التي دونت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين خاروندس Charondas، وزليكسZaleucus، ليقورگوس Lycurgus، وصولون- Solon مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الديمقراطية فيهم. يضاف إلى هذا أن "قانون المواطنين"ius civile، كما هو مدون في الألواح الاثني عشر قد تحرر من الصبغة الدينية أو "القانون الديني" ius divinum كما يقول الرومان أنفسهم، وكأن روما بعملها هذا استقر رأيها على إلا تكون دولة كهنوتية. وضعف سلطان الكهنة فوق هذا الضعف وحرموا من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر أپيوس كلوديوس Appius Claudius "الأعمى" في عام ٣٠٤ تقويماً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف "بأيام الأفوال dies fasti"، ومر سوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية، ولم تكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل.

وخطا الرومان خطوة أخرى في صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ كرنكانيوس Coruncanius في عام ٢٨٠ ق.م يعلم الشعب القانون الروماني وهو أول عمل من نوعه معروف في التاريخ. ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل روما وحياتها. وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم في روما، وظل تلاميذ المدارس إلى أيام شيشرون يحفظون ما تحتويه عن ظهر قلب؛ وما من شك في أنها كانت من العوامل التي بثت في نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام، والاستمساك بالقانون وعدم التفريط في الحقوق. ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريترية والقنصلية والإمبراطورية، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الروماني.

التقاضي الروماني:

وكان قانون المرافعات في كتاب القوانين الروماني وافياً شديد التعقيد. وكان في وسع أي موظف كبير- إلا في القليل النادر- أن يكون قاضياً، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من البريتورين praetors وكان إصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التي أكسبت القانون الروماني حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات. ذلك أن كبير حكام المدينة praetor urbanus كان يعد في كل عام ثبتاً أو "لوحة بيضاء" يحوي أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصح اختيارهم ليكونوا محلفين؛ وكان رئيس الجلسة في كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء، على أن يكون للمدعي والمدعي عليه الحق في أن يرفضا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا في عدد محدود من المرات. وكان يسمح للمحامين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم في ساحة القضاء، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية في بيوتهم أو في مجالس عامة. وكان قانون سنسيوس Cincius الصادر في عام ٢٠٤ ق.م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً، ولكن المهارة القانونية كانت تجد كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية؛ وكثيراً ما كان الأرقاء يعذبون لحملهم على الاعتراف.

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التي شهدها التاريخ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله- وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات. واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامة؛ وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد؛ كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه. وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفي، أو الاسترقاق أو الإعدام، ومنها ما كان يجري بطريق القصاص (lex talionis) .

وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدي عليه: "فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس ، وكسر عظام العبد ١٥٠ آساً". وكان القذف والرشوة والحنث في الإيمان، وسرقة المحصولات الزراعية، وإتلاف غلات الجار ليلاً، وخديعة المحامي للمتقاضين، وممارسة السحر، ودس السم في الطعام، والاغتيال، "والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات" كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام. وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيس ومعه في بعض الأحيان ديك، أو كلب، أو قرد، أو أفعى، ويلقى في النهر. على أنه كان من حق المواطن في العاصمة نفسها أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكتاتور نفسه إلى الجمعية المئوية، وإذا رأى المتهم أن الأمور في الجمعية تسير في غير مصلحته كان له أن يخفف الحكم الصادر عليه إلى النفي وذلك بالخروج من روما. ولهذا فإن عقوبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثني عشر قلما كانت تنفذ في عهد الجمهورية الرومانية.

جيش الجمهورية:

هو النظام العسكري القائم في العصر الروماني القديم. وقد كان الجيش الروماني هو الأساس الذي يعتمد عليه الدستور الروماني في آخر الأمر ، الذي كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحًا في تاريخ العالم كله.

كان أكبر العوامل في قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه، ذلك أن الشاب الروماني كان يعد للحرب منذ طفولته، فكان أهم ما يدرسه العلوم التي تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً، وكان يقضي عشر سنوات من عمره في ميادين القتال أو في المعسكرات. وكان الجبن في هذا الجيش هو الجريمة التي لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت. ولم يكن من حق قائد الجيش أن يحكم بالإعدام على أي جندي أو ضابط للفرار من القتال فحسب، بل كان من حقه أيضًا أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذا خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إياها إلى أحسن العواقب. وكان الذي يفر من الجندية أو يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقط يده اليمنى.



الجمهورية الرومانية سنة ٢٠٠ ق. م.

فتح إيطاليا:

لم يكن الأعداء في يوم من الأيام يحيطون بروما أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلاً مربعاً - أي مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلاً في تسعة عشر. ولما أن تقدم لارس بورسنا Lars Porsena ليهاجمها استعادت كثير من العشائر التي كان ملوك روما قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف في وجه روما. وكانت إيطاليا في ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهجتها الخاصة بها. فكان في شمالها اللجوريون، والغاليون، والأمبريون، والتسكانيون، والسبنيون؛ وكان في جنوبها اللاتين، والفلشيون، والسمنيون، واللوكانيون، والبريتانيون؛ وكان على شاطئها الجنوبي والغربي مستعمرون من اليونان في كومية، ونابلي، وبمبي، وبستوم، ولكري، ورجيوم، وكروتونا، ومثابنتم، وتارنتم . وكانت روما في وسط هذه العشائر والمدن جميعها، ذات موقع حربي يمكنها من التوسع وبسطة الملك، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها في آن واحد. وكان سبب نجاتها أن أعدائها لم يتحدوا عليها. وقد حدث في عام ٥٠٥ ق.م بينما كانت روما مشتبكة في حرب من السبنيين أن وفدت عليها إحدى العشائر السبنية- عشيرة الكلوريين- فمنحها روما حق مواطنيها نظير شروط مرضية. وفي عام ٤٤٩ ق.م هزمت روما السبنيين، ولم يحل عام ٢٩٠ ق.م حتى ضمت كل أرا ضيهم إليها، وما وافى عام ٢٥٠ ق.م حتى كان لهم كل ما لأهل روما من الحقوق. وفي عام ٤٩٦ق.م أغرى آل تاركوين بعض لاتيوم وهي تسكولوم، وأرديا، ولنوفيوم، وأريسيا، وتيبور وغيرها بالانضمام في حرب تشنها على روما. ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادي القوة، فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم، وهو أولس بستوميوس Aulus Postumius، وانتصروا على هذا الحلف اللاتيني عند بحيرة رجيلس Regillus نصراً مؤزراً كان سبباً في نجاتهم. ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون في هذه الواقعة من الإلهين كستر وبلكس Castor & Pollux إذ غادرا جبال أولمبس ليحاربا في صفوفهم. وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت روما مع الحلف اللاتيني معاهدة تعهد فيها الطرفان أن "يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض... وأن يشتركا على قدم المساواة في جميع غنائم الحرب". وكانت روما في بادئ الأمر عضواً في هذا الحلف ثم أمست زعيمته، ثم سيدته المسيطرة عليه. وفي عام ٤٩٣ق.م حاربت الفلشيين Volscians؛ وفي هذه الحرب ظفر كيوس مار سيوس Caius Marcius بلقب كريلانس Coriolanus بعد أن ا ستولى على كريلاي Corioli عاصمة الفلشيين . ويضيف المؤرخون إلى هذا- ولعل للخيال والقصص شأن كبير فيما يضيفون- أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعياً شديد الرجعية، فنُفي من روما بناء على طلب العامة وإصرارهم ٤٩١، فلجأ إلى الفلشيين، وأعاد تنظيم جيوشهم، وسار على رأسهم لحصار روما. ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولاً في إثر رسول ليثنوه عن عزمهِ، ولكنه لم ينثنِ، فلما جاءته أمه وزوجته تتوسلان إليه وردهما خائبتين أنذرتاه بأنهما ستسدان الطريق أمامه بجسديهما، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن روما. وكان جزاؤه أن قتله الفلشيون، وفي رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشةً ضنكاً، حتى بلغ من العمر أرذله. وفي عام ٤٠٥ق.م قام النزاع على أشده بين روما وفياي Veii للسيطرة على نهر التيبر. وحاصرت روما مدينة فياي ودام الحصار تسع سنين،

وشجع هذا مدن إتروريا فانضمت إلى فياي ضد روما، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء، فأقاموا عليهم دكتاتورًا يدعى كاملس Camillus، فجند جيشاً جديداً استولى به على فياي ووزع أرضها على مواطني روما. وفي عام ٣٥١ ق.م ضم جنوب إتروريا إلى روما بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم تسكيا Tuscia وهو اسم لا يكاد يفترق عن اسم المقاطعة في الوقت الحاضر. وفي هذه الأثناء واجهت روما في عام ٣٩٠ ق.م خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة، وهو الصراع الطويل الذي لم ينته إلا في عهد يوليوس قيصر. وذلك أنه بينما كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين روما وإتروريا تسللت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدرة من جبال الألب، واستقرت في إيطاليا ، وانتشرت جنوباً حتى نهر البو Po. ويطلق المؤرخون القدامى على هؤلاء الغزاة اسم كلتاي- أو سلتائي، أو جلتائي أو غالي دون تمييز بينها. ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل؛ وكل ما نستطيع أن نصفها به أنها ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التي سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسبانيا الوسطى، وبلجيكا، وويلز، واسكتلندة، وإيرلندة، وأدخلت فيها اللغات التي وجدها الرومان في تلك البلاد. ويصفهم بولبيوس Polybius بأنهم "طوال القامة، حسنو الوجوه"، يحبون القتال، ويحاربون وهم عراة الأجسام إلا من تمائم وسلاسل ذهبية. ولما أن ذاق الكلت سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النبيذ الإيطالي سرهم مذاقه كل السرور فاعتزموا أن يزوروا الأرض التي تخرج تلك الفاكهة اللذيذة. ولعل أصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرعى وللأرض الجديدة، فلما دخلوها أقاموا فيها وقتاً ما مسالمين على غير عادتهم المألوفة، يحرثون الأرض ويرعون الماشية، ويتثقفون بما كان في المدن من ثقافة تسكانية. ثم غزوا إتروريا في عام ٤٠٠ ق.م ونهبوها، وقاومهم التسكان مقاومة ضعيفة، لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى فياي ليصدوا عنها الرومان. وفي عام ٣٩١ ق.م وصل ثلاثون ألفاً من الغاليين إلى كلوزيوم Clusium؛ وبعد عام واحد التقوا بالرومان على نهر أليا Allia وهزموهم هزيمة منكرة بددت شملهم، ودخلوا روما فاتحين دون أن يلقوا في ذلك مقاومة، ونهبوا المدينة وحرقوا كثيراً من أحيائها، وظلوا سبعة أشهر يحاصرون فلول الجيش الروماني المعسكر على الكبتول Capitol- وهو قلة تل الكبتولين Capitoline- حتى استسلم لهم الرومان آخر الأمر، وأدوا للغاليين ألف رطل من الذهب نظير انسحابهم . وغادر الغاليون روما ولكنهم عادوا إليها في أعوام (٣٦٧، ٣٥٨، ٣٥٠) ق.م. وصدهم الرومان في كل مرة فقنعوا أخيراً بشمال إيطاليا الذي أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية. وألفى من بقي من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على أن يتمنوا لو استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا فياي عاصمة لهم. ولكن كمليوس أثناهم عن عزمهم، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء بيوتهم من جديد. وكانت السرعة التي تم بها هذا البناء، وهم يواجهون الأعداء من حولهم، سبباً من الأسباب التي جعلت روما مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية. وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها، إذا رأتها موشكة على الدمار والخراب، ثارت عليها ثورة في إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفاؤها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة. ولقد هاجمها اللاتين، والإكوريون، والهرنيشيون، والفلشيون مجتمعين أو متفرقين. ولو انتصر الفلشيون لفصلوا عن جنوب إيطاليا وعن البحر، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها؛ ولكن روما انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتيني في عام ٣٤٠ ، وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضمت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها .

وفي هذه الأثناء كان ما نالته روما من النصر على الفلشيين سبباً في وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمينة القوية. وكانت هذه القبائل تمتلك قطاعاً مستعرضاً في إيطاليا يمتد من بابلي حتى البحر الأدرياوي، ويشمل مدناً غنية مثل نولا Nola وبنفنتم Beneventum، وكومية Cumae، وكبوا Capua. وكانت قد استولت على معظم المستعمرات التسكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربي، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفي لخلق فن كمباني Campanian، متميز عن غيره من الفنون، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم. واشتبكت روما مع هذه القبائل في ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها في الانفراد بالسيادة على إيطاليا. ومُنيَ الرومان في مشاغب كودين Coudine Forks ٣٢١ بهزيمة من أكبر هزائمهم، ومر جيشهم المنهزم "تحت النير"- أي تحت قوس من حراب الأعداء- رمزاً لخضوعهم. ووقع القنصلان في ميدان القتال شروطاً لصلح مذل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه، ونجح السمنيون في أن يضموا إليهم التسكانيين والغاليين، وألفت روما نفسها وقتاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح. ولكن الفيالق الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً في سنتينوم ٢٩٥ Sentinum ضمت روما على أثره كمبانيا Campania وأمبريا Umbria إلى أملاكها. وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغاليين إلى ما وراء نهر ألبو وأخضعت إترووريا مرة أخرى لسلطانها. وبذلك أصبحت روما سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغاليين في الشمال إلى المقاطعات اليونانية في الجنوب. لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة، ورغبتها في مواصلة الفتح من جهة أخرى، قد حملاها على أن تحيز مدن "اليونان الكبرى" Magna Graecia بين الحرب وبين محالفتها حلفًا تقر فيه لروما بالزعامة. وفضلت مدن تورياي Thurii ولكري Locri وكروتونا Crotona أن تحالف روما على أن تتعرض للاندماج في القبائل "المتبربرة" (أي الإيطالية)، التي كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها؛ ولعلها هي أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملاك مطامع العامة الذين كان سلطانهم آخذًا في الازدياد. لكن تارتم Tarentum وقفت وقفة المعاند، واستعانت ببيرس Pyrrhus ملك إبيروس Epirus . وثارت في نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل Achilles والإسكندر فعبر البحر الأدرياوي بقوة إبيروسية، وهزم الرومان في هرقيلة ٢٨٠ Heraclea ق.م ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالي الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثي لحاله. وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية في إيطاليا، وحالفه اللوكانيون، والبوتيون، والسمنيون. وبعث سنياس Cineas إلى روما يعرض عليها الصلح، وأطلق سراح الألفي أسير روماني الذين كانوا في قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضلت روما الحرب على السلم. وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أبيوس كلوديوس Appius Cladius، الشيخ الأعمى المسن الذي كان قد اعتزل الحياة العمة من زمن طويل، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس، فلما دخل على الأعضاء طلب إليهم تعقد روما قط صلحاً مع جيش أجنبي في أرض إيطاليا. ورد مجلس الشيوخ إلى بيرس من أطلقهم من الأسرى وبدأت الحرب من جديد. وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى، ثم عافت نفسه جبن أحلافه وضعفهم وترددهم، فأبحر مع من بقي معه من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين، وطردهم من أملاكهم في الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا القليل. ولكنه اغضب بحكمه القوي اليونان سكان صقلية،وكانوا يظنون أن في وسعهم أن يستمتعوا بالحرية دون أن يؤدوا لها ثمناً من النظام والشجاعة، فقبضوا عنه معونتهم، فعاد بيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية: "ما أعظمها من غنيمة تتنازعها

قرطاجنة وروما!" والتقى جيشـــه بالجيش الروماني في بنفنتم ومني بالهزيمة لأول مرة (٢٧٥). واتضـــح في هذه الواقعة أن الأولوية الخفيفة السـلاح السريـعة الحركة أصـلح من الصـفوف المتراصـة البطيئة، وبدأت بذلك صـفحة جديدة في تاريخ الحروب. وأهاب بيرس بأحلافه الإيطاليين أن يمدوه بجيوش جديدة، فلم يلبوا نداءه لارتيابهم في إخلاصـــه ومثابرته. فعاد إلى إبيروس ومات في بلاد اليونان ميتة المغامرين. وفي الســـنة التي مات فيها (٢٧٢ ق.م) غدرت ميلو Milo بتارنتم وانضـــمت إلى روما. وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضـــعت لروما واســـتســـلم لها الســـمنيون وهم كارهون محزونون، وأمســـت إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين ســيدة إيطاليا لا ينازعها فيها منازع. وسرعان ما ثبتت روما أقدامها في البلاد المفتوحة بما كانت ترسله إليها من الجاليات، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتيني. وقد أفادتها هذه الجاليات فوائد كثيرة: فقد خففت عنها خطر التعطل، وقللت من تزاحم الأهلين على موارد الرزق، وما ينشأ عن هذا التزاحم من نزاع بين الطبقات في روما. وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لروما بين الأهلين الغضـاب، كما كانت مراكز أمامية ومصـارف للتجارة الرومانية، تنتج الطعام للبطون الجياع في العاصـمة، ذلك أن المحراث قد أتم ما بدأه السـيف من الفتوح. وبهذه الوسـائل كلها وضـعت روما الأسـس التي أدت إلى صـــبغ مئات من المدن التي لا تزال قائمة إلى اليوم بالصـــبغة الرومانية، فانتشرـت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية في جميع أنحاء شـبه الجزيرة التي كان معظمها لا يزال في طور الهمجية يتكلم أهله لغات شـتى. وسـارت إيطاليا بخطى وئيدة في طريق الوحدة الدولية، وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوحدة السياسية وحشية في طريقتها عظيمة في أثرها وغايتها. لكن كان في قورسقة وسردانية وصقلية وإفريقيا قوة أشد من روما بطشاً وأقدم منها عهداً، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربي، وتترك إيطاليا سجينة في بحارها. تلك هي قرطاجنة.

الحياة الإجتماعية:

الأســرة :

كان ميلاد الأطفال نفســه مغامرة خطيرة في روما؛ فقد كانت العادات الألوفة تبيح للأب إذا ولد طفل مشــوه أو كان أنثى أن يعرضـــه للموت. أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد، وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما، كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء. ذلك أن الحياة الريفية جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة، ولذلك كان الرأي العام يندد بالعقم، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في عقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعنى بقبره، قاســـت روحه ألوان الشـــقاء والعذاب إلى أبد الدهر.

وكانوا إذا مضىـ على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد الدار احتفالاً رســـمياً مهيباً بضـــمه إلى الأسرة والعشيرة. وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد، وتسمى باسمه، وتشترك بعضـــها مع بعض في العبادة، وتتبادل العون في الســـلم والحرب. وكان الولد الماكر يعرف باســـمه الخاص الأول (praenomen) مثل بيليوس Publius، أو ماركس Marcus، أو كيوس Caius، وباســـم عشـــيرته (nomen) مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tullius، أو يوليوس Julius؛ وباسم أسرته مثل سبيو Scipio، وشيشرون Cicero،

وقيصر Caesar. أما النساء فكن في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرهن وحدهن مثل كرنليا Cornelia، وتليا Tullia، وكلوديا Claudia، ويوليا Julia .

وإذ لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً، وكانت هذه الأسماء تتكرر في الأسرة الواحدة جيلاً بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور، فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً- وخامساً في بعض الأحيان- ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض. ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون سبيو قاهر هنيبال من سميه الذي دمر قرطاجنة بتسمية الأول ب. كرنليوس سبيو الإفريقي الأكبر P. Cornelius Scipio Africanus Major. والثاني ب. كرنليوس سبيو إيمليانس الإفريقي الأصغر P. Cornelius Scipio Aemilianus Aficanus Minor .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج في أخص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية. وتكاد سلطة الأب في هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمة. وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأول، فهو وحده الذي كان من حقه أن يشتري الملك ويحتفظ به أو يبيعه، وأن يتعاقد باسمه؛ وحتى بائنة زوجه كانت في ذلك العهد ملكاً له. وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه؛ وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره. وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق. وكان كل ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده. وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها، إلا إذا سمح لها أن تتزوج زواجاً Cum manu أي أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه. وكان له على عبيده سلطة لا حد لها؛ فكان هو وزوجته وأبناؤه "ملك يده" mancipia؛ ومهما يبلغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو أو "يطلقهم من يده" emancipate them. على أن العادات، والرأي العام، ومجلس الشيوخ، وقانون البريتورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق "رب الأسرة" إلى حد ما. أما فيما عدا هذه القيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت، وكانت له ولو ذهب عقله أو أراد هو أن يتخلى عنها. وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هي الأساس الذي قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم، وأن أدب الرومان تأديباً بعث في أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية.

وكانت قوانينهم في حرفيتها أشد منها صرامة في تطبيقها، وقلما كانوا يطبقون أقسى هذه القوانين؛ وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة؛ فلم يكونوا يقفون في سبيل حنان الآباء القوي الطبيعي على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لآبائهم، حتى لقد كانت شواهد القبور في روما تبلغ من الرقة ما بلغته في بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن في هذه الأيام. وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة- وهي أشد من حاجتها إليه- تكسبها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف في وجهه، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة في روما من القيود التي يفرضها عليها القانون. فقد كان يحرم عليها أن تظهر في دار المحكمة ولو كانت شاهدة. وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأي حق لها في ماله؛ وكان

له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال.وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل- أبيها أو أخيها، أو زوجها، أو ابنها أو وصي عليها- لا تستطيع أن تتزوج أو تتصرف في مالها بغير رضاه. لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس Sesterce أي نحو (١٥,٠٠٠ دولار أمريكي).

أما التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى. وكثيراً ما أصبحت النساء في تاريخ الجمهورية المتأخر من ذوات الثروات الطائلة، لأن أزواجهن كانوا يهربون لهن أملاكهم ليتخلصوا بذلك مما عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة، أو حكم عليهم بتعويض، أو ليتملصوا من ضرائب الشركات، وفي ذلك من الأخطار التي لا نهاية لها. وكان لها في شؤون الدين شأن غير قليل؛ فكان لها أن تكون كاهنة؛ وكان من الواجبات المفروضة على كل كاهن تقريباً أن تكون له زوجة، فإذا ماتت حرم من منصبه. أما في المنزل فكانت هي سيدته المعظمة mea domina؛ ولم تكن كالزوجة في الحياة اليونانية تحجز في جناح الحريم بل كانت تتناول الطعام مع زوجها وإن كانت تجلس منتصبة ويجلس هو متكئاً . وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر من الخدمة المنزلية، ذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على خدمته. وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها، ولكن أهم واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها. على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن تربي بنفسها أطفالها. وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم، وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تطغي على حبه لها.

وكان الأب والأم، ودارهما وأرضهما وأملاكهما، وأطفالهما الصغار، وأبناؤهما المتزوجون، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء، وزوجاتهم وعبيدهم ومواليهم- كان هؤلاء كلهم يؤلفون الأسرة الرومانية Familia؛ ولم تكن هذه الكلمة عندهم تعني أسرة بقدر ما تعني بيتاً من فيه، وما فيه. فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوي القربى، بل كان يعني مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة، يخضعون كلهم، وتخضع كلها، لأكبر الذكور سناً. وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذي يضم في داخله وظائف الأسرة، والكنيسة، والمدرسة، والنظم الصناعية والحكومية، شب الطفل الروماني وترعرع على حب الطاعة والتقوى، فكان منه مواطن قوي صلب العود في دولة لا تغلب.

الأخلاق:

ترى أي مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التي كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد إنيوس Ennius إلى عهد جوفنال Juvenal تجعل تلك الأجيال القديمة مثلاً أعلى وتندم على الأيام الخالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين. و ستوحي إلينا صفحات هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين روما فبيوس الرواقية وروما نيرون الأبيقورية، ولكن علينا ألا نغالي في هذه الفوارق بتحيزنا في اختيار الشواهد التي ندلل بها على وجودها؛ ذلك بأنه كان في عهد فبيوس أبيقوريون كما كان في عهد نيرون رواقيون. ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادي واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الروماني إلى نهايته: ظلت خشنة طليقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة في ظل الأسرة.

وكان يطلب إلى الفتيات في جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن، وما أكثر القصــص القوية التي كانت تروى لرفع شـأنها؛ ذلك أن الروماني كان قوي الإحســاس بحق الملكية، شــديد التمســك به، ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه. ولكن الرجال في روما لم يكونوا يلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرياء بني الإنســان ونفاقهم، شــأنهم في هذا شــأن الرجال في بلاد اليونان. وإنَّا لنجد في أقوال كتابهم وخطبائهم من عهد كانو الأكبر إلى شــيشرــون عبارات صريحة يبررونبها هذا النوع من الدنس ؛ وليس الذي يزيد بتقدم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذي يزيد هو الفرص التي تتاح لإظهار هذا الفســاد والتعبير عنه. ولم تكن العاهرات كثيرات في روما في أيامها الأولى، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة، وكن محصورات في الأركان المظلمة من روما ومن المجتمع الروماني. ولم تكن قد نشـأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشـبيهات بطائفة المطربات في أثينا، كما لم يكن قد نشـأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيقات اللاتي تغنى بهن أوفد **Ovid** في شعره. وكان الرجال يتزوجون في سن مبكرة قبل الســنة العشرــين من عمرهم في العادة، ولم يكن الباعث على الزواج هو الحب الروائي، بل كان هو الرغبة الصــادقة الســليمة في أزواج يعاونهم في عملهم، وأبناء ذوي فائدة لهم، وأن يســتمتعوا بحياة جنســية ســليمة. وكان يقال في حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال.

وكان للأطفال في المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حية. وكان الأباء هم الذين يزوجون أبناءهم وبناتهم، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء في طفولتهن، وكان رضــا أبوي الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج. وكانت تصـحب الخطبة مراســم وتقاليد معينة، تعد رابطة قانونية بين الزوجين. وكان أقرباء الزوجين يجتمعون في وليمة ليشهدوا عقد الزواج، وكانت قشه **stipula** تكسر بين أهل العروسين علاوة على اتفاقهما. وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد في الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب. وكانت أصغر ســن يباح فيها الزواج هي الثانية عشرــة للفتاة والرابعة عشرــة للفتى، وكان القانون الروماني القديم يجعل الزواج إجبارياً، ولكن اعتقادنا أن هذا القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق.م حين فرض الرقيب كملس **Camillus** ضريبة على العزاب. وكان الزواج نوعين زواجاً كم مانو **Cum Manu** وزواجاً ســن مانو **sin manu** أي زواجاً يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها أو والده وزواجاً لا يتبعه هذا الوضع. وكان زواج سن مانو (من غير تســليم) في غير حاجة إلى حفلة دينية، ولا يتطلب أكثر من رضــاء العروس والعريس. أما زواج وضــع اليد فكان يتم أما بالمعاشرة مدة عام (**usus**) أو بالشرــاء (**Coemptio**) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق الكنفرياشيو (**Confarreatio**) والمعنى الحرفي لهذا اللفظ هو (أكل كعكة معاً). وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلاً دينياً، ولا يتم إلا بين الأشراف.وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلي في عهد مبكر، أو أنه انعكس فكانت الزوجة في واقع الأمر كثيراً ما تشتري الزوج ببائنتها. وكانت هذه البائنة توضع عادة تحت تصرف الزوج، ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا طلقت أو مات زوجها. وكان يصحب العرس كثير من الحفلات والأغاني الشعبية؛ وكانت أسرتا العروسين تطعمان في بيت العروس، ثم يسير أفرادهما في موكب مرح بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد والمزاح

الماجن. فإذا وصلوا إلى بابه المتوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس وسألها: "من أنت؟" فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها وانضمامها له وهي قولها "حيث تكون أنت كيوس Caius أكون أنا كايا "Caia، ثم يرفعها فوق عتبة بيته، ويقدم لها مفاتيحه، ويضع عنقها وعنقه تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها؛ ومن ثم سمى الزواج كنيوجيوم Coniugium أي الاشتراك في النير. ثم تشترك العروس في الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة. وكان الطلاق عسيراً ونادراً في الزيجات التي تعقد بالكنفرياشيو؛ وفي زواج الكم مانو كان الزوج وحده هو الذي يستطيع فصم عرى الزوجية، أما في زواج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة.

وقد سجل أول طلاق في تاريخ الرومان في عام ٢٦٨ ق.م؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحتها إنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط مذ أسست مدينة روما. وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الخائنة أو العقيم. وفي هذا يقول كاتو الكبير "إذا وجدت زوجتك تزني، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها، لأن القانون يحرم عليها هذا". ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفريق. فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التي كتبت عليها بعد وفاة الأزواج. وهاهي ذي عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التي أخلصت في خدمة زوجها: "لقد كنت يا ستاتليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد وفية لأزواجك!. ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر؛ أما أنا الذي نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتك، ألا ما أشد أسفي عليك".

والراجح أن فتيات روما في عهدها الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن في عهودها المتأخرة واللائى يصفهن كاتلس Catullus وصف الرجل الخبير بأنهن Ianeum Iatusculum Manusque molicellas أي أن لهن "جانبين نحيلين أملسين كالصوف، ويدين صغيرتين ناعمتين". أو لعل الفتيات في العهدين لم يكن بينهن هذا الفرق ولكن الكدح والهم في الأيام الأولى أيام العمل في الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة. وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة، وكن في العادة ذوات شعر أسود وعيون داكنة. وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات. أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه في الملاذ في الأيام الأخيرة. وما من شك في أن كليوباترا قد أحبت أنطونيوس لسبب آخر غير خديه المنتفختين من احتساء الخمر، وأحبت قيصر بسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبيهين برأس النسر وأنفه. لقد كان الأنف الروماني كالخلق الروماني حاداً منحرفاً، وظل الرومان يلتحون ويطيلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق.م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم في روما.

أما ملابسهم فكانت في جوهرها كملابس اليونان، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون التوجا براتكستا Toga Praetexta أي الجبة ذات الأهداب الأرجوانية. فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها التوجا فريلس toga virilis "حبة الرجولة" البيضاء دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقترع في الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم في الجيش. وكانت النساء في داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا (stola يربطونه بمنطقة تحت الثديين، ويصل إلى القدمين؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه Palla أو عباءة. وكان الرجال وهم في البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً tunica، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة في بعض الأحيان. وكانت الجبةtegere)أي يغطى) رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعفي عرض لابسها، وطولها ثلاثة أضعاف طوله. وكانت تلف حول الجسم ويلقى ما زاد منها على الكتف اليسرى، ثم تلف من تحت إبط اليد اليمنى، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى. وتستخدم ثناياها التي فوق الصدر كما تستخدم تحت الجيوب، وكانت تترك ذراع لابسها اليسرى حرة في حركتها.

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويراها خلة ثقيلة لا يستغني عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً، ثم شبه جزيرة، ثم إمبراطورية. وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية؛ أما في الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتمثاله، وأن يخفي وراءَ قناع من الهدوء الصارم ما في طبعه من تهيج وفكاهة لا نراهما واضحين ساخرين في مسرحيات بلوتوس الفكهة فحسب بل نراهما كذلك في خطب شيشرون. لقد كان يطلب إلى الرومان حتى في الوقت الذي نتحدث عنه أن يعيش عيشة إسبارطية؛ فكان الرقيب يستهجن الترف في الملبس والمأكل؛ بل أن الزارع إذا أهمل زرعه كان معرضاً لأن يفاجئه الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال. وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من روما بعد الحرب البونية الأولى أخذوا يسّلون أثرياء التجار في بلدهم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة بعينها من الصحاف الفضية في كل بيت دعوا إليه، أي أن مجموعة واحدة تنقل سراً من بيت إلى بيت كانت تكفي طبقة الأشراف جميعها. وكان أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة في بهو Curia لا يدفأ قط في فصل الشتاء. بيد أن الثروة والترف قد بدءا وسارا سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا في معركة كاني عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة، والملابس المبهرجة، والوجبات الغالية الثمن، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى.

لقد ظلت وجبات الروماني العادي حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة، فكان فطوره (ientaculum) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن؛ وكان غذاؤه (prandium) وعشاؤه (Cena) يتكونان من البقول والخضر والفاكهة. أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء. وقلما كانت مائدة ما تخلو من النبيذ المخفف، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً. وكانت الأعياد والولائم من المتع الضرورية في هذا العهد الرواقي، وكان العاجزون عن التمتع بها يضايقهم هذا العجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصبي في تماثيلهم التي

خلفوها لمن جاءوا بعدهم. ولم يكن للصدقات مجال في هذه الحياة المقتصدة المتقشفة. وقد بقيت الضيافة من العادات التي يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزل فقيرة ومتباعدة، ولكن بولبيوس يقول "إن أحداً في روما لا يقدم شيئاً ما لأي إنسان إذا كان ذلك الامتناع في مقدوره"- وما من شك أن في هذا كثيراً من المغالاة.

وكان الصغار يشفقون على الكبار، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى روما إلا في آخر أيام الجمهورية. وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم في الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد، لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه. وكان أسرى الحرب يباعون في الأسواق آلافاً مؤلفة، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون ليموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع. أما في دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق. نعم إن الرومان كانوا يحبون المال، ولكن بولبيوس (حوالي ١٦٧ ق.م) يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء؛ ويقول المؤرخ اليوناني إن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليوناني من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته، أما الرومان فكانوا يتصرفون في مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا في حالات جد نادرة. على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر في عام ٤٣٢ ق.م لمنع الغش في الانتخابات. ويقول المؤرخون الرومان إن النزاهة السياسية قد بلغت أوجها في الثلاثة قرون الأولى من عهد الجمهورية، ولكنهم يثيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لفالريوس كورفوس Valerius Corvus بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من مناصب الحكام، ثم عاد إلى حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها؛ ولكيوريوس دنتاتوس Curius Dentatus الذي لم يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي استولى عليها من الأعداء؛ولفابيوس بكتور Fabius Pictor ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم في مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها في بعثة رسمية.

وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة. وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى الغدر في معاملتها للدول الأجنبية، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية في علاقاتها الخارجية. ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يتغاضى عن تسميم بيرس Pyrrhus، وحذره من المؤامرة التي كانت تدبر له. ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كاني عشرة أسرى إلى روما ليفاوضوها في افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال، وأعاده إلى هنيبال، ويقول بولبيوس إن سرور هنيبال لنصره "لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات و شهامة". وقصارى القول أن الروماني العادي في ذلك العهد كان محباً للنظام، محافظاً، وفياً، لا يفرط في الشراب، وقوراً بخيلاً، قاسياً، عملياً. وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهي. وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تتثبت من أخلاقه كما تتثبت من إيراده، وأن قدره عندها لا يوازن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات، وكان لا يؤمن بالفردية ولا يثق بالعبقرية. ولم يكن يتحلى بشيء من الجاذبية، وخفة الروح وطلاقة اللسان التي يتصف بها يونانيو أتيكا Attica. وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية

والذكاء. وكان النظام مصدر تفوقه على غيره. وكان يعوزه الخيال إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به. وكان يحمل ببعض الجهد على أن يحب الجمال، ولكنه قلما استطاع أن يخلق هذا الجمال خلقاً. وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة، وكان يرتاب في الفلسفة، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأساليب القديمة. ولم يكن في مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم.

الحياة الدينية:

الآلهة :

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى. وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين، والخلق، والنظام الاقتصادي، وكيان الدولة بأجمعها، كما كانت هي المنبع الذي تُستَمد منه هذه المقومات كلها. وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جدّيّاً بالعالم الروحي؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة فستا Vesta ومادتها، وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة والى دوامها؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار، وأن يُعنى بها العناية "المقدسة"، وأن تغذى بنصيب من كل وجبة.وكان الطفل يرى فوق الموقد النصمات تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة: إللار Lra الذي يحرس حقولها ومبانيها، وسعادتها ومصيرها؛ والبينات Penates أو الآلهة الداخلية التي تحمي ما تجمع للأسرة في مخازنها وأصونتها وبيادرها؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول عتبة الدار وإن كانت الأعين لا تراه، وكان ذا وجهين، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب.

وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفنى بفناء الجسم بل يجب أن تغذى على الدوام عند قبر الأب. وكانت الأم هي الأخرى تحمل ربّاً من الأرباب، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة. وكان فيها يونو Juno وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق. وكان للطفل أيضاً يونوه Juno وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في غلافه الفاني. وكن يقال له قولاً يبعث في قلبه الرهبة، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة Di Manes هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أقنعة وجوههم الرهيبة معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأ سلاف، وتذكره بأن الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الخالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدتها الأبدية.

وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلما كبر: فكوبا Cuba تحرسه وهو نائم وأبيونا Abeona تهدي خطاه، وفبيولينا Fabulina تعلمه الكلام. وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما حل. وكانت الأرض نفسها آلهة فهي تارة تلس Tellus وتارة ترا ماتر Terra Mater أي الأرض الأم، وكانت أحياناً هي مارس Mars أي الأرض التي يطؤها بقدميه وخصبها المقدس، وأحياناً تكون هي الآلهة الصالحة Bona Dea التي تمد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة. وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها، پومونا Pomona للبساتين، وفونسFaunus للماشية، وبالسPales للمراعي، واستركيولس Sterculus لأكوام السماد، وساترن Saturn للزرع، وسيريز Ceres للحاصلات، وفُرناكسFornax لتحميص الذرة في التنور، وڤلكانVulcan لإيقاد النار.

الكهنة:

إستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب. وكان الأب في منزله كاهناً، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة، تملأ كل منها ما يخلو في صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم Pontifex Maximus تختاره الجمعية المئوية. ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب خاص؛ بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها؛ ولم تكن تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات، ولم يكن لها أي سلطان سياسي عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها. وكانت تستولي على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها؛ وقد أصبحت بتوالي الأجيال عظيمة الثراء بما كان يحسبها عليها أتقياء الناس من الأموال. وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء، يحتفظون بالحوليات التاريخية، ويسجلون القوانين، ويقرءون الغيب، ويقربون القرابين، ويطهرون روما مرة في كل خمس سنوات. وكان يساعد هؤلاء الأحباء في القيام بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلميني- flamine أي موقدي نيران الأضاحي.

وكان ثمة طوائف من الأحباء أقل من هؤلاء شأناً يؤدون واجبات خاصة: فالساليون Salii أو القافزون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ، والفتيالي fetiales يصدقون على عقد الصلح، وإعلان الحرب، واللوبرسي Luperci أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس لوبركاليا Lupercalia العجيبة. وكانت طائفة العذارى الفستية Vestal Virgins تعني بموقد الدولة وترشه في كل يوم بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة إجيريا Egeria؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الثياب البيض والخُمرُ البيض يُخترن من بين الفتيات اللاتي تتراوح سنهن بين السادسة والعاشرة، وكن يقسمن بأن يظللن عذارى في خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة، وينلن في نظير هذا ضروباً من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى ـ ودفنت وهي على قيد الحياة، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتي عشرة جريمة من هذا النوع، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الإلهة ويتزوجن، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها إذا أتيحت لها.

الأعياد :

إذا كانت العبادات الرسمية مكتئبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصَوَّر الناس والآلهة في صـــورة أبهى وأجمل منظراً. فقد كانت الســـنة تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شـهر، وقد شـمل أحياناً اليومين التاسـع والخامس عشرـ وخصـصـت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلي؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقصاء غضبهم؛ فكانت الأسر الرومانية تحتفل في الأيام ما بين ١١،١٣ من شـــهر مايو احتفالاً رهيباً بعيد الأرواح الميتة Lemures؛ فكان الأب في هذا العيد يبصـق من فمه فولاً أسـود وهو ينادي: "بهذا الفول أنجي نفسيـ وأبنائي.. أذهبي يا أطياف أسـلافي!" ولم تكن أعياد البارنتاليا Parentalia والفراليا Feralia التي تقام في شـــهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات المخيفين؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً لإباحة الجنسية؛ وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية هزلية لبلويس: "في وسعك أن تأكل ما تشاء، وتذهب حيث تشـــاء، وتحب من تشـــاء، على شريطة أن تمتنع عن الاتصـــال بالأزواج والأرامل والعذارى، والغلمان الأحرار" ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالاً واسعاً للاختيار.

وكانوا يحتفلون في اليوم الخامس عشرـــ من شـــهر فبراير بعيد عجيب هو عيد لوبركاليا المخصـــص للإله فونس Faunus الحامي من الذئاب Iupercus، وكان يضـحي في هذا العيد بالمعز والضـأن، وكان اللوبرسي Iuperci-وهم كهنته لا يلبســـون على أجســـادهم إلا مناطق من جلد المعز- يهرولون حول البلاتين Palatine يدعون الإله فونا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحي بها ليطهرونهن ويزيدوا في قدرتهن على إنجاب الأبناء، ثم يلقون بعد هذا دمى من القش في نهر التيبر لاســـترضـــاء إله النهر أو ختله، ولعل هذا الإله في الأيام التي كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضـــحايا بشرية.

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم، ويفعلون ما كان يفعله اليهود في عيد المظلات، فيقيمون لهم خياماً في حقل المريخ، ويحتفلون بالســـنة الجديدة، ويدعون الإلهة أنابريا) AnnaPerenna حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر. وكان في شهر إبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد فلوراليا Floralia. وكان هذا العيد وهو عيد فلورا Flora إلهة الأزهار والينابيع يدوم ستة أيام كلها مرح وسكر وعربدة.

وفي اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد الإلهة الصالحة Bona Dea، وفي التاسع والحادي عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل باللبراليا Liberalia عيد ليبر Liber وليبرا Libera إله العنب وإلهته؛ وكان جماعات من الرجال والنســـاء في ذلك اليوم يمجدون جهرة عضـــو التذكير في الرجال وهو رمز الإخصـــاب. وفي آخر شـــهر مايو كان الإخوان الأرفال Arval يقودون الناس في مواكب عيد الأمبرفاليا Ambarvalia وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح. ثم تهمل الأرباب فلا تقام لها أعياد في أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت في المخازن،

حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى. فكان عيد الستراناليا Saturnalia يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر، وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زُحَل Saturn الذي لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات، والذي يتبادلون فيه الهدايا، ويتحررون من كثير من القيود، ويلغى فيه أو يعكس إلى حين ما بين الأحرار والعبيد من فروق، فكان في مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار سادتهم، ويصدروا إليهم الأوامر، ويتهكموا عليهم، وكان السادة يقفون على الموائد لخدمة العبيد، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام.

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد. وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الروماني إحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب. وكان من عادة الإيطاليين في عهدهم الأول أن يدعو الكاهن الأكبر المواطنين في أول يوم من كل شهر ويذكر لهم ما فيه من الأعياد التي يجب عليهم أن يحتفلوا بها في الثلاثين يوماً؛ وقد ا شتق من هذه الدعوة (Calatis) ا سم Calendae الذي سمي به اليوم الأول من كل شهر. وكان معنى التقويم عند الرومان- وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين- ثبتاً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية، والتاريخية والفلكية.

وتقول الروايات المأثورة إن نوما Numa ثاني ملوك روما هو واضع التقويم الذي ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر. وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثنى عشر شهراً قمرياً، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متو سط مجموعها ٣٦٦ يوماً. ثم خوّل للأخبار في عام ١٩١م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر في هذه الإضافات، ولكنهم استخدموا السلطة التي منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم، ومن أجل هذا فإنه لم يكد ينتهي عهد الجمهورية حتى كان التقويم، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر، مثالاً للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع. أما ساعات النهار فكانت في الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس في السماء، وظل هذا هو النظام المتبع حتى جئ في عام ٢٦٣ ق.م بمزولة شمسية من قطانا Catana في صقلية ووضعت في السوق العامة. ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبي روما؛ وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقي في عاصمة البلاد.

وفي عام ١٥٨ أقام سبيو ناسيكا Scipio Nasica ساعة شمسية عامة. وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات يفصلها بعضها عن بعض اليوم الأول، واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر. ويسمى اليوم الأول الكالند kalend والخامس أو السابع النون none والثالث عشر أو الخامس عشر الأيد ide .

وكانت الأيام تسمى بطريقة سمجة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحَّددة لأقسام الشهر. مثال ذلك أن اليوم الثاني عشر من شهر مارس كان يسمى "اليوم الثالث قبل أيِد مارس". وكان "الأسبوع" عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهي بيوم النندني **nundinae** أو اليوم التاسع، وهو اليوم الذي يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن. وكانت السنة تبدأ بابتداء فصل الربيع، ويسمى الشهر الأول مارتيوس **Martius** باسم إله البذر، ثم يليه أبريلس **Aprilis** أي شهر النَّبت، ثم مايوس **Maius** أي شهر مايا **Maia** أو لعله شهر الوفرة، ويونيوس **Junius** شهر يونو **Juno**، أو لعله شهر النجاح، ثم كونكتلس **Quinctilis**، فسكستلس **Sextilis**، فسبتمبر فأكتوبر فنوفمبر فديسمبر. وقد سميت بترتيبها العددي في السنة؛ ثم يليها يناير **January** ليانوس **Janus** وفبراير لفبروا **Februa** أو الأشياء السحرية التي يطهر بها الإنسان. وكانت السنة نفسها تسمى أنس **Annus** أي الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن في واقع الأمر بداية ولا نهاية.

الدين وأثره في الأخلاق:

ترى هل أعلن هذا الدين على تقويم الأخلاق؟ لقد كان من بعض النواحي مبعث الفساد الخلقي. فاهتمامه بالطقوس والمراسم يوحي بأن الآلهة لا تجزي الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادي أو النصر الحربي.وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض في صورة المسرحية، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عددها كأن هذه الأعياد، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له، هي أساس الدين وجوهره. وكانت الآلهة، عدا قلة صغيرة منها، أرواحاً رهيبة مجردة من النبل والأخلاق الفاضلة. لكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق، والى النظام والقوة في الفرد والأسرة والدولة.

وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل، قبل أن يتسرب إليه الشك، ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة. كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمانات ومعونة مقدسة: فكان يغرس في قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسياً خاصاً، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطاً أساسياً لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام.

يضاف إلى هذا أن الدين، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قبل كل حملة ومعركة حربية، يرفع قوة الجندي المعنوية، ويحمله على الاعتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزو إليه من أصل سماوي وصورة دينية، وبقوله إن الجرائم تخل بنظام السماوات وبسلمها وبوضع سلطان جوف وراء كل قَسَم. وكان الدين يخلع على كل ناحية من نواحي الحياة العامة جلالاً دينياً، ويحتم أن يسبق كل عمل من أعمال الحكومة طقوس وصلوات، ويربط الدولة والآلهة برباط متين، وحد بين التقوى والوطنية، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان في أي مجتمع آخر يعرفه التاريخ.

وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة في شرف تكوين ذلك الخلق الحديدي الذي كان هو السر في سيادة روما على العالم، وفي تحمل تبعة هذا التكوين.

الآداب:

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاقي وحدها هي التي تكون أخلاق الروماني، بل إن المدرسة والآداب كان لها هي الأخرى شأن في تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى. ويقول افلوطرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت في عام ٢٥٠ ق.م ، ولكن ليفي في وصف فرجنيا Viirgtnia محبوبة أحد الحكام العشرة، ولعل لخياله الخصب شأن في هذا الوصف، إنها "كانت تذهب إلى مدرسة في السوق العامة" في تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق.م. وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين، ونشر الألواح الأثني عشر، ليوحي بأن كثرة المواطنين في روما كانت في تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة. وكان المدرس في العادة من العبيد أم من العبيد المحورين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه. ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة.

وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية. وكان في حفظ الألواح الاثنى عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً.ومن أقوال هين Heine في وصف الصعوبة التي يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه "لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم". ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراسة اللغة اليونانية.

وكان الطالب اليوناني يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها، وكان يتلقى دروساً في الوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط. ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقووا أجسامهم ويتعودوا تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهدة النافعة في الحقول والمعسكرات، لا بالمباريات في المجتلدات والملاعب الرياضية. وكانت اللغة- كما كان الشعب- اقتصادية عملية محددة المعاني، مختصرة، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيماً يوصل إلى هدف محدد. وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السنسكريتية واليونانية واللغات الكلتية التي كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلو وأيرلندة؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية. وكانت اللغة اللاتينية أضيق من اللغة اليونانية خيالاً، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة في المعنى الواحد. لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلهما من أصلح اللغات للخطابة؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز، وعبارتها المنطقية، قد جهلاها صالحة لتدوين القانون الروماني. وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى روما من جزيرة خلقيس العوبية Euobean Chalcis عن طريق كومية وإتروريا . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل في أقدم نقش لاتيني معروف يعزى إلى القرن السادس قبل الميلاد، وكان حرف C في اللاتينية القديمة ينطق كافاً مثل حرف K في الإنجليزية كما كان حرفا U,V

ينطقان مثل W,U؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شـــبيهة بمثلها في اللغة الإيطالية الحديثة. وكان معاصرو قيصر– ينطقون اســمه قيصر– Yooleous Keyssar كما كان اســم شــيشرــون Cicero ينطق به كيكرو Keekero.

وكان الرومان يكتبون بالحبر ببراعة معدنية مشـــقوقة (calamus, stilus) على أوراق الأشـــجار في بادئ الأمر (folia)، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان Leaf, folio (ومعناهما صفحتان)؛ ثم كتبوا فيما بعد على باطن لحاء الشجر(liber)؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلي بالشمع (Album)، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ، وعلى الورق. وإذ كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغير من لغة الكلام، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التي كان يتكلمها الشعب، كما يحدث الآن في أمريكا وفي فرنسا. ولذلك نشأت اللغات الرومانســية الرخيمة: الإيطالية والأســبانية والبرتغالية، والفرنســية، ولغو رومانيا، نشــأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشـنة غير المهذبة التي جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار، والأفاقون المغامرون، ولم تنشـأ من اللغة التي جاء بها الشعراء والنحويون. ولهذا ا شتقت الكلمات التي معناها حصان في اللغات الرومانسية- Caballocal، Cavallo، Cheval- من اللفظ اللاتيني العامي Caballus لا من اللفظ الفصـــيح equis. وكان لفظ ille في اللغة اللاتينية العامية ومكوناً من مقطع واحد كلفظ il في اللغتين الفرنســية والإيطالية، وكان حرف S وحرف M يُحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا في آخر الكلمات كما هي الحال في هاتين اللغتين. وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من نسخ أســوئها: Corruptio pesimi optima. ترى ما هو الأدب الذي كان يقرؤه الشــاب الروماني في هذه الثلاثة قرون الأولى من عهد الجمهورية؟ لقد كان في وســعه أن يقرأ ترانيم وأغاني دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضي روما التاريخي أو الأسطوري.

وكان في ذلك العهد سجلات رسمية - معظمها ما كتبه الكهنة - للانتخابات، والمناصب الكبرى، والحوادث الشهيرة، وعلامات التشاؤم والتفاؤل، وأيام الأعياد . وقد اعتمد ك. فابيوس بكتور Q. Fabiue Pictor على هذه السجلات في كتابة تأريخ لروما خليق بالاعتبار، وإن كان ما كتبه باللغة اليونانية؛ ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد في ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبي، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو. لقد كان هناك خليط من النثر يسمى ساتوري Sature، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل الهزلي -صاغ منه لوسلس Lucillus فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horace وجوفنال Juvenal. وكان لديهم مجون هزلي فاحش أو تقليد صامت يقوم له في العادة ممثلون من إتروريا. وقد أطلق لفظ اسـتريوني Istiriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استرياIstria ومن هذا الاسم اشتق لفظ Histrio (ممثل) اللاتيني ومشتقاته في اللغة الحديثة.

كذلك كانت تمثل في أيام الأ سواق والأعياد مسرحيات هزلية فجة شبه مرتجلة، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها: كالأب الغني الأبله، والشاب المتلاف صريع الحب، والعذراء المفترى عليها، والخادم الدســاس الماهر، والنهم الدائب الســعي إلى وجبة، والمهرج المرح الصــخاب. وفي ذلك العهد البعيد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان، وبسراويله الطويلة المنتفخة، وبصديريته الواسعة الأكمام،

وبرأسه الحليق، وهي الصورة التي لا نزال نذكرها من أيام شبابنا. ولقد وجدت على مظلمات خرائب بمبي صورة لا تفرق في شيء عن صورة "القرقوز" المعروفة.

وكان أول دخول الأدب في روما على يد عبد يوناني في عام ٢٧٢ ق.م. ففي ذلك الوقت سـقطت تارنتم في يد الرومان، وذبح الكثير من أهلها اليونان، ولكن ليفيوس أندرينيكوس **Levius Andrenicus** أسـعده الحظ بأن نجا من القتل وصـار في عداد العبيد، ثم جيء به إلى روما فأخذ يعلم أبناء سـيده وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية، وترجم لهم الأوديسة بالشعر اللاتيني الساتورني **Saturnian** وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول. ثم تحرر من الأسر جزاءً له على جهوده وعهد إليه إيديل بكتابة مأسـاة وملهاة تمثلان في ألعاب (**Ludi**) سنة ٢٤٠ ق.م. فكتب المسرحيتين على النمط اليوناني، وأرشد ممثليهما، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما، وغنى ما فيهما من الأناشيد على نغمة مزمار حتى بح صوته. ثم جاء بشخص آخر يغني الأبيات وهو يمثل - وهي طريقة اتبعت في مسرحيات كثيرة بعدهما مثلت في روما، وكان لها أثر كبير في نشـأة المسرحية الصـامتة المضـحكة. وسرّت الحكومة أيما سرور من دخول المسرحية الأدبية في روما فكرمت أندرمكس، بأن أباحت للشـعراء أن يؤلفوا اتحاداً لهم، وأن يعقدوا اجتماعاتهم في هيكل منيرفا على الأفنتين. ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر في الأعياد العامة.

وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندي قديم من عامة الشعب ومن أهل كمبانيا يدعى كنيس نيفيوس **Cnaeus Naevius** فأثار غضـب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل مسـلاة سـخر فيها من المفاسـد السـياسـية التي كانت متفشـية في العاصـمة في أيامه، سـخرية لا تقل في صراحتها عن سخرية أرسطوفان **Aristophanes**. وشكت الأسر الكبيرة من هذه السخرية، فزجّ نيفيوس في السجن ثم اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه، ولكنه عاد فألّف مسرحية أخرى لا تقل في سخريتها اللاذعة عن مسرحيته الأولى، أخرج على أثرها من روما. وكتب في منفاه وهو شـيخ طاعن في السـن ملحمة شـعرية في الحرب اليونانية الثانية التي خاض هو نفسـه غمارها، تفيض وطنية وحماسـة. وتبدأ هذه الملحمة بذكرى تأسـيس روما على أيدي اللاجئين الطرواديين، وقد استمد منها فرجيل موضوع ملحمته وكثيراً من مناظرها. وخليق بنا أن نقول إن الحكم الذي صدر بنفيه كان مأساة مزدوجة؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتّ في عضـدها عنت الرقابة التي كانت تعد السـب جريمة يعاقب عليها بالإعدام، وإن السـياسـة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاماً جريئاً كان في وسـعه أن يطهرها من مفاسـدها. وكتب نيفيوس أيضـاً مسرحية شـعرية تعتمد على تأريخ روما. ووقفت هذه التجربة هي الأخرى عنده، وظلت المآسي الرومانية بعد أيامه محصـورة كلها في دائرة الأسـاطير اليونانية التي نضـب معينها ولم تجد منها مخرجاً إلى غيرها من الموضـوعات. ولم يبقَ مما كتبه نيفيوس إلا قطع قليلة متفرقة تشـهد ببراعته، ومنها قطعة تصـف فتاة لعوباً يقول فيها: "إنها تنتقل من شـخص إلى شـخص تنقل من يلعب كرة في حلقة، وهي كل شيء لكل رجل، تلقاهم بألفاظها، وغمزات عينها، ودلالها، وعناقها. هذا تضـغط عليه بيدها، وذاك بقدمها، وثالث تريه خاتمها، ورابع ترسـل له قبلة حارة مغرية من شفتيها، وهنا أغنية، وهناك لغة الإشارات".

وخليق بنا أن نقول إن النساء لم يكنّ في ذلك الوقت أقل جمالاً وسحراً مما هنّ الآن، وإن الرومان لم يكونوا كلهم متزمتين كما كان "كاتو"، وإن الفضيلة كانت تتنحى عن مكانها في ظلال أبواب الهياكل نفسها. ولم يكن للعلوم شأن في تربية المواطن الروماني أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية، وما يكفي من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد. وكان الأولاد يعدون على أصابعهم (digita)، ولم تكن الأرقام التي يستخدمونها في العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I)، ولليد (V)، أو اليدين متصلتين عن الرسغ (X)، وكانوا يكتفون في تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (III, II) وبإضافة أرقام قبل X ،V أو بعدهما للدلالة على ما هو أقل منهما في الحالة الأولى أو أكثر منهما في الحالة الثانية. ومن هذا الحساب "اليدوي"، وضع النظام العشري القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها، أي الأصابع العشر.

وأجاد الرومان في استخدام الهندسة في أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التي ابتكرها العقل اليوناني، ولسنا نسمع شيئاً عن الفلك الروماني في هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم المليء بالأخطاء، وبالتنجيم شقيق الفلك وحده.

الطب:

أما الطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات في البيوت، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هي القادرة على شفاء المرضى، وكانوا يبتهلون في كل داء إلى إله خاص، كما نلجأ نحن إلى الطبيب الإحصائي، لكي يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض ، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ في اتقاء أذاه إلى الإلهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephtitis، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من "سيدة الحميات" La Madonna della Febbre .

وكانت الأضرحة الشافية والمياه المقدسة شائعة شيوعها في هذه الأيام. وكان هيكل اسيولابيوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الديني يعتمد فيه على التغذية المناسبة، والدعوات الصالحات، والمراسم الدينية المهدئة للأعصاب، ومعونة الأطباء المجبرين العمليين، ولطف مهرة الممرضين- يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات. على أنه كان في روما إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام؛ وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثنى عشر كانت تحرّم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً في تغطية الأسنان.

ونسمع في عام ٢١٩ ق.م عن أول طبيب من الأحرار في روما، وهو أرشجاتوس البلوبونيزي Archagathus Le Peloponnes. وقد أعجب الأشراف بجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على أن يطلب له مسكناً رسمياً ويمنحه حرية المدينة. وكان "شغفه الشديد الذي يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق" سبباً في تلقيبه فيما بعد بالجزار Carnifex . وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى روما حتى أصبحت صناعة الطب في تلك البلاد وقفاً على اليونان.

الزراعة:

قلما كان الرومان في تلك العصور يحتاج إلى الطب، لأن حياته النشيطة في الزراعة والجندية تكسبه صحة وقوة. وكان يجدُّ في فلح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر؛ وكانت الزراعة أساس حياته، يقيم المدن لتكون مجتمعاً للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها، ويفكر في آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية. ونجد الملكية الفردية قائمة في روما من أقدم العصور المعروفة ؛ على أن بعض الراضي كانت تعد من الأملاك العامة **ager publicus** التي تستولي عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها. وكانت أسرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبدها إن كان لها عبد، وتعيش عيشة متقشفة على ما تنتجه من الغلات. وكانوا يفترشون القش ، ويصحون من نومهم مبكرين، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العلوي عار من الملابس، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها، وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاماً في الأعياد والولائم. وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سماداً، ولكن المخصبات الكيمائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية. وقد استورد في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية من بلاد اليونان ومن قرطاجنة. وكانت الأرض تزرع حباً ثم خضراً، ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعي حتى لا يستنفد خصبها. وكانت الفاكهة والخضر موفورة، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين، وكان الثوم من أحب المشهيات، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسر الأشراف قد اشتقت أسماؤها من الخضر التي تعنى بزراعتها.

ومن أمثلة ذلك أسر **Lentuli, Fabii,Caepiones**، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس، والبصل، والفول أو الحمص. ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر، واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام، وبالصابون في الاستحمام، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة و شمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها. وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات. وكانت الخنازير والدجاج تربى في ساحة المزرعة، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار. ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح، ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم؛ وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفها الإهمال، أو الجيوش، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدءوا العمل فيها من جديد؛ ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع؛ وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة كبيرة **Latifundia**، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعي للضأن والماشية، وبساتين وكروماً، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان. وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفنية والفنية ليلقوا نظرة على أملاكهم؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال، بل كانوا يعيشون عيشة

الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف، أو في قصـــور في روما. وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشـــأت في الريف طائفة من المســـتأجرين الذين أثقلتهم الديون، وفي العاصـمة طائفة من الصـعاليك الذين لا ملك لهم، وانتشرـت بينهم التذمر والغضـب من وضـعهم. وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين.

الصناعة:

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها- وكان لفقرها في هذه المعادن أكبر الأثر في تاريخ إيطاليا الاقتصادي والسياسي؛ فلم يكن في البلاد ذهب قط، وكانت الفضـــة جد نادرة، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد، كما كان بها بعض النحاس، والرصـــاص، والقصـــدير، والخارصـــين، بكميات قليلة لا تكفي لقيام الصـــناعات. وكانت جميع المناجم في الإمبراطورية كلها ملكاً للدولة، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يســـتغلونها اســـتغلالاً مجزياً على أيدي آلاف من العبيد. ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية في البلاد إلا قليلاً؛ ولكن البرنز في ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالاً من الحديد؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السـلاسـل التي أقامها أرخميدس **Archimedes** وغيره من العلماء في صقلية ومصر تستخدم إلا في خير المناجم الإيطالية وأحدثها. وكان الخشب أهم أنواع الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضـاً لاسـتخدامها في بناء البيوت وصـنع السـفن والأثاث؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تتناقص مسـاحتها وتنعدم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذي لا تنمو فوقه الأشجار. وكانت أروج الصـناعات وأكثرها ازدهاراً صـناعة الأسـلحة والعدد في كمبانيا. ولم يوضـح قط نظام للمصـانع إذا اسـتثنينا مصـانع الأسلحة والفخار، ولم يكن الفخرانيون يصنعون الصحاف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر، والقرميد، والأنابيب، والقنوات التي تجر الماء إلى البيوت. وكانوا في أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صـــناعة الآنية الفنية. ولم يحل القرن الســـادس قبل الميلاد حتى كانت صـــناعة النســـيج قد تخطت المرحلة المنزلية في نقش التيل والصـــوف وإعدادها وصـــبغهما، وذلك على الرغم من أن صـــناعة الغزل كان يقوم بها النبات والأزواج والعبيد. أما النساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا في مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة القصدير.

الطرق الرومانية:

أما الإنتاج الصناعي للاستهلاك غير المحلي فقد كانت تعطله صعاب النقل. ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة، والعربات التي تجرها الثيران بطيئة، والنزل في الطرق نادرة، وكان اللصـــوص كثيرون، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار؛ أما المدن الساحلية فكانت تستورد حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر. وما أن حلت ســـنة ٢٠٢ ق. م حتى كان الرومان قد أنشـــأوا ثلاثة من الطرق "القنصـــلية العظيمة"، وقد سميت قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا يبدءونها. وما لبث هذه الطرق العامة أن فاقت في صـلابتها واتسـاعها الطرق الفارسـية والقرطاجنية التي اتخذها الرومان نماذج لهم في بادئ الأمر.

وكان أقدم هذه الطرق طريق ڤيا لاتينا via Latina الذي خرج به الرومان حوالي ٣٧٠ ق.م إلى تلال ألبان. وبدأ أپيوس كلوديوس Appius Claudius الضرير في عام ٣١٢ ق.م طريق ڤيا أپيا via Appia أو الطريق الأپياوي الذي يصل روما بكپوا Capuaواستخدم في إنشائه آلافاً من المجرمين، ثم مدد هذا الطريق فيما بعد إلى بنفنتم، وفنوزيا Venusia، وبرنديزيوم Brundisium، وتارنتم.

وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلاً إنجليزياً يربط ساحلي شبه الجزيرة الشرقي والغربي، وييسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق، كما كان هو وغيره من الطرق عاملاً كبيراً في توحيد إيطاليا. وفي عام ٢٤١ ق.م شرع أورليوس كوتا Aurilius Cotta في إنشاء الطريق الأوريلي الممتد من روما إلى أنتيبيس Antibes مخترقاً مدينتي بيزا Pisa، وجنوى Genoa. وافتتح كيوس فلامينوس Caius Flaminus في عام ٢٢٠ق.م الطريق الفلاميني المؤدي إلى أرمينوم Ariminnm، ثم أنشئ حوالي ذلك الوقت نفسه الطريق الفليري Valerian بين تيبور Tipur وكرفينيوم Corfinium. وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً: فصعد الطريق الإميلي Aemilian نحو الشمال من أرمينيوم مخترقاً بونونيا Bononia وموتينا Mutina إلى بلاسنتيا Placentia (عام ١٨٧ق.م)، وربط الطريق البستومي Postumian جنوى بفرونا Veronoa (١٤٨ ق.م) ومسار طريق بويليا Via Popilia من أرمينيوم مخترقاً رافنا Ravenns إلى بدوا Padua (١٣٢ ق.م) ثم أنشئت الطرق في القرن التالي من إيطاليا إلى خارجها- إلى يورك York، وفينا Vienna، وثسلونيكا Thessalonica، ودمشق، كما امتدت على طول ساحل إفريقية الشمالي. وأفادت هذه الطرق في الدفاع عن الإمبراطورية وتوحيدها، وبعث الحياة فيها، وذلك بمساعدتها الجيوش على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار في ربوعها، كما أضحت مسالك عظيمة للتجارة، وكان لها شأن أيما شأن في تعمير إيطاليا وأوربا وزيادة ثرائهما.

لكن التجارة لم ترج في إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى رواجها في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ذلك أن رجال الطبقات العليا كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة، ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحررين من أبناء الشرق؛ هذا في المدن، أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التي تقام من حين إلى حين، وبأسواق اليوم التاسع في المدن. كذلك لم تبلغ التجارة الخارجية شأناً عظيماً لأن النقل البحري كان معرضاً للأخطار، فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال في الساعة سواء أكانت تسير بالشراع أم بالمجاديف، ولم تكن تبعد عن الشاطئ ولا يجرؤ معظمها على الخروج من الموانئ من شهر نوفمبر إلى شهر مارس. كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقيه، وكان لصوص البحار ينقضُّون من مكامنهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حد ما. وفوق هذا كله كان نهر التيبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء عند أستيا Ostia؛ وقد حدث أن غرقت مائتا سفينة في هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء. يضاف إلى هذا وذاك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى روما عملاً لا يوازي ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال، ومن أجل هذا بدأت السفن حوالي عام ٢٠٠ ق.م ترسو عند بتيولي على بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبي روما، ومنها تنتقل حمولتها براً إلى العاصمة.

العملة:

وكان لابد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود، والمقاييس، والمكاييل، والموازين، مضمون من الدولة . لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل، وذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان. فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس، خشنة الصنع غير مهذبة تسمى الإيس Aes (حوالي ٣٣٠ ق.م). وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتي Aes timare أي تقويم النحاس. وكانت الوحدة المستعملة في تقويم الأشياء هي الآس) As الواحد) وكان وزنها رطلاً من النحاس، ولما أن سكّت الدولة عملة نحاسية حوالي عام ٣٣٥ ق.م كانت تطبع عليها في الغالب صورة ثور، أو شاة، أو خنزير، ومن ثم سميت بيكونيا pecunia من بيكس) pecus أي ماشية). ويقول بلني إنه لما شبت الحرب البونية الأولى "ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يفي بحاجاتها، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس ، وأفلحت في تصفية الدين العمومي ". وما أن وافى عام ٢٠ ق.م حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة، ثم خفض في عام ٨٧ ق.م إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية. وفي عام ٢٦٩ق.م سكّت قطعتان من النقود الذهبية أولاهما الديناريوس Denarius وكان يساوي عشرة آسات، أي قيمة الدرخمة الأثينية في صورتها الهيلينية المخفضة، والأخرى السترتيوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس. وفي عام ٢١٧ق.م ظهرت أول عملة ذهبية رومانية- الأوري aurei- وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين سترتيوس.

المالية:

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملاً مهماً في تدعيم الأعمال المالية في البلاد، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل في أعمال المصارف، كما نتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبده فيها من دون الله. وقد ظلت الدولة تتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقى الرعب في قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة. وكان إقراض المال من أقدم الأعمال في روما، وشاهد ذلك أن الألواح الأثني عشر تحرم الربا إذا زاد على ٨,٣% في السنة. ثم خفض سعر الفائدة القانوني في عام ٣٤٧ق.م إلى خمسة في المائة، ثم حرم الربا على الإطلاق في عام ٣٤٢ ق.م. ولكن المرابين كان في وسعهم أن يروغوا من هذا التحريم الأرسطاطيلي، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلاً لا يقل عن ١٢%. فضلاً عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذي يزيد على ١٢%) واسع الانتشار، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع. وحدث في عام ٣٥٢ ق.م. أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين: ذلك أنها تكفلت هي بالرهون التي كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها، وأقنعت الراهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التي تعاقدوا عليها. وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة Forum هي رجال المصارف، وازدحمت فيه حوانيت المقرضين (argentarii) والصيارفة مبدلي النقود (trapezitae)

وكان في وسع الأهلين أن يقترضوا المال بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية، والعقود الحكومية، كما كان في وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية، وكان يحل محل التأمين الصناعي السائد في أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاوني؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف في تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله. وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيذ العقود الحكومية التي يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه عنها عطاءات. وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور في صورة "أجزاء صغيرة" أي أسهم **particular** أو (**partes**)

وقد اضطلعت هذه الشركات المؤلفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير في تموين الجيش والأسطول في <u>الحرب البونيقية الثانية</u> بما يحتاجانه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما، ولم يفتها في هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات، وهو أن تخدع الحكومة ، وكان رجال الأعمال **equites** هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون. وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال **negotiatunes** وكان هؤلاء يدبرون لأنفسهم ما يلزمها من المال.

وكانت الصناعة في أيدي صناع مستقلين يشتغل كل منهم في حانوته الخاص، وكان معظم هؤلاء الصناع ممن الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام. وكانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف، وكان أكثر ما ينتجون للسوق لا للعميل الخاص. وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض أجور الأولين، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا تقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون في أقذر الأحياء في هذه الأيام. ولم يكن إضراب هؤلاء العمال عن العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث ؛ غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة؛ ولم تكن "<u>حرب الأرقاء الأولى</u>" ١٣٩ق.م أولى هذه الفتن. ذلك أن التذمر إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم، كان من السهل تلمس سبب للحرب تهيئ أعمالاً للمتعطلين، وتيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة، وتوجه غضب الشعب نحو عدو خارجي يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا، أو تستقبلهم هذه الأرض موتى أو أسرى إذا هزموا.

وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (**Collegia**) ، ولكنها قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه. وتعزو الروايات المتواترة إلى <u>نوما</u> **Numa** فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها. وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين، والصائغين، والنحاسين، وطارقي الحديد، والحذائين، والفخرانيين ، والصبّاغين والنجارين.

وكانت جماعات"<u>الفنانين الديونيزيون</u>"**Dionysian Artists** -الممثلين والموسيقيين- من أكثر الجماعات انتشاراً في العالم القديم. وقد كان في روما قبل بداية القرن الثاني قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين، ودابغي الجلود، والبنائين، وصناع البرونز، والحدادين، وصانعي الحبال، والنسّاجين؛ ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر. وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذي تبعثه الصلات الاجتماعية في

قلوب أعضـــائها. وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تكفل نفقات دفن الموتى. ولم تكن الدولة تنظم شـــئون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحســب، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحي في حياة روما الاقتصــادية؛ فكانت تشرــف على اســـتغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التي كانت تبرمها الحكومة، وكانت تهدئ الاضــطرابات التي يثيرها العامة باســتيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اســمية على الفقراء أو على كل من يطلبه. وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات؛ وقد أممت صــناعة تعدين الملح لتقضيـ بذلك على احتكار هذه الصــناعة، بعد أن ارتفع ثمن الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله في غير متناول طبقة العمال.

وكانت روما تتبع سياسة حرية التجارة، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها؛ وقررت حماية يوتيكا Utica ثم ديلوس مشترطة عليهما في نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدي لهما رسوماً. على أنها كانت في بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح، والحديد، والخمر، والزيت، والحبوب. وكانت تفرض على معظم الغلات التي تدخل روما عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصــف في المائة من قيمتها، ثم امتدت هذه الضرــيبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن، وظلت حتى عام ١٤٧ ق.م تفرض ضريبة على الأملاك (tributum) في جميع أنحاء إيطاليا. ويمكن القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت تستخدم فيه هو نفقات الحرب، شأنها في هذا شأن غيرها من الدول المتحضرة.

ملامح المدنية:

أصــبحت روما في عام ٢٠٢ ق.م. من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوســط ، بفضـــل ما كان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التي تفرضها على أعدائها، وبفضل من كان يفد إليها من الخلائق ليسكنوا فيها. وقد سجل فيها الإحصاء الذي أجرى في عام ٢٣٤ قبل الميلاد ٢٧٠,٧١٣ من المواطنين- أي من الذكور الراشدين الأحرار. ثم نقص هذا العدد نقصــاً فجائياً خلال الحرب الكبرى، ولكنه ارتفع في عام ١٨٩ق.م إلى ٢٥٨,٣١٨ والى ٣٢٢,٠٠٠ في عام ١٤٧ق.م ، وفي وســعنا أن نقدر ســكان دولة المدينة في عام ١٨٩ ق.م بما يقرب من ١,١٠٠,٠٠٠، ولربما كان ٢٧٥,٠٠٠ من هؤلاء يســكنون داخل أســوار روما. وكان في إيطاليا جنوب الروبيكون Rubicon نحو ٥,٠٠٠,٠٠٠ من الســكان. وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة، وتدفق السكان، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية- كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث في روما تلك التغيرات العبقرية التي جعلتها في عهد نيرون نيويورك الزمن القديم، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس. وكان في المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون.

وقد شيدت إلى آلهة ملتقى الطرق Lares Compitales معابد عند ملتقى الطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتقى الطرق الأقل من هذه أهمية- وهي عادة لطيفة لا تزال متبعة في إيطاليا. وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية، وكان بعضها مرصوفاً بحجارة ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام. وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالي عام ١٧٤ق.م يغطى أرض الشـــوارع الكبرى بكتل من الحمم البركانية. وقد بنى أبيوس كلوديوس الأعمى في عام ٣١٢ ق.م أولى القنوات المعروشة لجر المياه العذبة إلى

المدينة التي ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه التيبر العكرة. وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات، ومدت منها الأنابيب في بيوتهم، وركبت عليها الصنابير، فا ستطاع الأشراف أن يستحموا بمائها أكثر من مرة في الأسبوع؛ ثم افتتحت روما حماماتها الأولى التابعة للبلدية بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل.

وشيد المهندسون الرومان أو التسكان في وقت غير معروف المجرى الأكبر **Cloaca Maxima** لنقل مياهها القذرة، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها. ثم أنشئت مجاري صغرى لصرف مياه المناقع التي كانت تحيط بروما وتغير عليها في بعض الأوقات. وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجري من فتحات في الشوارع إلى هذه المصارف، ثم تنتقل منها إلى نهر التيبر. وقد ظلت مياهه الملوثة مشكلة المشاكل في الحياة الرومانية.

المعابد:

وربما كانت المعابد هي مظاهر الزينة الوحيدة التي كانت في المدينة. ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكاني البسيط الذي وصفناه من قبل، لا يفترق عنه إلا في شيء واحد وهو أن جدرانها الخارجية كانت تبنى في الغالب من الآجر أو تطلى بمسحوق الجبس الناعم؛ وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يخدش عليها من الشعر أو النثر في ذكر حادث من الحوادث التافهة التي لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها. ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون منهم القراءة والكتابة. وكانت الهياكل تبنى في الغالب من الخشب، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق، وكان طرازها هو الطراز التسكاني. وقد أقيمت على تل الكبتولين هياكل لجوبتر، ويونو، ومنيرفا، وأقيم هيكل آخر لديانا على الأفنتين **Aventine**، وأقيمت هياكل غيرها (قبل عام ٢٠١ ق.م) ليونو، والمريخ، ويانوس **Janus**، والزهرة، وللنصر، والحظ السعيد، والأمل وما إليها. وفي عام ٣٠٣ ق.م أضاف كيوس فابيوس إلى اسم عشيرته لقب بكتور **Pictor** أي المصور، وذلك لأنه عمل مظلمات في هيكل الصحة القائم على الكبتولين.

وأقام المثالون اليونان في روما تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر، والرخام، والبرنز؛ وقد أقاموا في عام ٢٩٣ ق.م على الكبتول تمثالاً لجوبتر بلغ من ضخامته أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان **Alban** التي تبعد عنه عشرين ميلاً. وفي عام ٢٩٦ ق.م أقام الأيديلون (الموظفون الرومان المشرفون على المباني العامة والألعاب وغيرها) تمثالاً من البرنز لذائبة أضاف إليه الفنانون فيما بعد صورتين لرميولوس وريموس. ولسنا نعرف أهذه هي المجموعة التي جاء وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى، وإن لم تكن فهل هذه أو تلك هي بعينها "ذئبة الكبتول" التي لا تزال باقية إلى هذا اليوم. ومهما يكن من شيء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية في الإتقان، فهي تمثال من الجماد ينبض بالحياة في كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه.

الموسيقى:

وبينما كان الأشراف يخلدون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العامة يتأسون بسماع الموسيقى، وبالرقص، والمسرحيات المضحكة، والألعاب. وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغاني الفردية والجماعية، فكان الرجال يغنون في المآدب والأولاد والبنات يرددون الترانيم في المواكب الدينية، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغاني تصحب جنازات الأموات. وكان المزمار أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كان لها من يهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التي ينشد على نغماتها الشعر الغنائي.

الأعياد الرومانية:

وكان الرومان في أيام الأعياد الكبرى يجتمعون في المدرجات وساحات اللعب يكتوون بنار الشمس، بينا كان المستأجرون والأسرى والمجرمون والأرقاء يعدون، أو يقفزون، أو يقتتلون، ويموتون. وكان الاقتتال والموت أحب إلى الجماهير من العدو والقفز. وكان في المدينة مدرجان كبيران هما الساحة الكبرى (ويقال إن الذي أنشأها هو تاركوين الأول) و ساحة فلامينوس (٢٢١ ق.م)- وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال والنساء في الوقت الذي يمكنهم من أن يجدوا فيهما مكاناً. وكانت الدولة في بادئ الأمر هي التي تتكفل بالإنفاق على الملعبين، ثم تكفل بهما بعدئذ الإيديلون، أما في العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما المرشحون لمنصب القناصل؛ وأخذت هذه النفقات تزداد جيلاً بعد جيل حتى أضحت في واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمناصب القناصل.

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب "حفلات النصر" التي كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال. ولم تكن هذه الحفلات تقام إلا لمن انتصروا منهم في حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف أو يزيدون. أما القائد المنحوس الذي انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا العدد كله فلم يكن يلقى هذا النوع من الترحيب، ولم يكن يضحي له بثور بل بشاة ovis .

وكان الناس ينتظمون في الموكب خارج المدينة، وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم، ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر، اتخذ فيما بعد طرازاً لعشرات المئات من الآثار. وكان النافخون في الأبواق يتقدمون الموكب، ثم تأتى من بعدهم أبراج أو أرماث تمثل المدن التي استولى عليها، وصور تدل على ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة. ثم تكركر من بعدها عربات مثقلة بالذهب والفضة، ومنتجات الفن وغيرها من الأسلاب.

وقد اشتهر موكب النصر الذي أقيم لمرسلس بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرقوسة ٢١٢ ؛ وعرض سبيو الإفريقي في عام ٢٠٧ ق.م أربعة عشر ألف رطل من الفضة، وفي عام ٢٠٢ ق.م مائة وثلاثة وعشرين رطلاً استولى عليها في أسبانيا وقرطاجنة، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصرعها سير الفلاسفة، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون، والضاربون على القيثار، والزمارون، وحاملو آنية البخور. ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد

نفســـه في عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية، وعلى رأســـه تاج من الذهب، وفي يده صـــولجان من العاج وغصن من شجر الغار، وهما رمز النصر، وشعار جوف jove .

وكان يركب معه في العربة أحياناً أبناؤه، ويركب في عربة تســير بجوارها أقاربه؛ ثم يأتي من خلفهم أمناء سره من المدنيين والعســكريين. ويأتي في آخر الموكب الجنود يحمل بعضــهم ما نالوه من الأعطية، وعلى رأس كل منهم تاج، يمتدحون قوادهم، وبعضهم يسخرون منهم. ذلك أن التقاليد المرعية التي لا يمكن خرقها كانت تترك للجنود في هذه الفترات القصــيرة كامل الحرية في أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه، وذلك لكي يذكروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء.

وكان القائد يصعد الكبتول إلى هياكل جوبتر، ويونو، ومنيرفا، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة، ويضحي بحيوان ما؛ وكان يأمر عادة بأن يذبح الزعماء من الأسرى مبالغة في شــكر الآلهة. وكان هذا الموكب منظماً تنظيماً يثير في النفس المطامع العسكرية، ويجزي القواد والجند أحسن الجزاء على جهودهم الحربية؛ ذلك أن زهو الإنسان لا يخضعان إلا للجوع والحب.

بعد الموت:

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية في حياة الرجل الروماني، ولكنها لم يكن لها ذلك الشــأن الخطير الذي تحدثنا عنه صــحف المؤرخين الرومان. ولعل حياة الرومان كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولهما حياة الرجل من في هذه الأيام. وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع في العالم من اضطراب يستثير عواطفه في كل يوم، ولم تكن الحوادث العظمى التي تمر به في حياته هي السياسة والحرب، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت المحزنة. ولم يكن كبير الســن تلازمه تلك الوحشــة والهجران اللذان ينغصان على الكبار حياتهم في العصور التي تشيع فيها الفردية. ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار، وقد ظل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكريم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة.

ولم تكن الجنائز تقل فخامة وتعظيماً عن مواكب الأفراح، فكان يســير في طليعتها جماعة من النادبات المأجورات فلما تغالين في عويلهن وهوســهن قيد هذا الغالي بنص في الألواح الاثني عشرــ يحرم عليهن اقتلاع شــعرهن. ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثني عشرــ ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم. ويأتي من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع في صور آباء الميت الذين شغلوا مناصــب ذات شــأن في الدولة. ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر، وعليها كامل اللباس المخصص لأعظم منصب شغله صاحبها في حياته، وموضوعة في نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجواني والذهبي، ومن حولها الأســلحة والدروع التي غنمها ممن قتلهم من الأعداء. ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء، وبناته سافرات، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه

ومواليه وعبيده. فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثى الميت أحد أبنائه أو أقاربه. لقد كانت الحياة في تلك الأيام خليقة بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة.

وكان الموتى من أهل روما في القرون الأولى من حياتها يحرقون، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنوا وإن كان بعض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم. وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن في قبر أضحى فيما بعد مزاراً ومكاناً للعبادة، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلاً من الطعام. وكان لعبادة الأسـلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا في مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر في اسـتقرار الأخلاق والمجتمع الروماني، كما كان لهما نفس الأثر في بلاد اليونان والشرق الأقصى. وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التي اصطبغت بالصبغة الهلينية ينتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقيمين؛ على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا في مملكة الأشباح التي يسيطر عليها أوركوس **Orcus** وبلوتون **Pluto**. وكان ثانيهما- وهو الصورة اليونانية للإله هيديز **Hades** اليوناني- يحمل في يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه.

أما أوركوس (وهو الاسم الذي اشتقت منه الكلمة الإنجليزية **ogre** أي الغول) فكان هو الهولة التي تلتهم جثة الميت بعدئذ. وإذ كان بلوتو أعظم الأرباب في باطن الأرض وأعلاها مقاماً، وإذ كانت الأرض هي المورد الأخير للثروة؛ وهي في كثير من الأحيان مسـتودع ما يتجمع من الطعام والسـلع، فقد كان بلوتو يعبد أيضـاً على أنه إله الثروة والأثرياء، وأضحت زوجته- برسبربينا **Prosperpina** الضالة- ابنة سيريز **Ceres** إلهة الحب النامي. وكان الرومان يتمثلون الجحيم في بعض الأحيان على أنها موضـع العقاب ، وكانوا يصـورونها في الأغلب الأعم على أنها مسـكن الأشباح النصف المجردة التي كانت في حياتها رجالاً لا يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السـواء عذاب الظلام الأبدي والنسـيان النهائي. "وهنالك" كما يقول لوسـيان **Lucian** "يجد الإنسـان في آخر الأمر الديمقراطية المنشودة".

الفصل الثاني
الإمبراطورية الرومانية

هي المرحلة التي تلت الجمهورية الرومانية التي حكمت روما ، فهي تطور للحكم السـياسي لروما ، وقد تميزت مرحلة الحكم الإمبراطوري لروما في تلك الفترة بـالحكم الاستبدادي ، وقد خلف الحكم الإمبراطوري ٥٠٠ عـام من الحكم الجمهوري لرومـا (٥١٠ ق . م - القرن الأول قبـل الميلاد)الذي كان قد ضعف بسبب النزاع بين جايوس ماريوس و سولا والحرب الأهلية من يوليوس قـيصرـ ضـد پـومـبـي ، لـيـس هـنـاك تـاريـخ مـحـدد يـبـين انـتـقـال رومـا

من الجمهوريـة إلى الإمبراطوريـة ، ولكن يمكن اعتبـار بـدايـة الإمبراطوريـة الرومـانيـة من بـدايـة تعيين يوليوس قيصيردكتاتوراً دائماً لروما سنة ٤٤ق.م ، في المرحلة التي انتصر فيها أوكتافيين وريث يوليوس قيصر في معركة أكتيوم ، وكذلك منح مجلس الشـيوخ الروماني عبارات التعظيم لأوكتافيين عبارات التعظيم وتلقيبه (أغسـطس العظيم) في ١٦يونيو ٢٧ق .م.

وبعد قيام الإمبراطورية بلغت روما قمت التطور وابدعت في كافة المجالات وفي المجال العلمي الذي ورثته من الامبراطورية الرومانية ، وحكم اباطرة الروم شعبهم بعدل بالرغم من وجود بعض الأباطرة الفاسدين ، وقاموا بانشاء بنية تحتية عظيمة وبنوا شـبكات الري العملاقة التي اوصـلت الماء إلى كافة مزارع الامبراطورية وبنيت القناطر وشـبكات الطرق المعبدة التي يسرـت النقل وجعلت من روما امبراطورية عظيمة بحق وبلغوا القمة في المجالات العلمية الثقافية وبرعوا بالرياضيات والفلك والكثيرمن المجالات متفوقين على غيرهم من الحضارات آن ذاك.

ومن أجل الترفيه على شعبهم والتحكم به قاموا ببناء الكولوسيوم الصرح العظيم الذي وقعت في ساحته المعارك الدمويه ، لم يكن الكولوسـيوم فحسـب أداة للترفيه بل كان رمز لسـيطرة روما للعالم آن ذاك حيث اخذوا أسرى أعداءهم من الفرس والقوط وتم اعدامهم أو جعلهم في معارك دمويه ضـد المصـارعين المشـهورين بالجلاديوترز أو الجلادين أو أكثر الحيوانات افتراسـاً وتوحشـاً التي جلبت من أنحاء العالم ووضـعت في سـاحته العظيمة كالنمور والأسود والفيلة والدببة وغيرها من الحيوانات المفترسة ، حتى أنهم قاموا بغمر الساحه بالماء وجعلها ساحة معركة بحرية كبيرة .

وقد اشـتهرت جيوشـهم بالمقاليع والمنجنيقات العملاقة والوحدات الشـهيرة باسـم ligeone وحكم جيشـها كافة أوروبا وشـمال افريقيا والشـام والعراق سـاحقاً جيوش الجرمان والفرس ووصـلت روما إلى أقصىـ عظمتها في عهد تراجان فوصلت من بريتانيا (بريطانيا الآن) شمالاً إلى قرطاجة جنوباً ومن أسبانيا وبلاد الغال غرباً إلى العراق وآسيا الصغرى شرقاً لكن للأسف لم تدم عظمة روما طويلاً فوقعت في حفرة الفساد وانشغلت جيوشها بالحروب الأهلية فاسـتغل الفرس ذلك حتى وصـلوا إلى مصرـ واسـتعادوا العراق بل أنهم وصـلو إلى أرمينيا وكذلك الجرمان فحرروا بريتانيا ثم فرنسا ومنشائهم جرمانيا حتى أنهم حكموا أسبانيا

بلغت روما حداً عظيماً من الفساد إلى أن انقسمت قسمين ، ونتيجة للانقسام ضعفت روما أكثر حتى أن القسم الغربي قد انهار تماماً أمام القوط

كانت شبه الجزيرة الايطاليه تحوي روما المدينة العظيمة منشأ الامبراطورية في القسم الغربي وعند سقوطها امام القوط (الجرمان) عانت روما من الدمار والخراب فدمرت هياكلها وطرقها وجسـورها وأُحرقت مزارعها . وأراد القوط هدم الكولوسيوم لكن لشدة عظمته وتماسكه لم يستطيعوا غير هدم جزء بسيط منه .

انهيار روما أثر بشكل كبير جداً على ما تبقى من الروم في الشرق إلى أن أتى قسطنطين الأعظم الذي أعاد عظمة الامبراطورية بالرغم من أن روما انهارت وذلك كان بتغيير الدين الروماني من عبادة الأوثان والآلهة إلى المســيحية واتخذ من القسطنطينية التي سميت باسمه عاصمة لها وأعلن تغيرر اسمها من الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى الإمبراطورية البيزنطية .

تأسيس مدينة روما التاريخية:

هو حدثٌ تاريخي هام لا زال قيد الدراسـة، ليس هناك وثائق أو إثباتات تاريخية تحدد مجيء الرومان إلى شـبه الجزيرة الإيطالية وتأسـيسـهم مدينة روما وإنما يعتمد المؤرخون على مجموعة من الأسـاطير والروايات التي تناقلها الأشخاص الذين درسوا التاريخ القديم على مر العصورحيث تنقسم المعلومات المتاحة عنه إلى أساطير شديدة القدم وأبحاثٍ آثاريَّة حديثة.

رغم قدم الأســاطير المدوَّنة عن تأســيس روما الأوَّل، إلا أنَّ أقدمها كتبت بعد مئات الســنين من ظهور المدينة الفعليّ، ولذلك فإنَّ الاعتماد عليها غير ممكن، أما المســوحات الآثارية فإن نتائجها تتغيَّر باســتمرار مع حدوث الاكتشافات الجديدة.

اختلق الرومـان حكـايـة أســطوريَّـة طويلـة ومعقَّـدة عن أصــل مـدينتهم، واتحـدت هـذه الحكـايـة مع كتابات ليفيوس وأ شعار ورغيليوس وأوفيد التي أُلِّفَت خلال عهد الإمبراطور أغسطس. وقد جرى تدريجياً دمج هذه النصوص القديمة معاً وتحويلها إلى أسطورة موحَّدة أكثر تفصيلاً. تعتمد بحوث المؤرخين والآثاريِّين الحديثة في جانبٍ منها على تلك الأسطورة القديمة وعلى مصادر مكتوبة أخرى، كما أنها تعتمد على ما اكتشف خلال المسوحات الأثرية الكثيرة من آثار قديمة، وهي لا زالت تحاول إعادة بناء الأحداث الحقيقيَّة لتأســيس روما، وحســبما تظهر هذه البحوث والدراسات فإنَّ جزءاً ما من أسطورة تأسيس المدينة يحمل أصلاً من الحقيقة.

لفترةٍ طويلة كان يفترض أن المؤسِّسين الحقيقيِّين لمدينة روما هما قوم الإترو سكانيين، الذين كانوا قد استقرُّوا في المنطقة المجاورة منذ القرن الســادس قبل الميلاد، إلا أنَّ الدلائل الأثرية المكتشــفة حديثاً تشــكِّك بمدى صـحَّة هذا الافتراض.

إن التاريخ الدقيق لتأســيس مدينة روما لا زال مجهولاً، لكن بعض الباحثين - مثل تم كورنل - يعتقدون أنَّه كان في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ويزعم المؤرخ)ماركوس تيرينتيوس فارفو (الذي عاش خلال عهد الإمبراطور الأول أغســطس: (١١٦ - ٢٧ ق.م) أنَّ تاريخ تأســيس المدينة هو ٢١ أبريل ســنة ٧٥٣ ق.م ، معتمداً في هذا التاريخ على منجّم روماني عاش في زمنه اسمه لوسيوس تاروتيوس فرمانوس.

ثمَّة نقطة جدلية أخرى في تاريخ روما المبكّر، هو أصــل اســمها، فرغم أنَّ الحكاية الأســطورية تُرجِعه إلى اســم مؤسس المدينة "رمولوس"، إلا أنَّ العديد من الباحثين حالياً يرجعونه إلى أصولٍ أخرى..

تحدثنا الأســطورةعن وقائع تأســيس القرية الصــغيرة أنه كان حول النزاع الأول بين الاخوين رومليوس وريموس حول تأســيس مدينة روما والنزاع الثاني القائم بين رية ســلفا وأبيها اميليوس حول مصــير الطفلين فقامت الأم برمي التوأمين في النهر التيبر ويروى كذلك أن التوأمين قد رضــعا الذئبة لمدة تزيد عن أســبوع. ثم عثر عليهما راعي كان يرعى بالمنطقة ونقلهما مباشرة إلى زوجته حيث قاما بتربيتهما حتى بلغا السن ١٨ عاماً .



حسب أسطورة تأسيس روما، كانت هذه الذئبة الرماديَّة هي من رعى وأطعم التوأمين رومولوس ورموس في طفولتهما، واللَّذين أسَّسا فيما بعد مدينة روما. لذلك فإنَّ رسومات وتماثيل هذه الذئبة هي أكثر تمثيلٍ معروف لحدث تأسيس المدينة.

وقد سُــميت روما نســبة إلى مؤســســها روميلوس الذي نصــب نفســه ملكاً عليها كأول ملك على روما والمناطق المحيطة بها، وأسس بذلك سلسلة من الملوك، بلغ عددهم سبعة حكموا روما. وتشير الروايات إلى أن روميلوس ركز خلال تأسيس الدولة على النواحي العسكرية وقد وضع إستراتيجية تتلخص في الآتي:

- السيطرة على الأراضي المحيطة بروما.
- أرسى القواعد الأولى للشرائع والديانة الرومانية.
- التوسع والسيطرة على الأقاليم القريبة والمجاورة.

الموقع والتاريخ:

كان أول سُــكّان منطقة روما الحالية من اللاتين والســـابينيّين، وهم أقوام هندو أوروبيّةدخلت شــبه الجزيرة الإيطالية قادمةً شــمالاً من وســط أوروبا على دفعاتٍ متتالية خلال الألف الثاني قبل الميلاد . قطنت هذه القبائل المهاجرة منطقةً من جنوب ولايةلاتسيو عُرِفَت باسم *Latin Vetusnt* .

اختلفت القبائل المهاجرة إلى المنطقة في أصولها العرقيّة ولغاتها وتقاليدها، ولذلك قطنت أقاليم مختلفةً وعا شت بشيءٍ من الانعزال عن بعضها بعضاً، لكن مع انتشارها عبر أنحاء إيطاليا المختلفة، بدأت هذه القبائل بالاحتكاك مع شـعبَين قطنا المنطقة بتلك الفترة، هم الإغريق والإتروسـكانيُّون. اسـتقرَّ ثانيهما - الإتروسـكانيون - في موقع شـمال مدينة روما الحالية (يشــمل أجزاءً من ولايات لاتســيو وتوســكانا وأومبريا الحديثة)، وبنوا هناك حضــارةً مزدهرة، فبحلول القرن الثامن قبل الميلاد كانوا قد أسَّسوا العديد من المدن المعروفة مثلتاركوينيا وفيوس وفولتيرا.

رغم ذلك، فإنَّ أصــول الحضــارة الإتروســكانية لا زالت مجهولة، وكلُّ ما هو معروفٌ عنهم مســتمد من الدلائل الأثرية التي اكتشفت فيمدنهم الجنائزيَّة (Necropolis). من جهةٍ أخرى، كان الإغريق بدورهم قد بدأوا يستقرُّون في إيطاليا خلال الفترة ذاتها، فأسَّسوا المستعمرات المعروفة باسمماغنا غراسيا أو اليونان العظيمة بين سنتي ٧٥٠ و٥٥٠ ق م.

نشأت مدينة روما في أول أمرها على الضفَّة الشرقية من نهر التيبر، على مسافة نحو ٤٠ كيلومتر من مصبِّه، وقد كان هذا الامتداد من النهر صـــالحاً للملاحة، ممَّا أعطى ســـكانها منفذاً ســـهلاً لبلوغ البحر التيراني. كان مناخ المنطقة معتدلاً بالنظر إلى طبيعتها الجبليَّة كثيرة التضــاريس. وقد وفَّرت الأودية المحيطة بها مواقع اســتيطان أوليَّة مهمَّة لســكانها الأوائل، فقد امتازت هذه الأودية بتربتها البركانية شــديدة الخصــوبة، حيث كانت غنيَّة بالعديد من الأسمدة الطبيعيَّة مثل البوتاسيوم والفوسفات، وساعدَ ذلك كلُّه على ازدهار المستوطنات الأولى فيها.

امتاز موقع المدينة بإطلاله على الماء واليابســة في الآن ذاته، حيث وفَّر لها تموضــعها على مســافة ٢٠ كيلومتراً من جبال ألبان دفاعاً طبيعياً ضــدَّ الغزاة من البر، وفي الوقت نفســه كانت بعيدةً كفاية عن البحر لتأمن خطر غارات القراصنة. وأخيراً، كان نهر التيبر نفسه (مع جزيرة التيبر (وهضبتي كابيتولين وبالاتين عبارةً عن قلعة طبيعيَّة جعلت الدفاع عن روما بالغ السُّهولة.

الرومان وأصلهم :

الرومان هم شعب هاجر من شرق أوروبا إلى الجزر الإيطالية ابتداء من ١٢٠٠ ق.م أي القرن الثاني عشر قبل الميلادي وقاموا بتأسيس مدينة روما القديمة، ثم عمل هذا الشعب على تنظيم وتطوير مؤسساته السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية وبدأ بالتوسع التدريجي وأسس دولة سيطرت في بادئ الأمر على شبه الجزيرة الإيطالية .

ثم اتسعت هذه الدولة وسيطرت على معظم العالم القديم وأصبحت حدودها شاسعة امتدت من الجزر البريطانية و شواطئ أوروبا الأطلسية غرباً إلى بلاد ما بين النهرين و ساحل بحر قزوين شرقاً ومن و سط أوروبا حتى شمال جبال الألب والى الصحراء الإفريقية الكبرى والبحر الأحمر جنوباً، وبذلك كانت مثالاً على مفهوم الدولة الجامعة ذات الطابع الاستعماري. واستمرت حتى القرن الخامس الميلادي الذي فيه تمكنت القبائل الجرمانية من السيطرة على مقاطعات الدولة الرومانية عام ٤٧٦م.

المدن :

فلنقف قليلاً عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطوريّة كانت أعظم شأناً من مدينة روما؛ ذلك أننا قد أطلقنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذي استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات، لكن الواقع الذي لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها في عاصمتها الفاسدة المحتضرة؛ بل إن ما بقي لهذه الدولة من قوة وحيوية، وكثيراً مما كان فيها من جمال، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلي، إن هذا كله كان في الولايات وفي إيطاليا؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن روما، وعما قامت به من جلائل الأعمال في الإدارة والسلم، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التي كان يتكوّن منها العلم الروماني.

قال بلني الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا: "ترى كيف أبدأ هذا العمل؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان!- ومنذا الذي يستطيع أن يحصيها كلها؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده!". لقد كان حول روما وجنوبها إقليم لاتبوم، الذي كان في بادئ الأمر أمها، ثم صار عدوها، ثم جنة من الضواحي والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم، وكان إلى جنوب العاصمة وغربيها نهر التمبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرفأين المنافسين لها وهما يورتس **Portus** وأستيا على البحر الترهيني. وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها في القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدي السمك، ودور تمثيلها مزدحمة بهم. وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها في روما الحارة، وقد تحدث عنها سائح من فلورنس في القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة. وتدل بعض الأعمال الباقية منها إلى اليوم، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذي نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق.

وكان إلى جنوبي أستيا على شاطئ البحر مدينة انتيوم) Antium أنزيو (Onzio حيث كان لأغنى الرومان، ولكثير من الأباطرة، وللمحبوبين من الآلهة قصور وهياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبي لتستقبل ما يسري فيه من نسيم عليل. وقد وجدت في خرائبها التي تمتد نحو ثلاثة أميال، تماثيل ذات روعة وجمال، منها تمثال المجالد البرغيزي وتمثال أباو بلفادير. وبالقرب منهما أثر باقٍ إلى اليوم كان يذكر "المواطنين العظام" الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دببة ضارية.

وكان إلى شماليها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس جوفنال وأربينم Arpinum التي كانت تفخر بإبنيها ماريوس و شيشرون. وعلى بعد عشرين ميلاً من روما كانت تقوم مدينة براذستي Praeneste القديمة (بالسترينا القديمة Palestrina)، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفوح الجبل؛ وحدائقها تشتهر بورودها، وقمة جبلها يتوجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات. وكانت تسوكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن روما غنية مثلها بالحدائق والقصور، وفيها وُلد كاتو الكبير، واحتفظ شيشرون بكتابه "المجادلات التسكيولاتية" ، وكانت أعظم ضواحي روما شهرة ضاحية تيبور (ترفولي) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمرسني أسرها.

وإلى شمال روما تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعاً، وفيها بلدة بروزيا Perusia التي خرّب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها، وجمّل فنانوه فيها قوسا تسكانيا قديماً وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى روما، وأخرجت خزفاً للعالم القديم، وكانت مدينة بيسي Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلاً، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من بيزا Pisa في البلوبونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus. وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدّر مستقبلها حق قدره. وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من أتروريا محاجر كرارا Carrara التي كان ينقل أجمل رخام روما إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة. وكانت جنوي من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي. ونسمع من زمن بعيد، أي من عام ٢٠٩ ق.م، أن القرطاجيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس، وأنها دُمرت بعد ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت في كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاءاً وازدهاراً.

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوگوستا تورينورم Augusta Taurinorum التي أنشأها الغاليون التورينيون Touurini Gauls، والتي جعلها أغسطس مستعمرة رومانية؛ وفي مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين، وقد بقي فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت في يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال. وهنا ينثني نهر بدوا (البو) الكسول الذي ينبع من جبال الألب الكتية Cottian ويجري نحو الشرق مائتي وخمسين ميلاً، ويقسم الجزء الشمالي من إيطاليا قسمين كانا

يعرفان في عهد الجمهورية بغالة ما قبل ألبو وغالة ما وراء ألبو. وكان وادي ألبو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها، وأكثرها سكاناً، وأعظمها رخاءاً.

وكان - عند ســـفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة - فربانس Verbanus (مجيوري(Maggiori، ولاريوس Larius (كومو (Como، وبانكس Benacus (جاردا (Garda، التي كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن في هذه الأيام. وكان يبدأ من كومم، مدينة بلني الأصغر طريق تجاري رئيسي يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان). وقد استقر الغاليون في هذه المدينة في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم أضحت في أيام فرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة، وقبل أن يحل عام ٢٨٦ق.م صـارت عاصـمة الإمبراطوريّة الغربية بدل روما. وكانت فيرونا وقتئذ تسـيطر على التجارة التي تعبر ممر برنر Brenner؛ وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظارة. وقامت على نهر ألبو الملتوي مدينة بلاســـنتيا Placentia (بياســـنزا الحديثة (Piacenzaوكرمونا Cremona، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara - وكانت في أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغاليين.

وكان إقليم فنيشـيا يقع شـمال نهر ألبو وشرق الأديج Adige. وقد اشـتق اسـمه من الفنيتي Veneti، المهاجرين الأولين من إليريا Illyria. ويصـف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللائي في سـن الزواج، ويقدرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها، ويزوّجونها ممن يؤدي ذلك الثمن، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالاً وفتنة. ولم تكن مدينة البندقية(Venice) قد نشـأت بعد، ولكن مدناً كبيرة قامت عند بولا Pola على شـبه جزيرة إسـتريا Istria؛ وترجسـتي Tergeste (تريسـتة (Trieste وأكويليا Aquileia، وبتفيوم Patavium و(بدوا(Padua تتوج رأس البحر الأدرياوي. وقد بقي في بولا من أيام الرومان قوس نصر ضخم، وهيكل ظريف، ومدرج لا يفوقه في الروعة إلا الأصل الذي بني على نمطه وهو الكاو سيوم. وكان يمتد إلى جنوب نهر ألبو ســلســلة من المدن تبدأ من بلاســنتيا مخترقة بارما، وموتينا (مودينا)، وبونونيا Bononia (بولونيا)، وفافنتيا Faventia (فينزي (Faenze وتنتهي عند أرمنينم.

وهنا عند رميني Rimini يقوم جسر من الجسـور التي لا حصر لها والتي أقامها المهندسـون الرومان، وهو أكثر الجسور احتفاظاً بشكله الكامل القديم. وكان الطريق الفلاميني يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الروماني في صـلابته وسـيطرته. ويتفرع منه طريق فرعي يصـل بتونيا برفنا بندقية الأيام الرومانية. وقد شُـيّد هذا الطريق على قوائم في المستنقعات التي لوثتها عدة أنهار تصب في البحر الأدرياوي. ويصف استرابون مدينة رافنا بأن "فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعدّيات". وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدرياوي، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم في القرن الخامس. وقد كان تفوق شمالي إيطاليا على سائر أجزائها في خصب التربة، وفي جوه الصـحي المنشـط الباعث على العمل، وفي موارده المعدنية، وفي صـناعاته المختلفة المتنوعة، وتجارته النهرية القليلة النفقة، كان تفوقه في هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا في القرن الأول الميلادي ومن ناحية الزعامة السياسية في القرن الثالث.

ولم ينشأ على الساحل الشرقي في جزئه الممتد جنوبي أرمنينم وشمالي برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة، وذلك لأن هذا الساحل صخري كثير العواصف قليل المرافئ. بيد أنه كان في أمبريا **Umbria**، وبسينم، وسمنيوم، وأبوليا، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدرا سة أنقاض بمبي، ومن هذه البلدان أ سسيوم **Assisum** مسقط رأس بروبرتيوس والقديس فرانسيس؛ ومنها سرسينا **Sarsina** التي وُلد فيها بلوتس **Blautus**؛ وأمتيرنم **Amiternum** مسقط رأس سلست **Sallust** وسلمو **Sulmo** التي شهدت مولد أوفد، وفنوزيا التي شهدت مولد هوراس. ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة برس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذي أقامه فيها تراجان وهدريان. وقد قصّ هدريان في نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المجيدة في الحرب والسلم. وكانت برتديزيوم القائمة على الساحل الجنوبي الشرقي تشرف على طرق الاتصال في دلماشيا وبلاد اليونان والشرق. وعند "عقب" إيطاليا كانت تقوم مدينة دلماشيا وبلاد اليونان والشرق. وعند "عقب" إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم، وكانت من قبل دولة - مدينة عزيزة الجانب، ولكنها لم تكن الوقت الذي نتحدث عنه إلا مشتى آخذاً في الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان. وفي جنوبي إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضي وحولوها إلى مراعٍ للماشية؛ ففقدت المدن من كانت تعتمد عليهم من المزارعين، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال، وأفل نجم العشائر اليونانية التي كانت تنفق أموالها بسخاء في الأيام السابقة، وذلك بسبب تسرب القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية النائية، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطيء بحل اللغة اليونانية. وفي "ا صبع" إيطاليا كانت مدينة رجيوم **Rhegium** (رجيوم **Reggio** الحالية) ذات المرفأ الصالح. وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية. وعلى الشاطئ الغربي كانت تقوم فيليا **Velia**؛ ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا، وحين كان يتردد في جنباتها أ صداء أ شعار برمنيدز وزينون وأقوالهما المتناقضة الخبيثة. وقد بدلت الجالية الرومانية التي ا ستعمرت بو سيدونيا ا سم هذه البلدة فجعلته بيستم **Paestum**، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة. وكان أهلها اليونان في الوقت الذي نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون في الدم "البربري" - الإيطالي في هذه المرة - الذي كان ينصب فيها من الريف القريب منها. ولم تبقَ الحضارة اليونانية حية في إيطاليا إلا في كمبانيا.

وكانت كمبانيا - المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بنابلي - من الناحية الجغرافية جزءاً من سمنيوم. أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالماً مستقلاً بنفسه، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من روما، وكانت قوية من الناحية المالية، جمعت في رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السيا سية، والمنافسات الأدبية، والازدهار الفني، والألعاب العامة المثيرة. وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم في إيطاليا، وكان يصدر منها النبيذ السرنتي **Surrentine** والفالرني **Falernian** الذائعا الصيت ولعل فارو **Varro** كان يفكر في كمبانيا وهو يتحدى العالم بقوله: "يا من ضربتم في أرضين كثيرة، هل رأيتم فيها أرضاً زُرعت أحسن من أرض إيطاليا؟... أليست إيطاليا مليئة بأ شجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم؟". وفي طرف كمبانيا الجنوبي شبه جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة في البحر من سالرنم **Salernum** إلى سرنتم **Surrentum**. وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال، كما كانت تقوم بمحاذاة

شـــاطئ البحر. وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento في هذه الأيام، وقد لقبها بلني الأكبر بأنها "بهجة الطبيعة" التي حبتها بكل ما لديها من هبات ؛ ويبدو أنه لم يكد يتغيّر فيها شيء في خلال ألفي هام، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعباداتهم القديمة، وأن آلهتهم في هذه الأيام هي آلهتهم في الأيام الخالية؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له.

وكان في مواجهة هذا اللســـان البارز في البحر جزيرة كبريا Capraea (كاپري (Cpri تلاطمها الأمواج من جميع الجهات. وكان بركان فيروف المطل على الشـــاطئ الجنوبي للخليج يرســـل دخانه في الســـماء، بينما كانت پمبي وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات الحمم. ثم تلي هاتين المدينتين نيوبوليس Neopolis "المدينة الجديدة" أكثر بلاد إيطاليا اصطباغاً بالصبغة اليونانية في عهد تراجان. وفي وسعنا أن نتبين من كسل نابلي في هذه الأيام مدى انهماكها القديم في الحب واللهو والفن. لقد كان أهلها إيطاليين، ولكن ثقافتهم، وعاداتهم، وألعابهم كانت كلها يونانية. وكان فيها هياكل وقصــور، وملاهٍ جميلة؛ وكانت تقام فيها مرة في كل خمس ســنين مباريات في الموســيقى والشــعر نال أستاتيوس في واحدة منها جائزة. وفي الطرف الغربي من الخليج كان ثغر بتيولي Puteoli (بزيولي Puzzuoli الحديثة) التي إشتُقَّ اسمها من رائحة بركها الكبريتية .

وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة روما وبفضل مصنوعاتها الحديدية، وخزفها، وزجاجها. وكان فيها مدرج تدل ممراته التي تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التي كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجلد وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولي كانت تتلألأ قصـــور بايا Baiac التي يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر. هنا كان يلهو قيصر وكلجيولا ونيرون، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرئة يأتون ليستحموا في مياه عيونها المعدنية. وكانت المدينة تجني فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقي؛ وها هو ذا ڤارو Varro يقول إن فتياتها كنّ مُلكاً مُشـاعاً، وإن كثيرين من فتياتها كانوا بنات، وكان كلوديوس يرى أن شـيشرـون قد جلله عار لا يمحى أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة. ويقول سنكا متسائلاً: "أتظن أن كاتو كانت تحدثه نفسه بأن يقيم في قصر مليء بأسباب اللهو والسرور، يستطيع وهو فيه أن يحصي عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللائي يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان، والورود التي تتمايل حول البحيرة؟".

وعلى بعد بضـــعة أميال قليلة شـــمال بايا، في فوهة بركان خامد، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تبعث في الجو دخاناً كبريتيا بلغ من قوته أن وصـــفته الأســـاطير بقولها أنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً. وكان بالقرب من الكهف الذي شقّ إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء في ملحمة فرجيل.

وفي شـــمال البحيرة كانت مدينة كومي Cumae القديمة، وقد أخذت تحتضرـــ في ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها غبنتها مدينة نيوبوليس التي كانت أكثر منها جاذبية، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولي وأســتيا، ولتقدم الصـناعة في كاپواCapua . وكانت كبوا تبعد عن شـاطئ البحر في الداخل نحو خمسـين ميلاً وتقوم في إقليم خصيب كان ينتج في بعض الأحيان أربع غلات في العام؛ ولم يكن في إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من

مصانع البرنز والحديد. وقد جازتها روما على مساعدتها هنيبال جزاء أضر بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها، ووصفها شيشرون في خلالها بأنها "مسكن من ماتوا سياسياً". وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بآلاف من المستعمرين الجدد؛ وأضحت في أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى.

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التي كانت قائمة في إيطاليا القديمة والتي سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء. ولشد ما نخطئ إذ نظنّ أنها مجرد ألفاظ على خريطة، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفي الحس يجدُّون في طلب الطعام والشراب والنساء والذهب.

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقف في آثارها التي احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة في تلك الشوارع القديمة.

نظام البلديات وحياتها :

ولم تكن الحياة الخاصة والعامة، حياة الأفراد وحياة الجماعات، أحد وأقوى ما كانت في إيطاليا القديمة؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولي تفاصيل نظام البلديات في عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحمم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التي كان الأهلون يعضون عليها بالنواجذ، لم تعد هذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضي الحي الذي هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا.

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية تتألف من مجموعة من دول- المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حدٍ ما، وتضم كل منها في مؤخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها، مع أن الإمبراطوريّة كلها كانت مقسمة إلى ولايات. وكان معفي الوطنية في هذه الإمبراطوريّة حب الشخص لمدينته أكثر مما تعني حبه للإمبراطورية. وكان الأحرار في كل مدينة يقنعون في الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة؛ وقلما كان الذين نالوا المواطنية الرومانية من غير أهل روما يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم في الانتخابات؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة في العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له في مُدن الإمبراطوريّة ما تدل على هذا بمبي نفسها.

وكان لمعظم البلديات الإيطاليّة مجالس شيوخ Curia- ولمعظم المدن الشرقية مجالس boule' تشريعية- تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Snmma Honoraria والكلمة الثانية مشتقة من) Honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها عليه بأن يكون حاكماً لها، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة. وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجراً فإن ديمقراطية الأحرار- أو أرستقراطية الأحرار- قد استحالت في كل مكان تقريباً الجركية يتولاها ذوو المال والجاه.

وظلت البلديات مائتي عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس في رخاء وازدهار. ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال؛ فقد تكفلت الطبيعة والمميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود، قبل هذا العهد أو بعده، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها: ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريباً، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات، وغير ذلك من ضروب التسلية، والألعاب، وتشييد الهياكل، ودور التمثيل، والملاعب؛ ومدارس التدريب الرياضي، والمكتبات العامة، الباسلقات، والقنوات التي تنقل ماء الشرب للمدن، والقناطر والحمامات، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد، والصوَر والتماثيل، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار. وقد ظل الوطن طوال المائتي عام الأولى من عهد الإمبراطوريّة يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى في بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التي كانت تمولها، أو المدن التي تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء.

وقد جرت العادة في أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء، وكانوا في بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين؛ ولجميع السكان أحياناً، زيتاً أو خمراً بالمجان، أو يقيمون لهم وليمة عامة، أو يهبونهم قدراً من المال. وخلّدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء. فها هو ذا مثر من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم في فنيشيا ١,٦٠٠,٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة، وها هي ذي سيدة تشيد هيكلاً ومدرجاً في كسينم **Casinum**؛ وها هو ذا ديسميوس تلس **Decimius Tullus** يهب تركوينياي **Tarquinii** حمامات تكلّفت ٥,٠٠٠,٠٠٠ سسترس؛ وها هي ذي كرمونا **Cremona** التي دمرها جنود فسبازيانلا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين.

وتذكر النقوش إسمي طبيبين قدما كل ما يملكان هبات لنلمثلي. وفي أستيا التي كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا **Lucilius Gemala** جميع أهلها إلى الطعام ورصف فيها طريقاً طويلاً واسعاً، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها وأعاد بناء حمامات البلدية، ووهب خزانتها ثلاثة ملايين سسترس .

وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسماً كبيراً من المواطنين في عيد ميلاده أو لمناسبة إنتخابه إلى منصب عام، أو زواج إبنته، أو ارتداء إبنه الطوغة، دليلاً على بلوغه سن الرشد، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة. وكانت المدينة تجزي هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه في منصب عام، أو تقيم له تمثالاً، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش. ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلّة حين ينالون هذه العطايا كلها، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذي يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد في المباني الجميلة والتماثيل، ويلحون في تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب .

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد، ما كان يهبه الأباطرة للمدن، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث، فضلاً عن الأعمال العامة والمناصب التي كانت تحوّل من خزائن البلديات، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطاليّة في عهد حكومة الزعامة.

لقد كانت شوارعها مرصوفة، وكان فيها مجارٍ لنقل المياه القذرة، وشرطة لحماية الأمن، وكثير من وسائل الزينة، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها، وماء نقي نظيف يصل إلى الدور في أنابيب نظير أجر قليل، وطعام يقدم للفقراء بثمن بخس. وكانت الحمامات في معظم الأحوال مباحة من غير أجر يُنفَق عليها من هبات المحسنين، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم؛ وكانت المدارس ودور الكتب تُنشَأ للتعليم والمطالعة، والمسرحيات تُمثَّل، والحفلات الموسيقية تقام، والألعاب تُنظَّم لتُنافس بها تلك المدن روما غير عابئة بما تنفقه فيها من مال.

ولم تكن حضارة المدن الإيطاليّة حضارة مادية بالقدر الذي كانت عليه في العاصمة؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس في إقامة المدرجات، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة، يضارع بعضها أحسن ما كان منها في روما، وجعلت شهورها مرحة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة. وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات، وللشعراء، والسفسطائيين، والخطباء، والفلاسفة، والموسيقيين.

وكانت تيسّر لمواطنيها أسباب الصحة، والنظافة، والتنزه، والحياة الثقافية القوية. ومنها، لا من روما، خرج عظماء المؤلفين اللاتين، وعدد كبير من أحسن ما في متاحفها من روائع النحت كتمثال نيكي (العدالة) في متحف نابلي، وتمثال بروس (الحب) في سنتومسلا **Centumecella**، وتمثال زيوس في أتركولي **Atricolic**. وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان، لا يقلّون عن عددهم قبل هذا القرن، في المدن التي قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير.

وقصارى القول أن القرنين الأول والثاني من التاريخ الميلادي قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة.

المجتمع :

كان الرومان شعب روما القديمة قد أسسوا إمبراطورية احتلت أكثر بلدان البحر الأبيض المتوسط وأوربا الغربية حتى سقوطها في ٤٧٦ م وكانت لغتهم هي اللاتينية. وقد عرفوا بعدم تقديرهم لقيمة العمل كما أنهم لم ينصفوا العمال والطبقات المغلوبة على أمرها مثل العبيد والفقراء والفلاحين ولم يمنحوهم حقوقهم وحرياتهم خوفا من الثورة عليهم وعلى أملاكهم وسلطتهم ومع ذلك فقد اشتهرت هذه الحضارة بالإزدهار الإقتصادي والمادي وذلك بفضل كد الكادحين من الطبقة الفقيرة.

***

البنية المجتمعية:

الأسرة :

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى. وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين، والخلق، والنظام الاقتصـــادي، وكيان الدولة بأجمعها، كما كانت هي المنبع الذي تُستَمد منه هذه المقومات كلها. وكان كل جزء من أملاكها مهما صـغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جدّياً بالعالم الروحي؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة ڤستا Vesta ومادتها، وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة والى دوامها؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار، وأن يُعنى بها العناية "المقدسـة"، وأن تغذى بنصـيب من كل وجبة.

وكان الطفل يرى فوق الموقد النصـــمات تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدســـة: إللار Lra الذي يحرس حقولها ومبانيها، وسـعادتها ومصـيرها؛ والبينات Penates أو الآلهة الداخلية التي تحمي ما تجمع للأسرة في مخازنها وأصـــونتها وبيادرها؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول عتبة الدار وإن كانت الأعين لا تراه، وكان ذا وجهين، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب. وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفنى بفناء الجســـم بل يجب أن تغذى على الدوام عند قبر الأب. وكانت الأم هي الأخرى تحمل ربّاً من الأرباب،

الحكومة:

القانون :

كان القانون أخص خصـائص الروح الرومانية، وأبقى مظهر من مظاهرها وكانت روما مضرب المثل في النظام كما كانت بلاد اليونان مضرــب المثل في الحربة، ولقد أورثتنا رومة شرائعها، وتقاليدها الإدارية لتكون هي أســس النظام الاجتماعي، كما أورثتنا بلاد اليونان الدمقراطية والفلســـفة اللتين كانتا أســـاس الحرية الفردية. وأهم ما يجب على الســاســة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحدوا بينهما، ويؤلفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغماً مؤتلفاً منسجماً .

وإذ كان القانون هو أ ساس التاريخ الروماني وجوهره، فقد كان من المستحيل أن نفصل هذا عن ذاك، ومن أجل هذا لن يكون هذا الباب من أبواب الكتاب إلا مكملاً لما ســبقه وما ســيعقبه من تفصــيلات، ولن يزيد على لبنات متفرقة في صرح الحضارة الرومانية. والدستور الروماني يشبه الدستور البريطاني- فلم يكن هذا الدستور طائفة من القواعد المخلدة التي يتقيد بها الناس، بل كان ســلســلة متتابعة من الســوابق ترشــد وتوجه، ولكنها لا تمنع التغيير. فكلما زاد الثراء وتعقدت أســاليب الحياة، أصــدرت الجمعيات وأصــدر الحكام والزعماء، قوانين جديدة، وســايرت الشرائع الإمبراطورية في نموها واتساع نطاقها، فكانت كلما امتدت رقعة الإمبراطورية لاحقتها القوانين إلى الحدود

الجديدة، وتطلب تعليم رجال القانون، وإرشاد القضاة، وحماية المواطن من الأحكام الظالمة غير المشروعة، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصياغتها في صورة مرتبة يسهل معرفتها والوصول إليها.

وبينما كانت الاضـــطرابات التي حدثت عقب ثورات ابني جراكس وماريوس على أشـــدها قام پپليوس موكيوس سـكاڤولا Publius Mucius Scaevola (الذي ولي القنصـلية في عام ١٣٣ ق. م) وابنه كونتس Quintus (وقد ولي القنصلية في ٥٥ ق.م) وبذلاً جهوداً كبيرة لصياغة قوانين روما صياغة يسهل فهمها. وكتب شيشرون، وكان من تلاميذ رجل آخر يدعى كونتس موسيوس اسكافولا (وقد ولي القنصلية عام ١١٧ ق. م)، رسائل بليغة في فلسفة القوانين، ووضع مشروع قوانين مثالية يقصد بها الاحتفاظ بالثروة الطائلة التي جمعها وبالدين الذي خسره. وخلقت القوانين المتناقضة التي سنها ماريوس وصلاً، وسلطة بمبي المطلقة التي لم يكن لها مثيل من قبل، والشرائع الثورية التي وضعها قيصر، والدستور الجديد الذي وضعه أغسطس، خلقت هذه كلها مشاكل جديدة للعقول التي حاولت أن تجعل الشرائع المتمشية مع المنطق السليم، وأخذ المشترع النابه أنتستيوس لبيو Antistius Labeo يندد بما في القوانين من اضطراب وفوضى، ويعلن أن المراسيم التي أصدرها قيصر وأغسطس مراسيم باطلة لأنها مظهر لسلطة مغتصبة غير شرعية. ولم يكن في مقدور عقول الأفراد أو سلطة المحاكم أن تقبل هذه القوانين الجديدة إلا بعد أن وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة أولاً وبسلطان العادة فيما بعد. ويعود الفضل إلى القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي في وضع القوانين الرومانية في الغرب في صورتها النهائية- وهو عملاً لا يقل خطراً عن صياغة العلم والفلسفة في بلاد اليونان.

الاقتصاد:

كان يُنظر للزراعة في روما القديمة بإجلال كبير. وبين العديد من المعلقين الذين امتدحوا الحياة الريفية البسيطة وكرّموها بهالة الفضيلة الرومانية, يبز ڤرجيل سواه في كتابه جورجيات .

شيشرون اعتبر الزراعة أفضل المهن الرومانية. فيقول في كتابه "في الواجبات", " لكن من كل المهن ذات الدخل المضمون, فلا شيء أفضل من الزراعة، ولا أكثر ربحاً، ولا أبعث للسعادة, ولا أنسب لرجل حر ...” فهي حياة استعملها شيشرون في مرافعته **Pro Sex. Roscio Ameriae** ليدافع عن سكستوس روسكيوس، الذي هاجم الإدعاء حياته الريفية، قائلاً. “ولكن حياة الريف, التي تسميها حياة مهرجين, هي معلِّم الإقتصاد والصناعة والعدل”.

قلما كان الرومان في تلك العصور يحتاج إلى الطب، لأن حياته النشيطة في الزراعة والجندية تكسبه صحة وقوة. وكان يجدُّ في فلح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر؛ وكانت الزراعة أساس حياته، يقيم المدن لتكون مجتمعاً للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها، ويفكر في آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية.

ونجد الملكية الفردية قائمة في روما من أقدم العصور المعروفة ؛ على أن بعض الراضي كانت تعد من الأملاك العامة ager publicus التي تستولي عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها.

وكانت أسرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبدها إن كان لها عبد، وتعيش عيشة متقشفة على ما تنتجه من الغلات. وكانوا يفترشون القش ، ويصحون من نومهم مبكرين، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العلوي عار من الملابس، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها، وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاماً في الأعياد والولائم. وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سماداً، ولكن المخصبات الكيمائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية.

وقد استورد في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية منبلاد اليونان ومن قرطاجنة. وكانت الأرض تزرع حباً ثم خضراً، ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعي حتى لا يستنفد خصبها. وكانت الفاكهة والخضر موفورة، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين، وكان الثوم من أحب المشهيات، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسر الأشراف قد اشتقت أسماؤها من الخضر التي تعنى بزراعتها. ومن أمثلة ذلك أسر Lentuli, Fabii,Caepiones، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس، والبصل، والفول أو الحمص.

ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر، واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام، وبالصابون في الاستحمام، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسطالجافة وشمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها.

وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات. وكانت الخنازير والدجاج تربى في ساحة المزرعة، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار.

ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح، ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم؛ وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفها الإهمال، أو الجيوش، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد؛ ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع؛ وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة كبيرة Latifundia، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعي للضأن والماشية، وبساتين وكروماً، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان.

وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفنية والفنية ليلقوا نظرة على أملاكهم؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف، أو في قصور في روما. وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت في الريف

طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون، وفي العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم، وانتشرت بينهم التذمر والغضب من وضعهم. وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين.



نقش بارز يصور فلاح غالي-روماني.



صورة ليلية لسوق تراجان الذي بناه Apollodorus of Damascus.

تقنيات الزراعة :

كانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون، فقد احتفظ المحراث، والمجرفة، والمعزقة، والفأس، والمذراة، والمنجل بصورتها التي كانت عليها في تلك الأيام، ولم تكد تتغير في شيء. وكانت الحبوب تطحن في طواحين تديرها المياه أو الحيوانات. وكانت المضخات اللولبية والسواقي ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الري. وكان يحفظون بخصب التربة بأتباع الدورة الزراعية، واستخدام المخصبات والنباتات التي تفيد الأرض كالفصفصة والبرسيم والشيلم والفول.

وكانوا يتفننون في انتخاب البذور، وكان في وسعهم بعنايتهم وحذقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة في بعض الأحيان من حقول كمبانيا ووادي البو الخصبة الغنية. وكان في مقدورهم أن يحصلوا من زرعة واحدة من الفصفصة على أربعة محصولات أو ستة في كل عام لمدة عشرة أعوام. وكانوا يزرعون كل الخضر الأوربية المعروفة عدا أندرها، وكانوا يزرعون بعضها في البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء.

وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف لا أنواعها كثيرة، لأن القواد والتجار الإطاليين، والتجار الأجانب، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس، والمشمش من أرمينية، والكرز من كرا سس في إقليم بنتس (ومنها ا شتق ا سم هذه الفاكهة)، والكرم من سوريا، والبرقوق من دمشق، والخوخ والبندق من آسية الصغرى، والجوز من بلاد اليونان، والزيتون والتين من أفريقية.. واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأريوطس) بأغصان شجر الجوز، وشجر الدلب بأغصان الخوخ، وشجر الدردار بأغصان الكرز.

ويذكر بلنى تسعة وعشرين نوعاً من شجر التين كانت تزرع في إيطاليا، ويقول كالوملا: "لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعنا كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً". ثم نقلت هذه الفنون إلى غربي أوربا وشماليها. وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التي نأكلها قد تجمعت من رقعة وا سعة من الأرض، وان لها من ورائها تاريخ طويل. وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذي ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين .





Roman hoe blade، من حقل في متحف شيكاگو

التجـــــــارة :

الاقتصاد الزراعي :

كان سبب انتشار المراعي والضياع الواسعة إن تربية الماشية وزراعة أشجار الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخضر، وأن أصحابها قد تبينوا أن المراعي إذا أريد أن تستغل على خير وجه وجب أن تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة. فلما أشرف القرن الأول بعد الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايا قد أخذت في الزوال بسبب ما حدث من الزيادة في تكاليف العبيد، ومن النقص في إنتاجهم، ومن ضعف قدرتهم على الابتكار.

وقد بدأ في هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من استخدام العبيد إلى استخدام أقنان الأرض. وكان سبب ذلك أن السلام قلل من استرقاق أسرى الحروب، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون في فلحها العبيد بل يؤجرونها إلى زراع أحرار يؤدون لهم في نظير ذلك مالاً وعملاً. وكان معظم (الأراضي العامة) التي تملكها الحكومة يستغل وقتئذ بهذه الطريقة، كما كانت تستغل بها أيضاً الأراضي الواسعة التي يمتلكها بلنى الأصغر الذي يصف مستأجريه بأنهم فلاحون أصحاء، أقوياء، طيبو القلوب، ثرثارون، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين في هذه الأيام، فقد بقوا على حالهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير.

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال. وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة، وكانت روما وحدها تحتسي منها خمسة وعشرين مليون جالون في كل عام، أي بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع. وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية ـــ أي بطرقة الإنتاج الكبير الذي تموله روما. وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لك يتذوق البلاد التي يتشرب الجعة كألمانيا وغالة لذة النبيذ.

وشرعت أسبانيا وأفريقية وغالة تزرع كرومها، واخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التي يصدرون إليها نبيذهم أسبوعاً بعد أسبوع، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ في إحدى أزمات الإنتاج الوفير التي عانتها روما في الزمن القديم. وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة ، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى، فحرم غرس كروم جديدة في إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة في الولايات. وأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة ان نبيذ غالة وزيتون أسبانيا وأفريقية وبلاد الشرق أخذا يطردان الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادي.

وخصص جزء كبير من أراضي شبه جزيرة إيطاليا للمراعي، فكانت الأرض غير الموفورة الخصب، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير، وكانوا يعون بتربيتها على الطريقة العلمية. وكانت الخيل تربى في الغالي للأغراض الحربية، وللصيد وألعاب الفروسية، وقلما كانت تستخدم لجر المركبات؛ وكانت الثيران

تجر المحاريث والعربات، والبغال تحمل الأثقال على ظهورها؛ وكانت البقر والغنم والماعز تمد الأهلين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه في هذه الأيام أصناف الجبن اللذيذ. وكانت الخنازير تربى في الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط. ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش في الغالب على لحم الخنازير التي تتربى في غابات البلوط الكثيرة في شمالي إيطاليا. وكان الدجاج يمد المزارع بالسماد المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ، كما كان النحل يمد الأهلين بالشهد الذي كان منذ القدم يستعمل بدل السكر.

وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل،وقليلاً من صيد الحيوان، وكثيراً من سيد السمك، تكونت لدينا الصورة التي كان عليها الريف الإيطالي منذ ألف وتسعمائة عام والتي لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم.

الأرستقراطية والأراضي :

في العصر الفضي ظهر المرجع الروماني الهام في الزراعة وهو كتاب يونيوس كلوملا **Junius Columella** المسمى **De Re Rustica**. ومؤلفه من أصل أسباني فهو من الناحية شبيه بكونتليان ومارتيال وآل سنسكا. وكان يستغل عدة ضياع في إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ في روما. ذلك أنه وجد أن أحسن الأراضي قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق و سويت لتكون مسارح للأثرياء، وأن التي تليها في الجودة قد غرست فيها بساتين الزيتون والكروم، ولم يبق للزراعة إلا أردئ الأراضي. ومن أقواله في هذا: "لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد، وهم يقومون بعملهم قيام الهمج". وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون في المدن على حين انه كان في مقدورهم أن يقووا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل في الأرض، "فنحن نعمل في الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم". وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن أفلحها أعود على الناس من ثقافة المدن، ويقول في ذلك إن "الزراعة من أخوات الحكمة". وكان يغرى الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ اللاتينية المصقولة. وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته الشعرية غايتها.

وتلك هي الفترة التي نطق فيها بلنى العالم الطبيعي بعبقرية لم يكن موعدها قد حان: "إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا"، وذلك حكم أصدره غيره من الكتاب وهم سنكا، ولو كان، وبترونيوس، ومارتيال، وجوفناتل. فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التي كانت أوسع رقعة من الممالك يزرعها عبيد مصفدون في الغلال. ويقول كالوملا أن بعض الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها راكبين. ويحدثنا بلنى عن ضيعة يعمل فيها ٤١١٧ من العبيد، و ٧٢٠٠ ثور، و٢٥٧,٠٠٠ من الحيوانات الأخرى. نعم إن ما عمله أبنا جراكس، وقيصر، وأغسطس من توزيع الأراضي على الرومان قد زاد عدد صغار الملاك، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم في أثناء

الحروب التي قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء، ولما ان قللت الإدارة الإمبراطورية من أعمال السـلب والنهب في الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة.



كاتو الأكبر، مؤلف كتاب الزراعة الرومانية القديمة.

العسكرية:

كان النظام العسكري القائم في العصر الروماني القديم يعتمد بصفة رئيسية على الجيش الروماني، والذي كان اعتمد عليه الدستور الروماني في نهاية الامر، وكان من أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً في تاريخ العالم كله.

لقد كان الجيش هو والمواطنون وحدة وثيقة الارتباط، وكان الجيش مجتمعًا في المئات هو الهيئة الرئيسية التي تسن قانون الدولة. وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى، أما "الطبقة الأولى" فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة، وكان كل جندي فيها يسلح بحربتين وخنجر وسيف، ويلبس خوذة من البرنز، ودرعًا من الزرد، وجرموقًا، ومجنًا. وكان لرجال الطبقة الثانية كل هذه العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال الطبقتين الثالثة والرابعة فلم يكن لهم سلاح، ولم يكن لرجال الطبقة الخامسة غير المقاليع والحجارة.

وكان الفيلق الروماني هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة، و٣٠٠ من الفرسان، وعدة كتائب أخرى إضافية ؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين. وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب، وكانت كل منها في بادئ الأمر تتألف من مائة جندي، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين، ويقودها قواد المئات. وكان لكل فيلق علمه الخاص **vexillum** . وكان مما يخل بالشرف أن يسقط هذا العلم في أيدي الأعداء. وكان مهرة الضباط في بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية. وإذا نشبت المعركة قذفت صفوف المشاة الأمامية العدو، الذي لم يكن يبعد عنهم أكثر من عشر خطوات أو عشرين خطوة، بوابل من الحراب، وهي رماح من الخشب تنتهي بأطراف من الحديد، وهاجمه في الجناحين أصحاب النبال والمقالع بالسهام وبالحجارة، وهجم الفرسان بالأسنة والسيوف؛ وكانت الواقعة تنتهي بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف

القصار. أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها المجانيق الخشبية التي تدار بالجذب أو اللي وتقذف من الحجارة ما زنته عشرة أرطال إلى أبعد من ثلاثمائة ياردة. وكانت كباش حربية ضخمة معلقة في حبال تشد إلى الوراء، ثم تخلي فتنطح أســوار الأعداء. وكان يقام رصــيف مائل من الطين والخشــب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمي منها القذائف على الأعداء .

وقد عُدل في عام ٣٦٦ ق.م تشكيل الفيالق التي كانت في عهد الجمهورية الأول تتألف من ستة صفوف متراصة في كل واحد منها ٥٠٠ جندي، فكانت لذلك ضـخمة كبيرة العدد يصـعب تحريكها وتسـييرها، فقسـم كل فيلق إلى كوكبات في كل كوكبة مائتا جندي. وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والتي تجاورها، وتقف الكوكبة التي في كل صــف خلف الفراغ المتروك في الصــف الذي قبله. وبهذه الطريقة يمكن الإسراع في إمداد كل صــف من الصــف المجاور له، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أي هجوم جانبي، كما كان من شــأن هذا النظام أن يفســح المجال للحرب الفردية التي كان الجندي الروماني يعد لها أحسن إعداد.

الثقافة:

الحياة في روما القديمة تدور حول مدينة روما، التي تقع على التلال السـبعة. وتشـتمل المدينة على عدد كبير من المبانى التذكارية مثل الكولوسـيوم،مجمع تراجان والبانثيون . وفيها نافورات مياه الشرـب العذبة التي توفرها مئات الكيلومترات من القنوات المائية، والمســارح، ومبانى الألعاب الرياضــية (الجمنازيوم)، ومجمعات حمام تكتمل مع المكتبات والمحلات التجارية والأسواق، والمجاري الوظيفية.

في جميع الأراضي الواقعة تحت ســيطرة روما القديمة، تراوحت العمارة الســكنية بين منازل متواضــعة جداً إلى الفيلات الريفية. أما في العاصمة روما، كانت المساكنالامبراطورية على تل بلاطي(قصرى) الأنيق، حيث استمدت كلمة قصر منه. وتعيش الطبقات المنخفضة من عامة الشعب والمتوسطة الفروسية في وسط المدينة، وتعبأ في شقق، أو Insulae التي كانت أشــبه بالاقليات الحديثة. وتُبنى هذه المناطق غالبا على أراضى الطبقة العليا لجمع دخول ايجار العقارات، وغالباً ما يكون في مركزها المدارس أو غرف التســوق و يُمد هؤلاء الناس بالحبوب المجانية، ويتم الترفيه عنها بألعاب المجالدة (gladiator)، كما يتم تســجيلهم كتابعين من الســادة المعتقين في صــفوف الطبقة العليا الأرستقراطيون، للمساعدة التي تنشدها ولتدعيم مصالحهم.

المطبخ :

تغير المطبخ الروماني القديم على مدى الفترة الطويلة التي عاشـتها الحضـارة الرومانية القديمة. وتأثرت العادات الغذائية للشعب الروماني القديم بالثقافة اليومانية، التغيرات السياسية من المملكة إلى الجمهورية إلى الامبراطورية، والتوسعات التي امتدت اليها الامبراطورية، واطلاع الرومان على العادات الغائية وتقنيات الطهي المختلفة. في البداية كان الاختلاف بين الطبقات الاجتماعية غير كبير، لكنه بدأ في الظهور مع نمو الامبراطورية الرومانية.

اللغات:

كانت اللاتينية هي اللغة التي يتحدث بها أهالي المنطقة حول روما تسمى لاتيوم (Latium) . صارت تلك اللغة مهمة جداً كاللغة الر سمية فيالامبراطورية الرومانية. كل اللغات رومانسية أ صلهم من اللغة اللاتينية، ولذلك الكثير من الكلمات اللاتينية توجد في لغات معاصرة آخرى مثل الإنجليزية. وكانت اللاتينية تعتمد في قواعدها قليلاً على ترتيب الكلمة، ونقل المعنى من خلال نظام اللاحقةالمتصـــلة بجذر الكلمة. وتعتمد أبجدية اللغة على الأبجدية الإتريورية، التي كانت بدورها تعتمد على الأبجدية اليونانية . وعلى الرغم من أن الأدب اللاتيني الباقى يتألف كله تقريباً من اللاتينية الكلاسيكية،إلا أن لغة الأدب مصطنعة للغاية، منمقة الأسلوب ومصقولة من القرن الأول قبل الميلاد، وكانت اللغة المنطوقة فعليا في الامبراطورية الرومانية اللاتينية العامية، والتي تختلف بشكل كبير عن اللاتينية الكلاسيكية في قواعد اللغة والمفردات، وأخيراً في النطق .

بينما استمرت اللاتينية اللغة الرئيسي المكتوبة في الامبراطورية الرومانية، أصبحت اليونانية اللغة التي يتحدث بها جيداً النخبة المتعلمة، إذ أن معظم المؤلفات التي درســـها الرومان كتبت باليونانية. في النصـــف الشرـقي من الامبراطورية الرومانية، والتي تحولت فيما بعد إلى الإمبراطورية البيزنطية لم تكن اللاتينية قادرة أبداً على أن تحل محل اليونانية، وبعد وفاة قسطنطين، أصبحت اليونانية اللغة الرسمية للحكومة البيزنطية. وأدى توسع الامبراطورية الرومانية إلى انتشـــار اللاتينية في جميع أنحاء أوروبا، وبمرور الوقت تطورت اللاتينية عامية اللهجة وأثارت الجدل في مواقع مختلفة، وتدريجياً تحولت إلى عدد متميز مناللغات الرومانسية.

الديانة:

كانت للرومان العديد من الآلهة والأساطير المرتبطة بهم والتي كانت تدخل في صميم حياتهم اليومية. وتشكلت من تلك المعتقدات والديانات الأساطير اليونانية، وكان أغلبها مألوفا لدى عامة الشعب الإغريقي. على غرار الديانات التي كانت منتشرـة حينذاك، آمن الإغريق بوجود آلهة عديدة، كما ربطوا بين كل آلهة وأحد النشـــاطات اليومية. أفروديت مثلاً، كانت إلهة الحب والجنس، بينما كان آريس إله الحرب وهيلان إله الموتى. بالرغم من أنه يمكن عد المئات من الموجودات التي يمكن أن تعتبر "آلهة" حسب التصورات القديمة، إلا أن حضور أكثرها اقتصر على جوانب هي أ شبه بالفولكلور منها إلى ممارسات دينية. العبادة الفعلية اقتصرت على بضعة آلهات فقط، وبالأخص الآلهات الثلاثة عشرـ الأولمبيانية (نسـبة إلى مقرها في جبل أولمبوس أو أولمب). تعتبر الآلهات الأولمبيانية المركز الذي تنتظم من حوله المعتقدات الهلينسـتية القديمة، تعتبر بيرسـيفون)راعية الألغاز الإليوسـينية) الاسـتثناء الوحيد هنا. كانت العديد من القرى والمدن تملك معتقدات خاصة بها، ترتكز على مجموعة من الحوريات والآلهات المحلية.

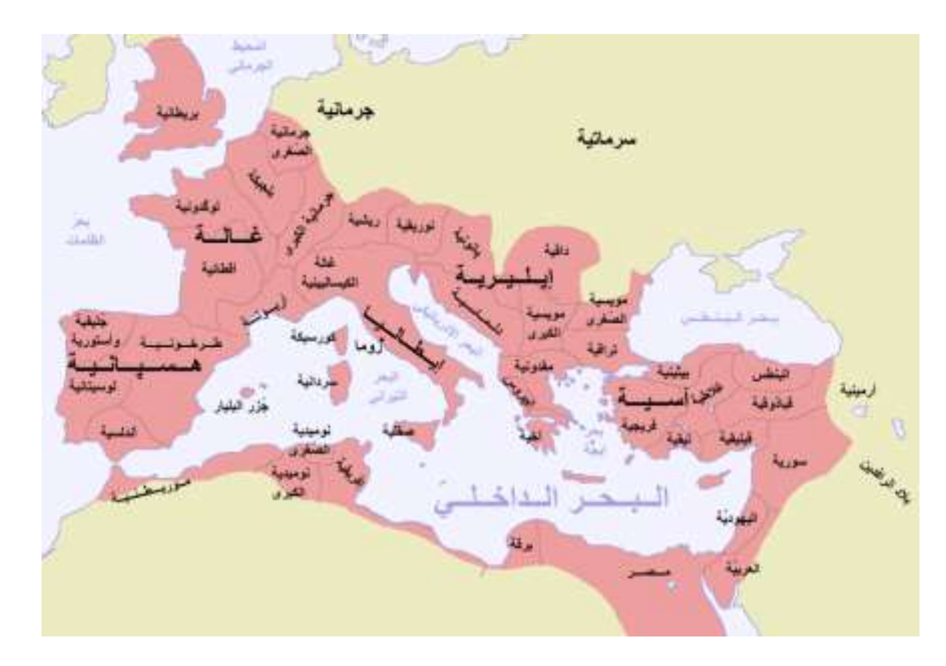
ولم يكن الروماني، كما كان الإغريقي، يفكر في آلهته كأن لها صـوراً كصـــور الآدميين، ولم يكن يســـميها إلا مونينا Munina أي الأرواح، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصـــحة، أو الشـــباب، أو الذاكرة، أو الحظ، أو الشرف، أو الأمل، أو الخوف، أو الفضيلة، أو العفاف، أو الوفاق، أو النصر، أو روما. وكان منها أرواح

للمرض يصعب استرضاؤها كالأطياف وأرواح الموتى؛ ومنها أرواح فصول السنة، مثل **Maia** روح شهر مايو؛ ومنها آلهة الماء مثل نپتون **Neptune**، وأرواح الغابات أو الآلهة التي تسكن الأشجار مثل سيلڤانس **Silvanus**.

وكان بعضـــها يتقمص الحيوانات المقدســـة كالحصـــان أو الحيوان الذبيح، أو الأوز المقدس الذي كان المتقون يحتفظون بها فوق الكبتول لا يناله أحد بأذى، ومنها أرواح التناســل والإنتاج: تتومس يشرـف على الحمل، ولوســينا تحمي الحيض والولادة، وكان بريابس **Priapus** ألهاً للإخصــــاب عند اليونان، ولكنه سرعان ما ســـكن روما، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصـدق القديس أوغســتين الغاضـب) يجلســن على قضـيب تمثاله ليضـمن بذلك استعدادهن للحمل).

قائمة أكبر الإمبراطوريات:

أ سقطت ثورة الـشعب الروماني الملك الطاغية طقعينوس واعتبر الرومان عام ٥٠٩ ق.م مفترقاً أ سا سياً في حياتهم السـياسـية والاجتماعية والاقتصـادية وأطلقوا عليه اسـم عام المجد وكان ذلك بعد سـلسـلة من الأحداث السـياسـية والعســكرية التي لا تزال غامضــة حتى وقتنا الحاضر، وتوصــل الشــعب الروماني إلى تنظيم جديد للســلطة في روما، وابتداءً من ذلك التاريخ بدأت العملية الفعلية لبناء الإمبراطورية الرومانية، فعملوا على التوســـع الجغرافي حيث وضعوا نصب أعينهم هدفاً أساسيا ينحصر في التوسع الجغرافي باستخدام القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية، ورؤوا بأن هذه الطريقة هي الأفضل لتحقيق طموحات هذه الدولة الفتية، فبدؤوا بحروب شبيهة بالغزوات القبلية المحدودة تســتهدف إخضــاع العشــائر والعائلات المحيطة بروما وكان ذلك خلال مراحل قيام الجمهورية الأولى التي قامت بتأسـيس الإمبراطورية الرومانية، ثم بدأت مرحلة قيام الجمهورية الثانية التي شـهدت تحول الدولة الصـاعدة من قوة لاتينية داخل شبه الجزيرة الإيطالية إلى قوة عـسكرية عالمية تتأثر بمايجري وتؤثر على في مركز العالم القديم (حوض البحر الأبيض المتوســط) وفي هذه المرحلة انتهت حروب روما داخل شـــبه الجزيرة الإيطالية، وبدأت حروب الرومان مع الفينيقيين (القرطاجيين) التي كانت مدينة قرطاجة الكائنة في شــمال أفريقيا عاصــمة لهم، وقد ســميت هذه الحروب بالحروب البونية (**Punic Wars**).



وصلت الإمبراطورية الرومانية أقصى امتداد لها في العام ١١٦ .



الإمبراطورية الرومانية في سنة ١١٧ م، خلال أقصى اتساع لها
خريطة توضح أقصى امتداد للدولة الرومانية وذلك في عهد تراجان



عملة أوريوس لأغسطس، أول إمبراطور روماني.

الفصل الثالث
الصراع الروماني القرطاجي

الحروب البونيقية :

بدأ الصراع الروماني - القرطاجي كصراع تجاري ثم أخذ أبعاداً عسكرية وكان أول احتكاك بين الطرفين عندما احتل الرومان جزيرة صقلية عام ٢٦٤ ق.م واعتبر القرطاجيون هذا الغزو مساساً مباشراً بمصالحهم الاقتصادية والسياسية،

وهذه الواقعة كانت البداية الأولى للحرب بين الرومان والقرطاجيين التي استمرت إلى عام ٢٤١ ق.م.

وفي الحروب البونيقية خاض الطرفان سلسلة من المعارك البرية والبحرية حسم بعضها وبقي الآخر دون نتائج حاسمة ولكن كان غالبية حسم المعارك للرومان وخصوصاً المعارك البرية أما المعارك البحرية فكانت غالباً نتائجها للقرطاجيين حيث كانت معظم قواتهم بحرية بخلاف الرومان الذين كانت قواتهم برية.

وقد حقق الرومان أول نصر عندما أخرجوا القرطاجيين من صقلية عام ٢٤١ ق.م، ثم تلا ذلك أن تمكن القائد الروماني مختاريوس ماركوس ديغولوس من هزيمة الأسطول القرطاجي عام ٢٥٦ ق.م وكانت هذه المعركة أول معركة بحرية يخوضها الجيش الروماني، ولكن القرطاجيين لم يستكينوا للرومان وقرر قائدهم في هذه الحقبة من الزمن هانيبال الاستمرار في مدّ رقعة السيطرة القرطاجية على الساحل الإسباني وقد وصلوا إلى مر سليا عاقدين العزم على غزو الأراضي الإيطالية من الجهة الشمالية الغربية. وكانت آمال (هانيبال) كبيرة في أن يساعده الرومان وبدأ القرطاجيون حملتهم الجديدة على الرومان، ومن هنا بدأ ميزان القوى يميل ضد روما فبعد أكثر من عشر سنوات من الحروب المستمرة مع أعداء مختلفين على جميع الاتجاهات لشبه الجزيرة الإيطالية

قويت حملة هانيبال المدروسة والمعد لها جيداً وأصبحت مثل رأس الحربة في وجه الطموحات الرومانية، خصوصاً أن هذه الحملة قد ظهرت مع ظهور عدد من الأطراف المعادية للرومان وأصبحت الدولة الرومانية في خوف من التحالفات التي قد تهدد وجود دولتهم ومخططاتهم التوسعية .

انتصارات هانيبال :

تمكن هانيبال من تحقيق سلسلة من الانتصارات للقرطاجيين على الرومان تتمثل في:

- الانتصار على الجيش الروماني في معركة معركة كاناي.
- الاستيلاء على مدينة ساعونتوم حليفة روما.
- قطع نهر تريبيا.

وقد سبق تلك الفترة تحالف بين الملك المقدوني فيليب الخامس وهانيبال ضد الرومان، وزاد الطينة بلة انفصال سيراكوز في صقلية عن السلطة المركزية في روما ومن هنا أصبحت روما على حافة الهزيمة .

هزيمة هانيبال :

تعددت أسباب الهزائم القرطاجية ومنها:

- قدرة القادة الرومان على مواجهة المصاعب بهدوء ورباطة جأش.
- الاستفادة من الدروس العسكرية القتالية المتتابعة بأسرع وقت.
- بقاء معظم حلفاء روما اللاتينيين إلى جانبها في أوقات الأزمات.
- عدم وصول المساعدات والإمدادات إلى قوات هانيبال من قرطاجة.

كانت الحكومة القرطاجية تعاني من الانقسامات والفساد مما أدى إلى عدم مساندة الحملة الهانيبالية.

كان القسم الأكبر من جيش (هنيبال) من الخيالة، وكان هذا السلاح فعالاً في العمليات القتالية المتحركة والسريعة، ولكنه غير ملائم لعمليات الحصار واحتلال الأراضي.

وهذه المواقف والمؤثرات استغلها الرومان فأعادوا تنظيم جيوشهم ونشرها على مختلف الجبهات وقاموا بسلسلة من الحملات التي أدت إلى استعادة كل من مدينتي سيراكوز وكابي، وقرر الرومان فتح جبهة في أسبانيا لمحاصرة قوات هانيبال ومنع التعزيزات من الوصول إليها.

وقد ألحقت القوات الرومانية هزيمة بالقوات القرطاجية في معركة إيليبا Ilipa في إسبانيا وفي هذه الأثناء تراجع الملك المقدوني فيليب الخامس عن التحالف مع هانيبال فسعى الرومان إلى مصالحته.

وقد قاد القائد الروماني مختاريوس سيبيو جيشاً قوامه ٢٥ ألف رجل من المشاة المدعمين بالخيالة وقطع به البحر الأبيض المتوسط متجهاً إلى قرطاجة، وأصر القرطاجيون على استدعاء هانيبال من إسبانيا لقيادة الجيوش القرطاجية، والتقى الجيشان في معركة زاما التي هزم فيها القرطاجيون. بعد هذه الهزيمة عقدت معاهدة اتفق فيها الطرفان على أن :

- يدفع القرطاجيون الجزية خمسين عاماً.
- تخفيض سفن القرطاجيين إلى عشر سفن.
- عدم شن أي حرب خارج أفريقيا إلا بموافقة روما.

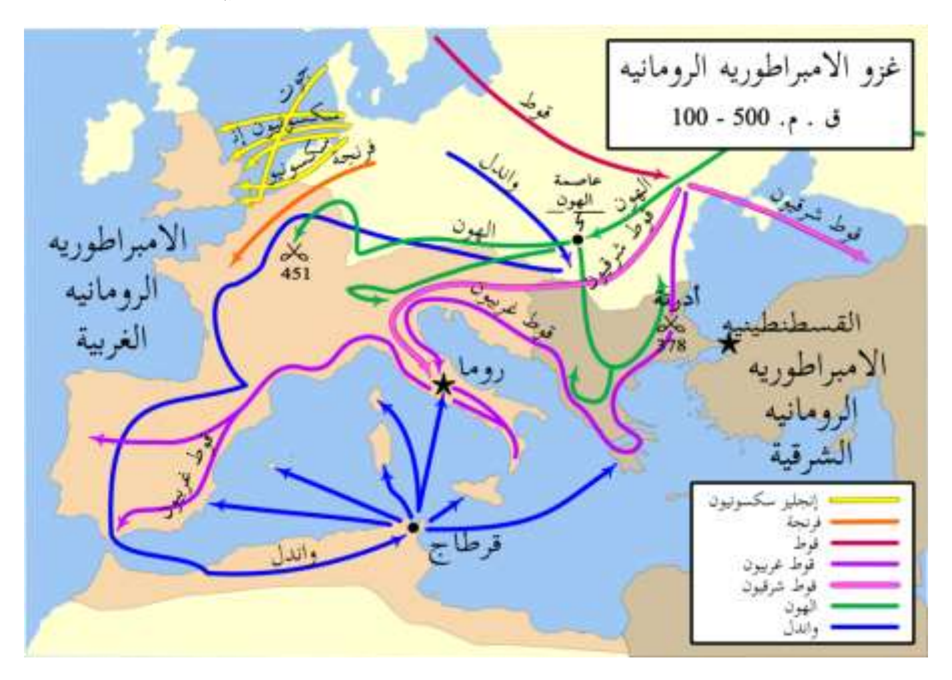
كان من نتائج الانتصار الروماني السيطرة الرومانية على الساحل الإسباني الشرقي والجنوبي وتم تقسيم إسبانيا إلى مقاطعتينا تحت اسم إسبانيا القريبة وإسبانيا البعيدة.



أنقاض مدينة وليلي في المغرب (أقدم موقع أثري بالمغرب - عاصمة المغرب القديم وتعد جزءا من إمبراطورية الرومان وإرثهم)



عصر التوسع الروماني:



إثر الانتهاء من درء الخطر القرطاجي اتجهت أنظار الرومان شرقاً وأصـــبحوا يفكرون في الاســـتيلاء على مملكة مقدونيا وبالفعل أعلنوا عليها الحرب وكان لهم أهداف تتمثل في :

- **الحد أو القضاء على النفوذ المقدوني في الشرق.**

- السيطرة على الجزر الواقعة في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط نظراً لأهميتها البالغة على صعيد الملاحة والتجارة.
- الوصول إلى أراضي المملكة السلوقية التي كانت تسيطر على أجزاء من آسيا الصغرى وشمال سوريا.

شن الرومان سلسلة من المعارك التي انتهت باحتلال كامل للأراضي المقدونية في الشرق وتم السيطرة على بلاد الإغريق اليونان، وبنهاية هذه الحروب أتسعت حدود الجمهورية الرومانية من إسبانيا غرباً إلى السواحل الغربية لآسيا الصغرى شرقاً، بالإضافة إلى الأراضي القرطاجية في شمال أفريقيا، وقسمت هذه الأراضي الشاسعة إلى سبع مقاطعات مرتبطة بالحكومة المركزية في روما.

وبعد هذه الانتصارات أصبحت الدولة الرومانية دولة عظمى يصعب قهرها وتتحكم بمقدرات العالم القديم الغربي والشرقي، وفي هذه المرحلة بدأ التاريخ الروماني يضج بأسماء القادة والزعماء المنتصرين وتحولوا إلى طبقة حاكمة تؤثر على مجرى الأحداث في روما وخارج.

الحكم الروماني في مصر والشام:

أولاً : الحكم الروماني في مصر :

يقول ألفرد بتلر عن الحكم الروماني في مصر:

(إن حكومة مصر (الرومانية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم).



حكم البطالمة خلفاء الاسكندر الأكبر مصر بعد وفاته وتمكنوا من إنشاء دوله فيها تمتعت بكل مظاهر الاستقلال حتى سنة (٣١ ق. م) حيث تمكن اكتافيوس من الانتصار على كليوباترا السابعة وانطونيوس في موقعة أكتيوم البحرية في نفس هذه السنة ومنذ ذلك التاريخ صارت مصر ولايه رومانية وانتهت دولة البطالمة في مصر.

كيفية خضوع مصر للامبراطورية الرومانية :

كانت في إيطاليا بلاد تعرف قديماً بإسم "لا سيوم" مؤلفة من ثلاثين مدينة مستقلة في إدارتها و شئونها الداخلية ، ولكنها متحدة مع بعضها في دفع الأعداء عنها ، وكانت أهم تلك المدن هي : روما التي أنشئت سنة ٧٥٣ ق.م وأشتق اسمها من اسم مشيدها "الأمير روميليوس" ، وكانت الحكومة الرومانية ملكية مطلقة ، تمكن ملوكها تدريجياً من إخضاع كل مدن "لاسيوم" وتوحيدها في دولة واحدة ما لبثت أن قويت وأزدهرت وتوسعت إلى أن تمكنت من حكم جزء كبير من العالم المعروف يومئذ لمدة حوالي سبعمائة سنة فيما يعرف بالأمبراطورية الرومانية .

وكانت مصر أخر أقطار المنطقة التي سقطت في أيدي الرومان ، وذلك عندما تمكن "أوكتافيوس" من الأنتصار على قوات البطالمة في موقعة "أكتيوم" في سبتمبر سنة ٣١ ق.م ثم دخوله مصر وإخضاعها للإمبراطورية الرومانية في أغسطس سنة ٣٠ ق.م .

وكان نفوذ روما قد بدأ يتغلغل في مصر منذ عصر بطليموس الخامس في القرن الثاني قبل الميلاد ، وزاد مع وفاة بطلميوس التاسع سنة ٨٠ ق.م, حيث كان الحكام البطالمة يلجأون إلى روما لتقوية مركزهم نتيجة للأضطرابات الداخلية وتنازعهم على الحكم ، حتى أصبح الملك البطلمي لا يستقر على عرشه دون رضاء روما عنه ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم في الأسكندرية.

وعندما ارتقت كليوباترا السابعة عرش مصر سنة ٥١ ق.م قام صراع بين دولة البطالمة والرومان ، حاولت فيه تلك الملكة أن تستميل قلب يوليوس قيصر ومن بعده أنطونيوس ، ولكنها أكتسبت كراهية الرومان ، فعقدوا العزم على التخلص منها ومن أنطونيوس ، إلى أن تمكن أوكتافيوس (الإمبراطور أغسطس فيما بعد) من ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م .

وكانت مصر تتمتع بموقع جغرافي هام ، وثروة طائلة ، وكانت أهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية تتمثل في عامل أقتصادي هو القمح المصري الذي كانت روما تعيش عليه منذ وقت طويل .

وعمل أغسطس بعد فتحه لمصر على إزاحة كل ما يمكن أن يعوقة في الحكم ، فقتل أنتيليوس ابن أنطونيوس كما قتل قيصرون ابن كليوباترا من قيصر ، أما الأبناء الثلاثة لكليوباترا من أنطونيوس فكانوا أصغر سناً فأودعهم عند الزوجة الرومانية لأنطونيوس ، وهي أخته أكتاف ، والتي كان أنطونيوس قد هجرها من أجل كليوباترا ، وقد مات الصبيان بعد حين بينما تزوجت الفتاة أحد أمراء الولايات الرومانة .

الحياة السياسية:

١- الحكم والأدارة:

باستيلاء أغسطس على مصر وقضائه على حكامها البطالمة يبدأ عهد جديد في البلاد ، تصبح بمقتضاه مصر ، ولأول مرة في تاريخها الطويل ، تابعة لإمبراطورية أخرى ، هي الأمبراطورية الرومانية ، ويختلف المؤرخون في الوضع القانوني لمصر داخل هذه الامبراطورية الرومانية ، فمصر بما كانت تتمتع به من تاريخ قديم ، وشأن متميز بين الأمم ، وموقع أستراتيجي ، وقوة ومنعة وثروة واسعة ، لا يمكن أن تصبح مجرد ولاية رومانية ، مثلها مثل باقي الولايات ، ودون الدخول في تفاصيل الجدل الفقهي الذي دار بين المؤرخين الأقدمين عن وضع مصر يمكن الجزم بأن مصر كانت لها وضعاً متميزاً وفريداً بين ولايات الإمبراطورية الرومانية الأخرى .

فقد وضع فيها أغسطس قوات رومانية لتأمين سلامتها ، ووضعها تحت إشرافه المباشر ، وفي سنة ٢٧ ق.م قسمت الولايات الأمبراطورية إلى ولايات خاضعة للسناتو ، وولايات خاضعة للإمبراطور ، وكانت مصر من الولايات الخاضعة للأمبراطور مباشرة ، أما حاكم مصر من قبل الرومان فلم يكن كغيرة من الحكام الذين كانوا يعدون نوابا للإمبراطور تحت اسم قائم مقام قنصل أو قائم مقام برايتور ، وانما كان لقب برايفكتوس أي وال أو حاكم عام واللقب الرسمي "حاكم عام الإسكندرية ومصر" كما وضع الإمبراطور قاعدة "ألا يزور مصر أحد من رجال السناتو أو من طبقة الفرسان إلا بإذن خاص منه".

وأصبح الأمبراطور الروماني هو الملك الرسمي للبلاد ، يتمثل في شخصه ما تمثل في شخص فرعون من قداسة وتأليه ، وكانت تخلع عليه الألقاب الفرعونية المألوفة.

وقد ترتب على ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية فقدانها لاستقلالها السياسي ، وأرتباط مصيرها بمصير الدولة الرومانية ، وذلك على خلاف ما كان عليه الحال في العصر البطلمي ، حيث كانت مصر دولة مستقلة تحكمها أسرة حاكمة من أصول مقدونية ، ولكنها تتشبة بفراعنة مصر الأقدمين في كل شئ .أما من وجهة النظر التاريخية فإن تاريخ مصر السياسي تحت حكم الرومان يختلف تمام الأختلاف عن تاريخها في العصر البطلمي ، فلم يعد لها سياسة مستقلة أو تاريخ مستقل .

وتمتد فترة الحكم الروماني لمصر حوالي ثلاثة قرون ، أبتداء من ضمها للأمبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور أغسطس سنة ٣٠ ق.م إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥ م) إلى غربية عاصمتها روما ، وشرقية وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينية فيما بعد) ووقوع مصر في نفوذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية .

وعلى أمتداد هذه القرون الثلاثة أعتمد الرومان في توطيد ســـلطانهم في مصرـــ على القوة ، فأقاموا الحاميات العسكرية في الأماكن الرئيسية التي تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد ، في الأسكندرية وفي بابليون وفي طيبة وفي أسـوان ، ولم يكتف الرومان بالقوة العسـكرية ، ولكنهم لجأوا إلى الأسـاليب السـياسـية بتأليب عناصر السـكان المختلفة من المصريين والرومان والأغريق واليهود على بعضهم ، ليضمنوا لأنفسهم إخضاع البلاد ، مما جعل الحياة السـياسـية في مصرـ خلال العصرـ الروماني تتميز بكثرة الفتن وشـيوع الأضـطرابات التي تباينت أسـبابها ، وأختلفت مظاهرها تبعاً للعهود.

بعد أن صـارت مصرـ بالفتح الروماني إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية ، كان الأمبراطور يختار لمصرـ الولاة لتدبير الأمور ، وكان الوالي يستعين في إدارة شئونها بعدد من كبار العاملين في الإدارة المركزية وفي الأقاليم ، ولم يترتب على دخول مصرـــ في الدولة الرومانية تغيرات هامة في إدارة البلاد ، لأن ســـياســـة روما بوجة عام في خلال فتوحاتها في الشرـق ، كانت تقضيـ بتجنب التدخل قدر الأمكان في نظم البلاد التي كانت فيها إدارة منظمة ، ولذلك فقد سارت الإدارة الرومانية على النظام الذي كان البطالمة قد وضعوه ، اللهم إلا بعد التعديلات ، وبعض التطور مع مرور الوقت .

٢ - السلطة المركزية:

ورث الرومان عن البطالمة جهازاً بيروقراطياً كبيراً ، إلا أن هذا الجهاز كان قد تفشى فيه الفساد والتسيب ، وهو ما يظهر في المصـــادر التي ترجع إلى أواخر حكم البطالمة ، وقد عمل الرومان على إصـــلاح الجهاز الإداري ، وإدخال تعديلات تلائم أهداف الحكم الجديد .

يأتي الوالي الروماني على قمة الإدارة العسكرية والمدنية ، ويستمد سلطاته من كونه ممثل الإمبراطور في الولاية ، وبالنسـبة لسـكان مصرـ كان الوالي في نظرهم يحتل مركز الملك ، وهي الحقيقة التي ذكرها بعض الكُتاب القدامى ، حيث ذكروا أن مصرـ في عصرـ الرومان حكمها رجال لهم منزلة الملوك ، وكان الوالي الروماني في مصرـ يسـلك مسـلك الملوك القدامى ، فلم يكن يبحر في النيل في زمن الفيضان ، وكان يذهب مع حاشيته إلى جنوب مصر ، حيث المكان الذي كان يُعتقد أن النيل ينبع منه ، ويقوم بإلقاء هدايا من الذهب والفضة ، طلباً للبركة وتعبيراً عن العرفان للنيل .

وبمقتضىـ السـلطة التي كان يتمتع بها الوالي الروماني ، فإنه كان يتولى قيادة القوات الرومانية ، التي تعسـكر في مصر ، وكانت الجماهير تصطف لتحيته كل صباح، ويتلقى الشكاوي والألتماسات ، ومن حقه إصدار الأحكام بالإعدام ومصادرة الممتلكات ، وكان يترأس أعلى محكمة في البلاد وهي محكمة الوالي.

ولم يكن من عادة الولاة تسـجيل إنجازاتهم في النقوش ، مع أسـتثناء ذلك التصرـف الذي أقدم عليه كورنيليوس جاللوس ، أول الولاة في عصر أغسطس ، والذي أستوجب تقديمه للمحاكمة ، وكان أسم الوالي عادة ما يُذكر مرتبطاً بأسم الإمبراطور.

وعندما كان الوالي يقوم بزيارة بعض المناطق في مصر ، كان يستقبل بحفاوة، ويجرى تزيين تماثيل الإلهة وتقام المهرجانات أحتفالاً بمقدمه ، والوالي هو ممثل الإمبراطور ، وكان الإمبراطور هو الملك الشرعي ، وفرعون مصر ، وقد رسم على المعابد كما كان البطالمة يمثلون من قبل ، في زي الفراعنة ، على رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى وأمامه أسمه محفوراً على خرطوشه بالهيروغليفية .

وكان الأباطرة يحرصون أشد الحرص ، ألا يتولى منصب والي أحد الأشخاص لفترة طويلة ، حتى لا يتحول إلى مركز قوة ، وكانوا يرسلون من يثقون فيهم من رجالهم لتولي هذا المنصب الحساس .

ومن المُلاحظ أن أهمية منصب والي مصر ، أخذت في الأنخفاض بعد أن قلت موارد مصر الأقتصادية ، ولم يعد ينظر إلى والي مصر بأعتباره متميزاً عن غيره من الولاة في الأمبراطورية ، وتوارى الخوف من إسناد هذا المنصب إلى رجل من طبقة السناتو .وعند تعيين وال جديد كان على الوالي أن يظل في مصر حتى دخول الوالي الجديد ، وفي حالة خلو المنصب لأسباب طارئة ، يتم أختيار واحد من كبار الموظفين في الولاية ، لتصريف الأمور لحين وصول الوالي الجديد من روما.

كان الوالي يترأس الجهاز الأداري في البلاد ، وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم ، وهي إقليم طيبة "مصر العليا" ، وإقليم المديريات السبعة وأرسينوي "مصر الوسطى" ، ثم أقليم الدلتا ، وعلى رأس كل إقليم من هذه الأقاليم موظف يدعى إبستراتيجوس ، وكان هذا الموظف يتم أختياره عن طريق الإمبراطور ، ولابد أن يكون مواطناً رومانياً .

وقد أنقسمت الأقاليم إلى وحدات أصغر هي المديريات ، وعلى رأس كل مديرية موظف حمل لقب الأستراتيجوس ، وكان الوالي هو الذي يعين الأستراتيجوس كما كان الوالي يقوم بتعيين مدير إدارة السجلات في المديرية والذي ظل يحمل اللقب القديم منذ عصر البطالمة ، وهو لقب الكاتب الملكي .

كان يوجد إلى جانب الوالي في الأ سكندرية مجموعة من المعاونين ، يختص كل واحد منهم بأحد القطاعات ، فكان من بينهم "اليوريديكوس" ، وكان يختار من الرومان المنتميين إلى طبقة الفر سان ، ومهام هذا الموظف تتضمن بعض أختصاصات وزير العدل ، وهناك موظف قضائي أخر يطلق عليه الأرخي ديكاستيس ، كما كان يوجد مساعد أخر للوالي مهمته الإشراف على حفظ الوثائق والسجلات ، ويدعى كاتب الوثائق ، وكان عليه أن يعد كافة الوثائق التي يحتاج إليها الوالي ، وكان مساعد الوالي في البداية في الشئون المالية ، يحمل اللقب البطلمي وهو الديويكتيس ، وفي منتصف القرن الثاني ألت السلطة التي كان يمارسها الوالي في النواحي المالية إلى إدارة جديدة هي إدارة الحساب الخاص ، الإديوس لوجوس .

كان الوالي يشرف إشرافاً كاملاً على الشئون الدينية ، وكانت موارد المعابد تخضع لرقابته ، ولكن لم يلبث الإشراف على المعابد أن أنتقل إلى موظف حمل لقب الكاهن الأعلى ، مع إنه لم يكن كاهناً ، بل موظفاً مدنياً روماني ، وأنتقل بعد ذلك إلى سلطة مدير الحساب الخاص "الإيديوس لوجوس". وقد أمتدت سلطة الوالي على الأفراد ، لكي تشمل

ضرورة الحصــول على موافقته عند مغادرة البلاد ، فقد كانت مداخل مصرـ ومخارجها تخضــع لرقابة شــديدة ، وكانت مسألة السفر أمرً مستحيلاً ، بدون الحصول على موافقة الوالي ، ومن سلطته أن يقوم بتوقيع العقوبة على من يغادرون البلاد دون إذنه .

كان الوالي يقوم بتصرــيف شــئون الولاية عن طريق المراســلات ، فكان يتلقى تقارير مفصــلة عن كافة مظاهر النشاط في أرجاء مصر ، فهناك تقارير عن الضرائب والتعداد وتسجيل الملكية ، وسجلات المواليد والوفيات ، وتقارير عن مصادر دخل الدولة ، كما كان يتلقى الألتماسات من الأهالي ويقوم بتحويلها إلى جهات الأختصاص.

وكان الوالي يصــدر المراســيم المختلفة ، وكانت اللغة التي تصــدر بها المراســيم هي اللغة الإغريقية ، وبعض تلك المرا سيم كانت تصدر بصفة روتينية ، مثل المرا سيم الخا صة بإجراء التعداد ، فكانت الإدارة الرومانية في مصر تقوم بأجراء تعداد للسكان كل أربعة عشر عاماً ، كما كانت هناك مراسيم تصدر في ظروف خاصة ، مثل المراسيم التي كان يتصدرها الولاة لحض الهاربين على العودة إلى مواطنهم ، وكانت هذه المرا سيم في العادة تحتوي على قرارات تقضي بالأعفاء عن الهاربين ، وتخفيف الآعباء المفروضة عليهم ، والتي كانت تؤدي إلى هروبهم .

وكان الأباطرة يستندون إلى تقارير الولاة ، في كل ما يصدرونه من قرارات تتعلق بالولايات ، وكان من حق الأهالي رفع شكواهم إلى الإمبراطور مباشرة.

حرص الرومان على الحصــول على أكبر قدر ممكن من دخل ولاية مصرـ ، لذلك كان الإشراف على الشــئون المالية من أهم واجبات الوالي ، ونظراً لأن مصرـ كانت تمثل أهمية قصــوى كمصــدر للغلال للإمبراطورية ، فإن الغلال التي كان يجرى شحنها إلى روما كانت في معظمها من الضرـائب المقررة على مصرـ ، وكان الإشراف على الضرـائب من أولى المهام التي أعطيت للوالي في مصر .

كان الوالى هو الذي يحدد مقدار الضرــيبة التي يتم جبايتها ، في ضــوء التقارير التي ترد إليه ، والوالي كان ينفق معظم وقته في مراجعة تقارير الضرائب في المديريات ، أما مقدار الضريبة الذي كان على الولاية أن تدفعة إلى روما ، فالإمبراطور هو الذي يحدده ، وذلك بناء على التقارير التي يتلقاها من الوالي.

وكان الوالي يتمتع بسلطة مطلقة في تقدير الضرائب داخل مصر ، ولكن يحد من هذه السلطة تدخل الإمبراطور ، الذي كان يعد الســلطة الوحيدة التي تملك الحق في تقرير الإعفاء الضرــيبي ، أما فيما يخص الخدمات الإلزامية فإن الوال لم يكن يتدخل في هذا المجال خلال القرنين الأول والثاني ، ولكن القرن الثالث شهد إشرافاً كاملاً للوالي على نظام الخدمات الإلزامية .

وكان الوالي يقوم بجولات تفقدية في أقاليم مصر ، بشكل دوري ، يعقد خلالها جلسات المحكمة التي كانت تُعد أعلى سلطة قضائية ، وهي محكمة الوالي ، وكانت تنعقد ثلاث مرات في العام ، مرة في بيلوزيوم للنظر في قضايا شرق الدلتا ، ومرة في الأســكندرية للنظر في قضــايا غرب الدلتا ، أما المرة الثالثة فكانت تنعقد في منف ، للنظر في قضــايا باقي الأقاليم ، ولم يكن هناك ما يمنع من قيامه بعقد هذه المحكمة بشكل أستثنائي في أماكن أخرى .

٣- الثورات :

لم يكد يمضي عام على الفتح الروماني حتى شبت ثورة في طيبة بسبب ضرائب جديدة كان الأمبراطور أغسطس قد فرضـــها قبل مغادرته لمصرــ عائداً إلى روما ، وأمتدت هذه الثورة إلى الدلتا ولكن الوالي الروماني تمكن من أخمادها بالعنف.

وفي عهد الأمبراطور الإمبراطور كاليجولا (٣٧ – ٤١ م) بدأت سـلسـلة من الفتن كان أسـاسـها الصـراع بين اليهود والإغريق تم إخمادها والقضاء عليها ، ولكنها تجددت في عهد نيرون (٥٤ – ٦٨ م) .

وقد حاول بعض الأباطرة الرومان ، ومنهم تيتوس (٧٩ – ٨١ م) وميتيانوس (٨١ – ٩٦ م) أن يكتسـبوا ود أهل مصر ، بإظهار الإجلال والإحترام للألهة المصرية، وفعلا نعمت مصر ببعض السكينة والهدوء في عهد الأمبراطور نيرفا (٩٦ – ٩٨ م) وأوئل عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧ م) ولكن ما لبثت نار الفتنة بين الاغريق واليهود أن ثارت مرة أخرى ، وتطورت الأمور بسرعة وأصبحت المواجهة بين اليهود من جهة والسلطة الرومانية نفسها من جهة أخرى ، فقد قام اليهود بثورتهم الكبرى سنة ١١٥ م ، التي ظلت نارها مشتعلة قرابة العامين قتل خلالها الكثير من الرومان والاغريق والمصريين ، وعمدوا إلى تدمير الطرق والمعابد والمباني وإلى تخريب الممتلكات والحقول ، وأنتهت الثورة مع بداية حكم الإمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨ م) الذي وجه عنايتة إلى إصلاح ما أتلفته تلك الثورة .

وسـاد مصرــ بعض الهدوء في عهود الأباطرة الرومان التاليين وهم : أنطونينوس بيوس (١٣٨ – ١٦١ م) وماركوس أوريليوس(١٦١ – ١٨٠ م) وكومودوس (١٨٠ – ١٩٢ م) وبرتيناكس (١٩٣ م) وسفروس (١٩٣ – ٢١١ م).

ويعتبر القرن الثالث الميلادي من الفترات الهامة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، لما تميز به من أنه فترة أنتقال من الحضـارة القديمة إلى حضـارة العصـور الوسـطى ، وما أحاط بذلك من تغييرات جوهرية من ظروف المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، ومن أبرز أحداث هذه الفترة : كثرة الأنقسامات السياسية ، والتنازع حول العرش ، وتدخل الجيش لتعيين أو عزل أو قتل الأباطرة ، وكان للمصرـيين نصـيب من هذه الأحداث وكان موقفهم بصـفة عامة هو مناصرة كل دعي للعرش أو ثائر على السـلطة المركزية في روما ، وذلك لاظهار كراهيتهم الشديدة للحكم الروماني .

وتعتبر الفترة التاريخية الممتدة من عهد الإمبراطور كراكلا (٢١١ – ٢١٧ م) إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥ م) من الفترات العصيبة التي كثرت فيها المحن والمؤامرات والأنقسامات السياسية والحروب الأهلية في معظم أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وبالطبع لم تشذ مصر عن غيرها من الولايات فقد كان لها نصيبها من هذه الأحداث .

وفي منتصف القرن الثالث لاحظ الإمبراطور ديقيوس (٢٤٩ – ٢٥١ م) أن المسيحية قد زاد أنتشارها وبدأ أنصارها يظهرون كقوة لها حسابها في الحياة العامة فقرر القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاءً مبرماً في أنحاء الأمبراطورية وشهدت مصر أضطهادا للمسيحيين بالتعذيب والصلب والقتل حتى لم ينج منهم إلا من فر إلى الصحاري أو ألتجأ إلى المقابر والكهوف .

وكانت الفترة التي أعقبت عهد هذا الإمبراطور من (٢٥٢ – ٢٦٨ م) فترة تطاحن بين أدعياء العرش في روما ، بينما ساد بعض الهدوء في مصر مما سهل للملكة زنوبيا ملكة تدمر "بالميرا" الاستيلاء على مصر (٢٦٩ م) لمدة عامين فقط ثم نجح الأمبراطور أوريليانوس (٢٧٠ – ٢٧٥ م) في القضاء على نفوذ تدمر في مصر، بل وإستولى على تدمر نفسها .وغادر الإمبراطور أوريليانوس مصر وعهد بها إلى أحد قواده ، وهو بروبوس، لإخضاع قبائل البلميس ، الذين كانوا قد توغلوا في جنول مصر ، وظل بروبوس والياً على مصر قرابة الخمس شنوات ثم نادى به الجيش المصري أمبراطوراً على روما (٢٧٦ – ٢٨٢ م) ولكنه قتل بواسطة جنود الجيش الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة التاليين له ، خلال عامين إلى أن تمكن من الأمر الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥ م) .

ورغم أن عصر الإمبراطور دقلديانوس يدرسه بعض المؤرخين على أنه واقع في حقبة الحكم البيزنطي لمصر ، إلا أغلب الأراء على أن هذا العصر هو نقطة التحول بالأمبراطورية الرومانية ، لأنه هو الذي أدخل إصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة ، من أهمها أنه رأى أن يتولى الحكم أثنان من الأباطرة في نفس الوقت ، أحداهما للشرق والأخر للغرب ، وحدث في عهده أن خرج عن طاعته واليه في الإسكندرية ، فسار إليها وحاصرها ثمانية أشهر ، ثم فتحها عنوة ، وأطلق جنوده فيها ينهبون ويقتلون ويحرقون .

ومن محاولات دقلديانوس في إعادة تنظيم الإمبراطورية أنه رأى في القضاء على المسيحية نجاة من الاختلافات والأنقسامات في الرأي ، فأعتبر المسيحية في عصرها الأول حركة مناهضة للنظام الإمبراطوري المتوارث وبدأ تنفيذ فكرته هذه بوسائل سلمية ، ولكنه لم ينجح فلجأ إلى الاضطهاد ، وهو أقسى أضطهاد عرفه المسيحيون في سنة ٣٠٣ م ، وأقام المذابح للمسيحيين وأحرق الكتب المقدسة ودمر الكنائس وصار هذا التاريخ يؤرخ به عند مسيحي مصر ، وهو تاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية ، وأستمر أضطهاد المسيحيين على أيدي أباطرة الرومان بعد دقلديانوس حتى سنة ٣٢٣ م عندما تولى الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣ – ٣٣٧ م) وأصبح أول أمبراطور مسيحي للأمبراطورية الرومانية وأعترف رسمياً بالديانة المسيحية ، وبتولي هذا الإمبراطور أمور الإمبراطورية الرومانية الشرقية حسب تقسيم دقلديانوس يبدأ في مصر عهد جديد هو العهد البيزنطي .

الأمبراطور :

كان الأمبراطور الروماني يعد بالنسبة لمصر الملك الشرعي للبلاد ووريث الفرعون ، وأصبحت صورته تظهر على المعابد في زي الفراعنة ، مثلما كان يفعل البطالمة ، وعلى رأسه التاج المزدوج للوجهين القبلي والبحري ، وأسمه محفور داخل خرطوش بالهيروغليفية ، لكن الأمبراطور لم يكن يدير شئون مصر بنفسه وإنما كان يعهد بإدارتها إلى موظف يختاره كان يسمى والي مصر أو الوالي .

الوالي :

وكان والي مصر يحمل لقبا لم يحمل مثله حاكم أية ولاية أخرى وهو "برايفكتوس" أي (وال) أو حاكم عام ، وكان ذلك بقصد تمييز مصر عن غيرها من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، فكان والي مصر يعد أهم وال من طبقة الفرسان في الإمبراطورية كلها .

ويعتبر والي مصر هو نائب الإمبراطور ، وهو الحاكم الفعلي للبلاد ، وكان يستمد سلطانه من الإمبراطور ، حيث كان يخضع له خضوعاً تاماً فيما يتعلق بتعيينه وعزله ، وكان الوالي يقيم في العاصمة الإسكندرية .

والوالي هو الرئيس الأعلى للإدارة والعدالة والجيش والشئون المالية ، ورغم أن لقبه الرسمي كان وال أو حاكم ، إلا أنه كان يمارس السلطات التي مارسها قبله ملوك البطالمة ، وكانت سلطاته مطلقة وغير مقيدة .

ومن اختصاصاته كرئيس أعلى للإدارة المدنية أنه كان يتولى تعيين كبار الموظفين الذين يستعين بهم في إدارة شئون البلاد ، وإن كان الإمبراطور يتدخل أحيانا لتعيين بعض كبار الموظفين كمعاونين للوالي ومراقبين له في ذات الوقت ، وكانت اختصاصاته على النواحي المالية للبلاد هي أبرز مهامه ، فعليه جباية الضرائب التي يحددها له الإمبراطور وتقلها إلى روما ، وهو الذي يشرف على كيفية إنفاق الدخل المخصص لمصر .

ومن اختصاصاته العسكرية أنه يعتبر قائد الجيش الروماني في مصر ، وكان في بادئ الأمر يقود الجيش بنفسه ، ويشرف على نظام التجنيد ، والنظر في مسائل الأحوال الشخصية الخاصة بالجنود .

أما اختصاصه القضائي فيتمثل في أنه كان يعتبر القاضي الأول للولاية ، وأحكامه نهائية ، وله الحق في النظر في القضايا المدنية ، بل وفي بعض الأحيان في المسائل الجنائية ، وفي بعض الأحيان يفصل الوالي بنفسه في القضايا التي ترفع إليه ، ومستعيناً بمجلس قضائي ، أو يفوض بعض معاونية من رجال الإدارة للفصل فيه .

ظلت مصر في الفترة التي ما بين سنة(٣١ ق. م) و سنة (٣٩٥ م)تابعه للدولة الرومانية واعتمدت روما في توطيد سلطانها على مصر بالقوة العسكرية والتي أقامت لهم الثكنات في أنحاء البلاد فكان هناك حامية شرق الإسكندرية وحامية بابليون وحامية أسوان وغيرها من الحاميات التي انتشرت في أرجاء البلاد.

وكان يتولى حكم مصر وال يبعثه الإمبراطور نيابة عنه ومقره الإسكندرية يهيمن على إدارة البلاد و شئونها المالية وهو مسئول أمام الإمبراطور مباشرة وكانت مدة ولايته قصيرة حتى لا يستقل بها ،وهذا ما جعل الولاة لا يهتمون بمصالح البلاد بل صبوا اهتماماتهم على مصالحهم الشخصية وحرموا المصريين من الاشتراك في إدارة بلادهم مما جعلهم كالغرباء فيها ،بالإضافة إلى منعهم من الانضمام للجيش حتى لا يدفعهم ذلك إلى جمع صفوفهم ومقاومة الرومان في المستقبل.

وأمام هذه السياسة الجائرة فقد رأى المصريون أن الرومان مغتصب آخر أخذ الحكم من مغتصب أول وهم البطالسة ،فلم يتغير من الوضع شيء بل أزداد الأمر سوؤ كما كان يحدث عادة عند انتقال الحكم من أسرة فرعونية إلى أخرى فرعونية.

وقد رضخ المصريون لهذا الحكم فترة وثاروا في فترات وكانت الحاميات الرومانية تقضي على هذه الثورات بكل عنف ومن أخطر هذه الثورات ما حدث في عهد الإمبراطور (ماركوس أورليوس) :(١٦١-١٨٠ م) وعرف بحرب الزرع أو الحرب البكوليه - نسبة إلى منطقه في شمال الدلتا - وتمكن المصريون من هزيمة الفرق الرومانية وكادت الإسكندرية أن تقع في قبضة الثوار لولا وصول إمدادات للرومان من سوريا قضت على هذه الثورة.

ولاة مصر في عهد الرومان :

أول حاكم لإجيبتوس, گايوس كورنليوس گالوس, وضع الصعيد تحت السيطرة الرومانية بقوة السلاح, وأسس محمية في منطقة الحدود الجنوبية, والتي كانت قد هجرها البطالمة المتأخرين. الحاكم الثالث, گايوس پترونيوس, طهر قنوات الري المهمَلة, مما أنعش الزراعة. ومن عهد نيرون, شهدت مصر عصراً من الازدهار دام قرناً.

معظم المشاكل كان سببها صراعات دينية بين المسيحيين واليهود, خصوصاً في الإسكندرية, التي أصبحت بعد تدمير القدس المركز العالمي للديانة والثقافة اليهوديتين. وتحت تراجان حدث تمرد يهودي, نتج عنه قمع اليهود في الإسكندرية وفقدان كل امتيازاتهم, إلا أنهم سرعان ما استعادوها .

وبدءاً من عهد أنتينوؤپوليس أصبحت المباني تُشيَد على الطراز اليوناني الروماني في جميع أنحاء مصر. وبالرغم من ذلك، ففي عهد ماركوس أورليوس, أدت الضرائب المرهقة إلى عصيان عام ١٣٩, من المواطنين المصريين, والذي لم يتم إخضاعه إلا بعد عدة سنين من القتال. هذه الحرب الريفية أحدثت ضرراً هائلاً بالاقتصاد وسجلت بداية الهبوط الاقتصادي لمصر.

أڤيدوس كاسيوس, الذي قاد القوات الرومانية في الحرب, أعلن نفسه إمبراطوراً, وقد اعترفت به جيوش سوريا وإجيپتوس. إلا أنه، لدى اقتراب ماركوس أورليوس, فقد أُزيح عن الحكم وقُتِل ورأفة الإمبراطور هي التي استعادت السلم.

وقد اندلع عصيان مماثل في ١٩٣م, عندما أعلن پسكنيوس نيگر نفسه امبراطوراً عند وفاة پرتيناكس. وقد أعطى الامبراطور سپتيميوس سويرس دستوراً للإسكندرية والعواصم الإقليمية في ٢٠٢م. نشبت سلسلة من العصيانات, عسكرية ومدنية, طوال القرن الثالث. وفي عهد دقيوس, في ٢٥٠م, عانى المسيحيون مرة أخرى من الاضطهاد, إلا أن ديانتهم استحرت في الانتشار. نجحت مصر تحت السيطرة الرومانية في الإبقاء على معظم نظام الحكم الذي كان يوجد تحت البطالمة. وقد قدم الرومان تغييرات هامة في النظام الإداري, موجهة إلى تحقيق مستوً عالٍ من الكفاءة ولتعظيم الدخل. واجبات حام مصر جمعت مسئوليات عن الأمن العسكري من خلال قيادة الفيالق وcohorts، ولتنظيم المالية والضرائب, ولإدارة العدل.

مطلع العهد الروماني بمصر بعد مقتل يوليوس قيصر دارت في روما حرب أهلية طاحنته انتهت بانتصار اوكتافيوس وانطونيوس على أعدائهم وسيطرتهم علي الامبراطورية الرومانية. ثم قاموا بتقسيم الامبراطورية الي قسمين القسم الغربي ويحكمه اكتافيوس والقسم الشرقي ويحكمه ماركوس انطونيوس.

وعندما ذهب انطيوس الي القسم الشرقي فتن بجمال كليوباترا السابعة حاكمه مصر، فأصبح طوع بنانها، وفي عام ٣٧ ق. م تزوج كليوباترا من انطونيوس في الوقت الذي كان لا يزال متزوجاً من اوكتافيا شقيقة اوكتافيوس مما أدي الي تأزم العلاقة بينهما، لدرجة ان انطونيوس أعلن طبلاقه من زوجته اوكتافيا شقيقة اوكتافيوس، وقام بتقسيم الاجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية علي كليوباترا وأبنها قيصرون وأبنائه منها.

وقد استغل اوكاتفيوس بعض الأخطاء التي وقع فيها انطونيوس في الشرق لشن حملة سياسية شعواء ضده والتنديد بعلاقته بالملكة المصرية وبحكم وجود أوكتافيوس في روما أستطاع ان يثير الرأي العام الروماني ضد أنطونيوس والملكة المصرية، حيث صور موقفه علي أنه قد حول الولايات الشرقية كلها الي مملكة من الطراز الشرقي يجلس هو وكليوباتر علي عرشها ويرثها ابنائهم وهو ما يعني خيانة الشعب الروماني.

ولما كان أوكتافيوس يدرك أن لأنطونيوس أنصاراً بين الرومان، فأنه لم يعلن الخرب علي انطونيوس حتي لا تبدو حرباً أهليه بين زعيمي روما من أجل التنافس علي السلطة وأنما اعلن الحرب علي كليوباترا بأعتبارها عدوة للشعب الروماني حتي يضفي عليها صفه الحرب القومية ضد الخطر الأجنبي القادم من الرشق، ويظهر انطونيوس بمظهر الخائن لبلاده.

وهكذا وقعت معركة اكتيوم البحرية وانتصر اوكتافيوس علي انطونيوس وانتحر انطونيوس بعد أن أشاعت كليوباتر أنها ماتت فأنتحر انطونيوس بعد أن اوصدت جميع الأبواب في وجهه. وأما كليوباترا عندما أيقنت أنه لم يبق إلا أن تحمل ذليلة الي روما لتعرض عبر شوارعها في مهرجان نصر اوكتافيوس، لذلك قامت بالأنتحار بواسطة حية الكوبرا، رمز الخلود عند المصريين، وهي ميته ترفعها الي مصاف الالهات.

وفي نهاية شهر أغسطس سنه ٣٠ ق. م اعلن اوكتافيوس ضم مصر الي ممتلكات الشعب الروماني.

وفي ظل الحكم الروماني لمصر شعر المصريين بأضصطهاد كبير لهم نتيجة :

١ - ألغاء مجلس المدينة الذي كان يعقد اثناء فترة الحكم البطلمية لمصر.

٢ - الضرائب الباهضة التي تفرض علي المصريين.

٣ - عدم مشاركة المصريين في الحكم.

٤ - الاستغلال الاقتصادي لثروات مصر، فقد كان أصبحت مصر مزرعة للقمح لتزويد روما وتوزيعها على سكانها لكسب تأييدهم.

ومع مرور الوقت ازادات سوء معاملة الرومان للمصرين مما دفعهم للثورات :

ثورة الفلاحين في عهد ماركوس أورينيوس " ثورة الرعاة والفلاحين القرن ٢ الميلادي " : في عام ١٧٣ قام الفلاحون المصريون في شمال الدلتا بثورة عنيفة اتخذت شكل حرب العصابات وعرفت في المصادر الرومانية باسم ثورة "الرعاة Bucolic".

فكانت أول ثورة عنيفة للمصريين نسمع عنها منذ ثورات إقليم طيبة في مطلع العصر الروماني. وهي الثورات التي أخضعها أولاً الولاة الرومان على مصر وهو كورنيليوس جالوس. وقد تزعم ثورة الفلاحين أحد الكهنة فيما يبدو واسمه "إيزودور" ويعني ذلك أن الكهنة المصريين كانوا لا يزالون حتى ذلك الوقت يشكلون القيادات الوطنية. والحقيقة هي أن أحوال الفلاحين المصريين كانت تزداد سواءاً على مر الأيام حتى بلغت منذ منتصف القرن الثاني الميلادي حداً لا يحتمل تحت وطأة نظام ضرائب، وخدمات إلزامية Leitourgiae لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً متكافئاً مع القدرة المالية بين الأغنياء والفقراء وأعمال سخرة أكره عليها الفلاحون وشملت أشخاصهم ودوابهم.

وفضلاً ذلك فقد ترتب على ثورة اليهود المدمرة في عهد تراجان تخريب الأراضي الزراعية وإهمال نظام الري، فساءت أحوال الزراعة وهجر الفلاحون أراضيهم عندما رأوا ألا جدوى من فلاحتها وإحيائها ما دام لا يبقى لهم من ثمرة جهدهم فيها إلا النزر اليسير. ومما يدل على سوء الأحوال نفشي ظاهرة قرار المزارعين من الأرض وهجر الأهالي للمواطن (محل الإقامة Idia)، وهو ما عرف في لغة الوثائق "بالتسحّب " Anachoresis، إما للعجز عن أداء الضرائب أو قرار من خدمة إلزامية، فكان "المتسحب" يلجأ إلى المدن الكبيرة وخاصة الإسكندرية على أمل أن يجد فيها عملاً يرتزق منه، أو يتوارى على الأقل عن أعين السلطات التي كانت تجد في طلبه لإعادته إلى موطنه Idia، فإن لم يجد المتسحب إلى ذلك سبيلاً لاذ بأحراش الدلتا وربما التحق بعصابات قطاع الطرق.

هكذا بدأ الرومان يحصدون الثمار المرة لسياستهم الاقتصادية الخرفاء في ابتزاز ثروة مصر وامتصاص الطاقة الإنتاجية لأراضيها وأهليها. ويبدو أن المصريين انتهزوا فرصة سحب بعض القوات من مصر للمشاركة في الحروب التي خاضتها الإمبراطورية ضد قبائل الجرمان في منطقة الدانوب، فثاروا ثورتهم تلك التي بلغ عن عنفها أن عجزت القوات الرومانية عن مواجهتها، بل كادت مدينة الإسكندرية أن تسقط في يد الثوار. ولم يتدرك الأمر سوى وصول نجدة من سوريا تحت إمرة فيديوس كاسيوس قائد القوات هناك، وقد لجأ هذا إلى أسلوب المكيدة والخداع مع الثوار لكي يوقع بينهم، وعندما نجح في استمالة بعضهم، تحول الباقون إلى شراذم فتمكن من تعقبهم حتى قضى عليهم، ثم عاد إلى سوريا منتصرًا بعد أن ترك فيها نائبًا عنه.

ومع أحقاد الإسكندريين في عهد الإمبراطور كومودوس كان ماركوس أورليوس أخر حلقة في سلسلة الأباطرة "الصالحين" لأن ابنه وخليفته كومودوس (١٧٦-١٩٢) كان على النقيض من أبيه تمامًا. فقد اتبع في سياسة الحكم أ ساليب بالغة العنف، وا ستبدت به شهوة الانتقام فتعقب أفراد أسرة أفيديوس كا سيوس حتى ا ستأ صل شأفتهم، ومضى في محاكمة زعماء الإسكندريين وأعدم الكثير منهم.

وقد بينت تلك البردية التي ذكرناها منذ قليل (وتعرف باسم أعمال أبيانوس Acta Appiana) أن صراع الإسكندريين مع الأباطرة الرومان أصبح سافراً. فالبردية تضم أجزاء من محاضر محاكمة أبيانوس أحد زعماء الإسكندريين الذين تم إعدامهم على يد كومودوس، وهي تتصنح بالكراهية والحقد على الرومان وتتهمهم بممارسة أسوأ أنواع الابتزاز وهو أخذ القمح من مصر وبيعه في الخارج بأربعة أضعاف ثمنه. وقد ازدادت أحوال مصر سوءاً في عهد كومودوس بحيث لم تعد تبعث على اطمئنان روما إلى ولاية مصر، ولعل من الأمور ذات الدلالة في هذا الصدد ما قام به كومودوس من بناء أسطول جديد لنقل القمح من شمال إفريقيا إلى روما لمواجهة الموقف إذا ما تأخر وصول القمح من مصر.

ومع الفتح الإسلامي لمصر عام ٦٤١ م رحب المصريون بالمسلمين الذين خلصوهم من ظلم الرومان طيلة عقود طويلة من القهر والظلم. وذلك مثلما ذكر بعض المؤرخين أن من أبرز أسباب نجاح الجيوش الإسلامية في هزيمة البيزنطيين هو استقبال المصريين المسيحيين للعرب على انهم منقذين لهم من تعذيب الرومان. ومن مؤيدي هذا الرأي المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون في كتابه "تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية" سنة ١٧٨٢.

وتختلف الرويات الإسلامية والقبطية في سرد حوادث الفتح وتجتمع على أن الرومان عذبوا المصريين أثناء حكمهم وجعلوا مصر ضيعة للإمبراطور الروماني وعرفت بمخزن غلال روما وكان اختلاف عقيدة المصريين عن حكامهم سببا في اضطهادهم من قبل الرومان مرتين مرة لاختلاف الدين فالدولة الرومانية كانت وثنية والمصريين مسيحيين ولما اعترفت الدولة الرومانية بالمسيحية أعتنقوا مذهبا مغايرا للمذهب الذي عليه المصريين.

إصلاحات مطلع القرن الرابع إصلاحات مطلع القرن الرابع أسست قاعدة للازدهار النسبي في مصر لمدة ٢٥٠ عاماً, على حساب ربما المزيد من الجمود وتحكم الدولة الجائر. تم تقسيم مصر لأغراض إدارية إلى عدد من المقاطعات الأصغر, وتم فصل المسئولين المدنيين عن العسكريين; البرائس praeses والدكس dux. وبحلول منتصف القرن السادس فقد وجد الامبراطور جستنيان نفسه مضطراً للاعتراف بفشل هذه السياسة وليعيد جمع السلطتين المدنية والعسكرية في أيدي الدكس مع نائب مدني له (البرائسات) كوزن مضاد لسلطة الكنيسة. وعندئذ، اختفت كل إدعاءات الحكم الذاتي. وجود الجنود كان ملحوظاً بدرجة أكبر, قوة الجيش وتأثيره تخلل كافة مناحي الحياة في المدينة والقرية على حد السواء.

الحياة الاقتصادية:

الاقتصاد :

كانت مصر بالنسبة إلى روما البقرة الحلوب إذ كانت نظم الإدارة تستغل الثروات وتبتز أموال المصريين تجارا ومزارعين وصناعا حتى هجر عدد كبير من المصريين متاجرهم ومزارعهم ومصانعهم مما أدى إلى كساد التجارة وتأخر الزراعة وتقهقر الصناعة، وقلت الموارد، وضعف الإنتاج، وأهمل نظام الرى وفقد الامن وكثر السلب والنهب، وفر المصريين من

قسوة الحكم وفساده، وجشعه، فقد فرضت ضرائب عديدة لا حصر لها فهناك ضريبة سنوية تجبى على الحيوان وعلى الأرض الصالحة للزراعه، وعلى الحدائق، وضريبه شهريه تجبى من التجار على اختلاف متاجرهم وكذلك على التجارة المارة من النيل.

وكان صاحب المصنع ملزما بدفع ضريبه قبل خروج البضاعة من مصنعه ،وضريبة التاج التي كان المصريون يكرهون عليها لتقديم الأموال هدية لشراء تاج الإمبراطور عند ارتقائه العرش أو عند الشروع في بناء معبد أو تمثال للإمبراطور، وضريبة على السفن والعربات وبيع الأراضي، وعلى الحمامات العامة والأسواق، وأثاث المنازل، ومن لم يقم بدفع هذه الضرائب فإنه يعمل في السخريه في حفر الترع وتطهيرها. وعلاوة على ذلك كان على المصريين تزويد الجنود الرومان بالقمح والشعير لغذائهم وعلف دوابهم عند مرورهم بقرى مصر. وقد أثقل الرومان على المصريين بالضرائب الباهظة المتعددة التي شملت كل شيء والتي جعلت الحياة جحيما لا يطاق، مما أدى إلى فرار كثير من الزراع عن مواطنهم، وترك أرضهم بدون زراعه، فارتفعت الأسعار، وتدهورت الزراعة، فالصناعة واكمشت التجارة.

النشاط الأقتصادي:

بذل الرومان جهوداً كبيرة في سبيل إنعاش البلاد أقتصادياً خاصة وأن جزءاً كبيراً من فوائد أزدهار الحياة الأقتصادية في مصر كان يذهب إلى روما ذاتها ، سواء عن طريق الضرائب ، أو عن طريق أرباح المستثمرين الرومان ، لذلك فقد شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعي ، كما شجعت سياسة الأقتصاد الحر في الصناعة والتجارة ، أما المناجم والمحاجر فقد ظلت مُحتكرة بواسطة الدولة ، وأزدهرت صناعات النسيج وورق البردي والطوب والجهة .

وقد شجع الأزدهار الأقتصادي عدة عوامل منها سياسة الرومان والسلام الذي ساد لمدة قرنين من الزمان ، بالأضافة إلى موقع مصر المتوسط بين الولايات الرومانية ، وموقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وعادت الإسكندرية لتصبح أكبر مركز للصناعة والتجارة في الأمبراطورية الرومانية كلها ، كما وجدت صناعات أخرى للأستهلاك المحلي بجانب الصناعات التصديرية ، مثل صناعات الأخشاب والمطاحن والزيوت والخمور والمعادن .

النُظُم المالية والأقتصادية:

كانت الغنائم التي أستولى عليها أغسطس من مصر ، بعد أن هزم أنطونيوس وكليوباترا ، كبيرة لدرجة جعلته قادراً على تلبية مطالب جنوده ، وأدت كذلك إلى زيادة ثروته الشخصية هو و أتباعه ، وقد أدى تدفق ثروات مصر على روما إلى أرتفاع الأسعار .

قامت سياسة الرومان المالية والأقتصادية في مصر على مبدأ أساسي ، وهو الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل هذه الولاية ، وقد تطلب تحقيق هذا المبدأ القيام بجهود شاقة ، من أجل إصلاح مرافق البلاد التي لحقها التدهور في السنوات الأخيرة من حكم البطالمة ، فقامت الإدارة الرومانية بإجراء إصلاحات شاملة لشبكة الري ، وعملت على تطهير القنوات والترع والمصارف ، وأعادة بناء الجسور التي تهدمت ، وقد أدت هذه الجهود إلى إنعاش الأقتصاد المصري ، وكان من شأن ذلك مساعدة الإدارة لرومانية في الحصول على مستحقاتها لدى الأفراد ، وهو أمر لا يتحقق إلا من خلال نظام دقيق لجباية الضرائب .

الضرائب :

قام نظام الضرائب في مصر في عصر الرومان على قواعد مُحكمة ، تستطيع الدولة بمقتضاها أن تحصل على مستحقاتها لدى الأفراد ، وكانت هذه المستحقات تشتمل على ضرائب ورسوم مختلفة ، عن الممتلكات والأفراد ، والنشاط المالي والتجاري ، وإلى جانب الضرائب الثابتة كانت هناك ضرائب أستثنائية ، ترتبط بظروف خاصة .

كانت هناك بعض الضرائب التي تجبى نقداً ، البعض الأخر يجبى عيناً ، وفيما يتعلق بألتزامات مصر العينية تجاه الإمبراطورية الرومانية ، فكانت مصر تمد روما بثلث أحتياجاتها السنوية من الغلال ، كما كان يتحتم عليها إطعام جيش الأحتلال الروماني المرابط على أراضيها ، وللوفاء بذلك كان المزارع أن يدفع أردباً عن كل أروة ، كضريبة نوعية عن الأرض التي تزرع حبوباً ، ولكن في بعض الأحيان كان المزارع يدفع أكثر من هذا القدر ، في حالة الأراضي التي تزرع حبوباً ، ولكن في بعض الأحيان كان المزارع يدفع أكثر من هذا القدر ، في حالة الأراضي العالية الخصوبة ، والتي كانت تغل مقداراً أكبر من المحصول .

كانت الأدارة تحرص على عدم بقاء أي قطعة أرض دون زراعة ، لأن بقاءها على هذا النحو يعني عدم جباية ضرائب عنها ، لذلك فإن الأراضي التي لم يكن يتقدم أحد لأستئجارها ، أو التي يهرب مزارعوها ، كانت الدولة تلزم سكان القرية بزراعتها، على أن يسددوا الضرائب المستحقة عليها إجبارياً ، بشكل تضامني .

كان على المزارع بعد حصاد المحصول ، أن يقوم بتسليم ما عليه من مستحقات للدولة إلى أمناء مخازن الغلال ، الذين كانوا يكلفون بالقيام بهذا العمل بصورة إلزامية ، ولم يكونوا يتقاضون أجراً مقابل قيامهم بهذا العمل ، وكان على أمناء مخازن الغلال ومساعديهم ، أن يشرفوا على تسليم الغلال إلى معسكرات الجيش، أو إلى المخزن العام بالقرب من الأسكندرية ، وكانت هناك ضرائب مقررة على المحاصيل الأخرى مثل الكروم والفاكهة والنخيل والزيتون ، وفيما عدا الكميات التي كان يتم تسليمها إلى معسكرات الجيش ، كان يتم تحصيل مقدار هذه الضرائب نقداً .

ولم تكن الحيوانات التي يملكها المزارع تسلم من تحصيل ضرائب عنها ، لذلك كان ينبغي على المزارع أن يقدم تقريراً سنوياً عن عدد الحيوانات التي بحوزته ، حتى يتأكد جباة الضرائب من عدد الحيوانات التي تولد في كل عام ، ويتمكنوا من تحصيل الضرائب المستحقة عليها .

وإلى جانب الضرائب التي تجبى في مجال الزراعة والثروة الحيوانية ، كانت هناك ضرائب تجبى على الأفراد ، لعل أشهرها ضريبة الرأس ، وكان يجب على جميع سكان مصر من الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين أن يؤدوها ، إلا أن بعض الفئات كانت تتمتع بحق الإعفاء من أداء هذه الضريبة ، مثل الذين يتمتعون بالمواطنة الرومانية ، ومواطنوا مدينة الأسكندرية ، وأعضاء المعهد العلمي بالأسكندرية ، وخريجي معاهد الجمنازيوم ، وعدد من الكهنة من ذوي المكانة الخاصة ، وبعض أصحاب المهن ، أما سكان عواصم المديريات ، فإنهم كانوا يؤدونها بقيمة مخفضة .

وقد وجدت ضريبة أخرى يدفعها الأفراد ، وهي ضريبة الجسور ، وكان مقدارها واحداً في جميع أرجاء البلاد ، وكان الهدف من جبايتها ، الأنفاق على صيانة الجسور وتنظيم عمليات الري ، وهناك ضريبة أخرى مقدارها درخمتان لكل فرد ، وهي ضريبة الخنازير ، كان الغرض من تحصيلها إمداد المعابد الأغريقية بالحيوانات اللازمة للأضاحي .

فرضت الإدارة الرومانية ضرائب على أصحاب الحرف ، وكان ينبغي على كل فرد أن يؤدي ضريبة الحرف ، سواء أكان رجلاً أو أمرأة ، طالما إنه يؤدي عملاً يتقاضى في مقابله أجراً ، وكان على الصبية اللذين كانوا ما يزالون في مرحلة التدريب ، أن يدفعوا هذه الضريبة ، إذا بلغ الواحد منهم الرابعة عشرة من العمر ، وكان يتم تحصيل هذه الضريبة من أصحاب كل حرفه على حدة ، وقد أختلف مقدارها من فترة لأخرى ، وتراوحت قيمتها من منطقة لأخرى ، وكان على صاحب العمل أن يقوم بإبلاغ السلطات ، عند أنتهاء أحد الصبية من مرحلة التدريب ، وتقلد هذا الصبي العمل ، حتى يتم إدراج أسمه في قوائم الضريبة التي يدفعها العاملون ، وكان على العامل أن يبلغ السلطات في حالة أنتقاله لممارسة عمل أخر ، سواء أكان هذا الأنتقال بصفة دائمة أو مؤقتة .

أما الأشخاص الذين كانت طبيعة عملهم تتطلب التنقل من مكان إلى أخر ، فكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على تصريح من جابي الضريبة في موطنهم ، يسمح لهم بالتواجد في أماكن أخرى .

وقد فرضت الإدارة الرومانية ضريبة إضافية على الأهالي ، لتعويض النقص الناجم عن وجود بعض الأشخاص الذين يعجزون عن دفع الضريبة لكونهم معدمين ، أو بسبب هروب البعض الأخر ، دون أن يتركوا وراءهم ممتلكات يمكن للدولة مصادرتها ، حتى تتمكن من تحصيل مستحقاتها لدى الهارب وكان مقدار العجز الذي يترتب على وجود مثل هذه الحالات ، يجري توزيعه على باقي سكان القرية ، ويختلف هذا المقدار حسب أعداد الهاربين .

وقد خضعت الأنشطة المالية والتجارية للضرائب ، وكان يتم فرض رسوم عند تسجيل الوثائق في دار السجلات ، وهناك ضرائب كان يتم تحصيلها عن عمليات البيع بواقع ١٠% ، وعن الرهن بنسبة ٢% ، وحتى الحيوانات التي كان الأهالي يقدمونها قرباناً للألهة ، لم تكن تسلم من تدخل الدولة التي كانت تحصل على نسبة منها .

وقد فرضت ضرائب كان الهدف منها إمداد جيش الأحتلال الروماني المرابط في مصر ، بحاجته من الغذاء والوقود والعلف وملابس الجنود ، ولم يكن مقدار هذه الضرائب محدداً ، بل كان الأمر يترك لرجال الجيش لتقدير مدى حاجتهم ، وغالبية الأحيان كانت المعسكرات تشتط في مطالبها .

ولم يقتصر الأمر على إمداد جيش الأحتلال الروماني في مصر بحاجته ، بل كان على دافعي الضرائب في مصر ، أن يقدموا ما يطلب منهم لمساعدة جيش الإمبراطورية في الحروب التي كان يخوضها ، وكان على الأهالي أن يقدموا بتمويل الزيارات التي كان يقوم بها كبار الزوار الرومان لمصر ، بما في ذلك زيارات الأباطرة وأفراد عائلاتهم ، كما كان عليهم أيضاً تمويل الزيارات التي كا يقوم بها الوالي وحاشيته في أرجاء البلاد .

جباية الضرائب :

قامت جباية الضرائب في مصر في عصر الرومان في البداية على نظام الألتزام ، وهو ما يعد أ ستمراراً للنظام الذي كان معمولاً به في عصر البطالمة ، حيث كان يشهر في المزاد في كل عام جباية كل ضريبة على حدة ، في منطقة في الأغلب لم تكن تزيد عن مديرية واحدة ، ويرسو المزاد على من يضمن للدولة الحصول على أكبر قدر ممكن من حصيلة الضريبة .

وكان يتعين أن يكون للملتزم ضامنون ، وأن يقدم الملتزم وضامنوه ممتلكاتهم رهناً للوفاء بألتزاماته ، ويبدو أن الدولة أضطرت بعد ذلك إلى فرض ألتزام جباية الضرائب على الأفراد ، مما كان يؤدي إلى هروب الملتزمين في كثير من الأحيان ، بيد أن نظام الألتزام أخذ يختفي شيئاً فشيئاً ، وأسندت جباية الضرائب إلى موظفين كان يجرى تكليفهم للقيام بهذا العمل ، بشكل ألزامي ، وكان جباة الضرائب المكلفين يلتزمون بتعويض النقص الذي ينتج في بعض الأحيان من أموالهم الخاصة ، ولكن في عهد الأمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) تقرر إلزام كل سكان القرية بأن يتضامنوا في سد العجز الذي قد يترتب على عملية الجباية .

وكان الوال هو الذي يشرف على عملية الجباية بأكملها ، ويقوم بمراجعة العامة في أثناء زيارته للمديريات ، ويقرأ التقارير التي يقدمها له المسئولون في المديرية ، ولكن الأمبراطور هو الذي يقرر مقدار الضريبة المستحقة على الولاية ، أستناداً إلى تقارير الوالي ، ومن حقة أن يمنع البعض إعفاءات من الضرائب ، كما كان الوالي يتمتع بنفس الحق ولكن في حالات أستثنائية .

وتذكر بعض المصادر عن الوسائل التي كان يلجأ إليها بعض جباة الضرائب ، من أجل أنتزاع مستحقات الدولة لدى الأهالي ، فجابي الضريبة في إحدى المناطق حين وجد أن بعض دافعي الضرائب قد هربوا ، دون أن يدفعوا ما عليهم ، أتجه إلى زوجاتهم وأطفالهم وأقاربهم فسامهم سوء العذاب ، وطرح بعضهم أرضاً ، وأخذ يضربهم ويطأهم بأقدامه ، بل أنه لم يتورع عن قتل بعضهم ، فإذا لم يجد أقارب للهارب أ فإن الأذى ينتقل إلى الجيران ، وقد يشمل القرية جميعها .

وتعددت الأساليب البشعة التي كان يلجأ إليها جباة الضرائب ، الذين لم يرحموا حتى المتوفي ، ودفعتهم صفاقتهم إلى الأعتداء على جثث الموتى ، حتى يجبروا أقاربهم على دفع ما هو مستحق عليهم من ضرائب ، وإزاء بشاعة هذه الأساليب ، وعجز الأهالي عن الوفاء بألتزاماتهم ، فلا عجب أن يؤدي ذلك إلى هروب الأهالي من مواطنهم ، وخلو بعض القرى من السكان .

الصناعة والتجارة:

إذا كانت الدولة قد عملت على تشجيع الملكية الفردية في مجال الزراعة ، فإنها نهجت ذات النهج في مجال الصناعة والتجارة ، فلم يتبع الرومان سياسة الأحتكار التي مارسها البطالمة ، بل تركوا أمر الصناعة في أيدي الأفراد ، ولكنهم حرصوا على إبقاء الصناعات الأساسية خاضعة لسيطرة الدولة ، مثل الإشراف على المناجم والمحاجر ، كما تدخلت الدولة بشكل جزئي في بعض الصناعات ، مثل صناعة النسيج والبردي والجعة والطوب .

الصناعة والتجارة شهدتا إزدهاراً كبيراً في بدايات العصر الروماني ، ويرجع ذلك إلى النشاط الذي شهدته التجارة الشرقية ، وهو النشاط الذي لعبت فيه الأسكندرية دوراً مهماً ، فقد أستطاعت هذه المدينة بفضل موقعها المتوسط في قلب الأمبراطورية الرومانية ، أن تحتل مكانة عظيمة في أقتصاديات العالم القديم .

كانت الأسكندرية مركزاً مهماً لصناعة الزجاج والبردي والنسيج ، وتعد صناعة الزجاج من الصناعات العريقة في مصر ، ويرجع تاريخها إلى عصر الفراعنة ، حيث توفرت في رمال مصر المادة اللازمة لإنتاج أنواع متميزة من الزجاج ، وكانت الإسكندرية تقوم بتصدير الزجاج إلى سائر أرجاء البحر المتوسط ، أما صناعة أوراق البردي فهي صناعة مصرية خالصة ، أنفردت بها مصر دون سائر بلدان العالم القديم ، لأن نبات البردي كان ينمو في مستنقعات الدلتا المصرية فقط ، وكانت أوراق البردي يتم صناعتها من سيقان هذا النبات ، ومن المرجح أن تجارة البردي كانت حرة تماماً ، ولكن الدولة فرضت ضرائب نقدية ونوعية على صناعة البردي .

ثم تأتي بعد ذلك صناعة النسيج ، التي كانت تحظى بأنتشار واسع في مصر ، وقامت هذه الصناعة على الأنتاج المنزلي ، إلى جانب المصانع التي كانت تقوم بإنتاج أنواع راقية من النسيج ، وقد أشتهرت الإسكندرية بإنتاج نوع متميز من التيل المزخرف ، وكان المصريين لديهم طريقة سرية لتلوين وصباغة الملابس ، وكانت المنسوجات المصرية تلقى رواجاً في الأسواق الشرقية ، بالأضافة إلى بلدان البحر المتوسط ، ويبدو أن الدولة كانت تشرف على هذه الصناعة ، وكانت لديها مصانع للنسيج ، وقد فرضت الدولة على النساجين وعلى المصانع دفع ضرائب نقدية ونوعية.

وإلى جانب الصناعات الأساسية عرفت مصر صناعات أخرى ، مثل صناعة العطور والمستحضرات الطبية ، وكذلك الأدوات الموسيقية والخمور والفخار .

أما فيما يتعلق بالتجارة ، فإنه على الرغم من تدهور مكانة الإسـكندرية من الناحية السـياسـية ، فإن دورها في مجال التجارة أصبح عظيماً ، وكان ذلك نتيجة حتمية لحالة الأزدهار التي عمت الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن عم السلام وخلا البحر من القراصنة ، وأصبحت السفن تبحر في أمان ، وتقاطر التجار على الأسكندرية من جميع أرجاء المعمورة ، من الإغريق والإيطاليين والسوريين ومن أسيا الصغرى ، وكذلك الأثيوبيين والعرب والفرس ، وسيطر التجار السكندريون على تجارة البحر الأحمر والشرق ، وبعد أكتشاف الرياح الشرقية المو سمية على يد هيبالوس في القرن الأول ق.م أزادت التجارة بشكل واضح ، وقبل عصر أغسطس لم تكن تبحر إلى المياة الشرقية أكثر من عشرين سفينة ، ولكن بعد ذلك أزدادت التجارة حتى أن الأسـاطيل الكبرى أصـبحت قادرة على جلب التجارة من الهند وأقاصى أثيوبيا .

ولكن تأثرت الصناعة والتجارة بالأحوال السياسية التي شهدتها مصر والأمبراطورية الرومانية ، وتدهورت الصناعة في القرن الثالث .

وإذا كانت النُظُم الأقتصادية للرومان قد أتت أكلها في البداية وشهدت مصر حالة من الأزدهار في كافة القطاعات الأقتصادية ، فإنها ما لبثت أن أنهارت ، ولم تصمد أمام الرياح العاتية التي تمثلت في الاضطرابات التي شهدتها مصر في كثير من الأحيان ، بالاضافة إلى الأحوال المضطربة التي سادت الإمبراطورية في أحوال كثيرة، وربما يرجع ذلك إلى أن النظم الاقتصادية والمالية في مصر ، أستندت إلى أسس فاسدة ، قامت على أعتصار هذه الولاية ، والحصول على أكبر دخل ممكن منها، دون أن تضـع في اعتبارها في غالبية الأحيان الظروف التي تمر بها البلاد ، وتظهر الأبحاث التي أجراها الباحثون إلى أي مدى كانت الإدارة الرومانية ظالمة في مصر .

طبقات المجتمع :

المجتمع :

كان المجتمع المصري في ذلك العهد يحيا في أسوأ أيامه حيث السلطة والإدارة والوظائف في يد الرومان واليونان وبعض اليهود من المتقربين إلى الرومان، والمصـريون محرومون حتى من التمتع بخيرات بلادهم، لفرض الضرـائب الباهظة المتعددة عليهم وكذلك حرمانهم من الاشـتراك في الجيش، مما جعلهم يعيشـون كالغرباء عنها، وإذا وصـل بعضـهم إلى منصـب دينى فإننا نجد الاضـطهاد ينصـب على هؤلاء القادة الدينيين، مما حمل فريق كبير منهم على الفرار بعقيدته إلى الأديرة والكهوف المنتشرـة في أنحاء مصرـ واتخذوا عادة التنسـك التي أخذوها عن اليهود، فازداد عدد الأديار تبعا لذلك وكثر عدد أعضائها الذين أعطوا لأنفسهم حق الإعفاء من الوظائف غير المأجورة وغيرها، و شذ بعض من هؤلاء فاحترفوا السطو والنهب.

وعلى هذا نقول أن المجتمع المصري في هذه الفترة كان على طبقتين :

١- طبقة المصريين : الطبقة الكادحة الذين يعيشون في عناء وشقاء.
٢- طبقة الرومان : وهم المنعمون المرفهون الذين يسكنون الحواضر ويتمتعون بخيرات البلاد.

١- المصريون:

البقية الباقية من سكان مصر ، من غير المواطنين الرومان ، ومواطني المدن الإغريقية واليهود ، فهم الذين يطلق عليهم إجمالاً "المصريون" ، وتطلق هذه الصفة على سكان الريف ، سواء أكانوا ينحدرون من أصول مصرية أو إغريقية ، وهي فئة لم تشهد حياتها تغيرات تُذكر ، ومما هو جدير بالذكر أن الوضع المتميز الذي كان يتمتع به الإغريق والمقدونيون في عصر البطالمة لم يعد له وجود ، ونزلوا إلى مرتبة المصريين ، وأدى زوال التفرقة بين المصريين والإغريق إلى إنعدام الفجوة بينهم ، فشاع الزواج بين الطرفين ، وبشكل خاص في الريف ، وكان الأطفال الذين يولدون نتيجة لهذه الزيجات يحملون أسماء إغريقية أو مصرية ، ولكن الإدارة الرومانية كانت حريصة على بقاء الفوارق بين الفئات ، فوضعت قوانين لتنظيم العلاقة بين الطبقات ، وفرضت عقوبات صارمة على من يخالف تلك القوانين ، وهذه القوانين كانت جائرة جداً بالنسبة للمصريين .

عندما أصدر الإمبراطور كراكالا قراره عام ٢١٢ م ، والذي قضى بمنح حقوق المواطنه الرومانية لكافة رعايا الإمبراطورية ، فيما عدا فئة واحدة أطلق عليها القرار فئة المستسلمين ، وهي فئة غير معروف من هم الذين عناهم القرار ، فعلى الرغم مما قد يبدو للعيان من أن هذا القرار قد ألغي الفوارق الأجتماعية ، فإنه بالنسبة للمصريين في المدن والقرى ، لم يكن يعني شيئاً جديداً ، فحصول المصريين على المواطنة الرومانية لم يؤد إلى إعفائهم من دفع ضريبة الرأس ، بل زادت عليهم الأعباء ، فقد تقرر أن يدفعوا ضريبة جديدة ، هي ضريبة الميراث التي كانت مقررة على المواطنين الرومان .

٢-الأغريق واليهود:

عندما دخل أوكتافيوس مصر ، كانت توجد ثلاث مدُن إغريقية في مصر ، وهي نقراطيس في الدلتا ، ثم مدينة الإسكندرية ، أما المدينة الثالثة فهي بطلمية ، التي تقع في صعيد مصر ، وفي عام ١٣٠ م أضاف الإمبراطور هادريان مدينة رابعة هي أنتينوبوليس ، التي أقامها في مصر الوسطى ، تكريماً لذكرى خليلة الذي غرق في هذه المنطقة خلال موافقته للإمبراطور ، وقد حصلت مدينة أنتينوبوليس على كافة الامتيازات ، التي كانت تتمتع بها المدن الأخرى ، وحصول مواطنيها على امتيازات اضافية ، أما الأسكندرية فقد بلغ عدد الرجال الأحرار فيها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وربما يصل إجمالي عدد سكانها إلى نصف مليون نسمة ، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات في نظم المدن الأربع إلا أن نظمها كانت في الغالب متقاربة .

وأهم تلك النظم التي تشـابهت فيها هذه المدن ، هي تسـجيل مواطنيها في قبائل وأحياء ، وهو النظام الذي كان متبعاً في المدن المسـتقلة في بلاد اليونان ، وكذلك وجود مؤسـسـة الجمنازيوم التي حرص عليها الإغريق باعتبارها من رموز المدينة الإغريقية، وكان مواطنو هذه المدن يقبلون على تولي وظيفة مدير معهد الجمنازيوم ، وهي وظيفة شرفية ، كان شاغلها مسئولاً عن إمداد المعهد بكافة أحتياجاته ، وقد أصبحت هذه الوظيفة فيما بعد إلزامية .

يعد مجلس الشـورى أيضـاً من معالم المدينة الأغريقية ، وكان حرمان الإسـكندرية من هذا المجلس من الأسـباب التي جعلت السكندريين يكرهون الحكم الروماني ، أما مدينتا نقراطيس وبطلمية ، فقد تمتعتا بوجود مجلس للشورى فيهما ، وقد حصلت مدينة أنتينوبولس على مجلس الشورى منذ تأسيسها ، وحصلت الإسكندرية على حق التمتع بوجود مجلس الشورى ، في عهد سبتيموس سيفيروس ، الذي منح هذا الحق لكافة عواصم المديريات ، وقد أثار هذا الامر سخط السكندريين ، الذي ساءهم أن يروا مدينتهم العظيمة تتساوى مع سائر المدن الأخرى في مصر .

ومن الناحية الأقتصـــادية ، تمتع مواطنو المدن الإغريقية ببعض الأمتيازات ، فقد كانوا يشـــاركون في النشـــاط الأقتصـادي لمدينة الإسـكندرية ، كما أعفوا من دفع ضريبة الرأس ، التي كانت تعد بالنسـبة لسـكان الولايات عبءاً تنوء به كواهلهم ، إضـــافة إلى كونها دليلاً على تدني المكانة الأجتماعية والســـياســـية ، وكان مواطنو المدن الإغريقية الأربع يتملكون أراض زراعية في أنجاء متفرقة من مصرــ ، وكانت بعض هذه الأراضي تقع على مســافات بعيدة من مدنهم ، كما تمتع هؤلاء المواطنون بحق الإعفاء من الخدمات الإلزامية أينما حلوا .

وكان من حق مواطني المدن الإغريقية أن يخدموا في الفرق الرومانية ، وهذا يعني أنهم يصـبحوا مواطنين رومان بمجرد تســـجيلهم في هذه الفرق ، أما باقي الســـكان فكان من حقهم الخدمة في الفرق المســـاعدة فقط ، وهذا لا يعطيهم الحق في الحصول على المواطنة الرومانية ، إلا بعد الخدمة لمدة ربع قرن .

ومما هو جدير بالذكر أن حقوق المواطنة في المدن الإغريقية كانت تقتصرــ على فئة محدودة ، ولم يكن كل المقيمين في المدينة يتمتعون بحقوق المواطنة ، فقد كان يوجد الكثيرون الذين أجتذبتهم إلى هذه المدن الرغبة في أستثمار أموالهم .

أما اليهود فإن أستقرارهم في مصر يرجع إلى عهود قديمة ، وكانت هناك جالية يهودية في جنوب مصر منذ القرنين الخامس والرابع ق.م ، وقد أنتشرــ اليهود في ســـائر أرجاء مصرــ ، وكان لهم دور ملموس في الحياة الأجتماعية والأقتصـادية والثقافية في الأسـكندرية ، كما شـغل بعض اليهود مراكز إدارية مهمة في الأسـكندرية ، مثل إسـكندر لو سيماخوس شقيق الكاتب فيلون ، ووالد تيبريوس الإسكندر ، الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد ، ويعد فيلون من العلامات الثقافية البارزة في الاسكندرية في القرن الأول ، وكان ضليعاً في الفلسفة اليونانية ، وكتب أبحاثه باللغة اليونانية ، وكان يحاول شرح الديانة اليهودية لغير اليهود .

يذكر فيلون أن عدد اليهود في الاسكندرية يصل إلى المليون ، وهو رقم يدخل في إطار المبالغات الخطابية ، لأن إجمالي سكان المدينة لم يصل إلى نصف هذا العدد، ولكن يبدو أن عدد اليهود في الاسكندرية تزايد ، فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة الخمسة ، بعد أن كانوا يسكنون حياً واحداً ، هو الحي الرابع الدلتا ، وكان أغسطس قد كافأ اليهود نظير الخدمات التي قدموها للرومان ، فأقر لهم الأمتيازات التي كانوا يتمتعون بها منذ عصر البطالمة ، والتي تشمل أحتفاظهم بمجلس للشيوخ ، في الوقت الذي حرم فيه السكندريين من أن يكون لهم مجلس للشورى ، لذلك تمادى اليهود وتصرفوا كما لو كانوا من مواطني الإسكندرية وأخذوا يقحمون أنفسهم في مؤسسات الإغريق مثل الجمنازيوم ، مما أستفز السكندريين ، وأدى إلى تفجير روح الكراهية لديهم تجاه اليهود .

بعد الفتن المتوالية التي قام بها اليهود في القرن الأول والثاني ، فإنهم حرموا الكثير من امتيازاتهم ، وقد ظل يهود مصر على ولائهم للرومان ، حتى بعد تدمير الرومان لهيكل أورشليم ، وعلى الرغم من ذلك فإن معبد اليهود الرئيسي في مصر ، وهو معبد ليونتوبوليس ، قد تعرض للنهب والتدمير ، وأمر فسباسيانوس بإغلاقه نهائياً، فقد خشيت السلطات الرومانية من أن يتحول هذا المعبد إلى مركز لتجمع اليهود، بدلاً من هيكل أورشليم ، وقد فرضت السلطات الرومانية على كل يهود.

الديانة :

ترك الرومان للمصريين في بادئ الأمر حرية العقيدة، وعاملوهم في هذه الناحية باللين، فلم يتدخلوا أويحدوا من حرية المعتقدات، وكانت مصر كغيرها من الولايات الرومية تدين بالدين الوثنى، وظل المصريون ينعمون بهذه الحرية إلى أن ظهرت المسيحية في فلسطين، وكانت مصر في طليعة البلاد التي تسربت إليها المسيحية في منتصف القرن الأول الميلادي، على يد القديس (مرقص) لقربها من فلسطين.

وأخذ هذا الدين ينتشر في الإسكندرية والوجه البحرى ثم انتشر تدريجيا في أنحاء مصر خلال القرن الثاني الميلادي فثارت مخاوف الرومان الوثنيين، وصبوا العذاب صباً على المصريين الذين اعتنقوا المسيحية، وتركوا الوثنية الدين الرسمي للدوله.

وأخذ الاضطهاد صورة منظمة في عهد الإمبراطور سفروس(١٩٣-٢١١م) ثم بلغ ذروته القصوى في حكم الإمبراطور دقالديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) فقد رغب هذا الإمبراطور أن يضعه رعاياه موضع الألوهية، حتى يضمن حياته وملكه، فقاومه المسيحيون في ذلك، فعمد إلى تعذيبهم، فصمد المصريون لها الاضطهاد بقوة وعناد أضفى عليه صفة قومية، وقدمت مصر في سبيل عقيدتها أعدادا كبيرة من الشهداء مما حمل الكنيسة القبطية في مصر أن تطلق على عصر هذا الإمبراطور (عصر الشهداء). ولم تفلح وسائل الاضطهاد في وقف انتشار المسيحية التي عمت كل بلاد مصر.

وقد خففت و سائل الاضطهاد عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الأول : (٣٠٦-٣٣٧م) بالمسيحية دينا مسموحاً به في الدولة كبقية الأديان الأخرى.

وأصـدر الأمير تيودوسـيوس الأول (٣٧٨_٣٩٥م) في سـنة ٣٨١م مرسـوماً بجعل المسـيحية دين الدولة الرسـمي الوحيد في جميع أنحاء الإمبراطوريه.

وأخذت الاضطهادات، و سبل التعذيب تنصب تبعا لذلك على الوثنيين بعد أن كانت تتوالى على المسيحيين، وتابع المسيحيون نشر دينهم بنفس القوة التي حاول بها أنصار الوثنية إخماد جذورة المسيحية بها.

وعلى الرغم من أن المسيحية صارت الدين الر سمي للإمبراطور، لم تنعم مصر بهذا المر سوم لوقوع خلاف وجدال في طبيعة السـيد المسـيح . وبلغ النزاع أقصاه بين كنيسـة الإسـكندرية التي تنادى بالطبيعة البشـرية للمسـيح، وبين كنيسة روما القائلة بالطبيعتين إحداها بشرية وأخرى إلهية للسيد المسيح.

وبذلك تعرض المصريون لألوان العذاب لاعتناقهم مذهباً مخالفاً لمذهب الإمبراطورية.

ثانياً : الحكم الروماني في الشام :

سوريا (ولاية رومانية) :

يقول مؤرخ شامي عربي عن الحكم الروماني في الشام : " كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه ممتلكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم للرومان ليوفوا ما عليهم من الأموال، ولكم أن تتخيلوا فظاعة ما كان يجري مع أبنائهم من انتهاكٍ للأعراض وغيره، وقد كثرت المظالم والســخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام ".

ولاية ســوريا باللاتينية: (Syria) هي ولاية رومانية تأســســت أثر فتح الرومان لســوريا عام ٦٤ ق.م. تحت قيادة بومبيوس الكبير . دام الحكم الروماني ومن ثم البيزنطي لســوريا قرابة الســبعمائة ســنة حتى ســقوطها على يد الخلفاء الراشدين عام ٦٣٧ م. حيث شكلت سوريا إحدى أهم الولايات الرومانية كما حشدت روما ثلاث ألوية في سوريا ساهمت في الدفاع ضدالبارثيين إلى الشرق. وبحلول القرن الثالث أصبحت للولاية أهمية خاصة بوصول السلالة السفرية ذات الأصول السورية إلى سدة الحكم في روما.

في حوالي ٣٤١م. تم تقســيم الولاية إلى جزئين: ســوريا الداخلية غرب الفرات وولاية الفرات في الجزء الشرـقي. واســتمر الحكم البيزنطي بعد الرومان حتى القرن الســابع حيث شــكلت معركة الجسرـ الحديدي في أنطاكيا نهاية للحكم الروماني لسوريا.

طويت صـفحة العهد اليوناني في دمشـق عام ٦٤ق.م عندما دخلتها جيوش الرّومان بقيادة القائد العام بومبيوس Pompeius، وعرفت دمشــق في هذا العهد نشــاطاً تجارياً واســعاً، مُســتفيدة من كونها محطّة رئيســيّة على طريق القوافل، ومن اتّســـاع الإمبراطورية الرومانية، وأفادها تدفّق الأموال عليها في تطوّرها العمراني الذي بلغ في عهد الرّومان حداً عظيماً، مازالت آثاره باقية إلى اليوم.

وأصبحت دمشق في عهد الإمبراطور هادريان حاملة لقب متروبول (مدينة رئيسية) ثم حملت لقب مستعمرة رومانية في عهد الإمبراطور سيبتيم سيفير، ولمع من أبنائها مهندسون، ووصلت شهرة أحدهم"أبّولودور الدمشقي "إلى روما.

وفي أواخر القرن الرابع الميلادي انقسمت الإمبراطورية الرومانية وغَدَت دمشق من أملاك الجزء الشرقي من هذه الإمبراطورية، وهي التي عرفت باسم الدّولة البيزنطية. وأصبحت دمشق مركزاً عسكرياً مهمّاً في مواجهة الفُرس السّاسانيين، كما غدت من أهم مراكز الدولة العربيّة التي قامت في بلاد الشام وهي دولة الغَساسنة. وتقع دمشق بيد الفرس عام ٦١٢م ويستعيدها الرّوم بعد خمسة عشر عاماً على يد هرقل عام ٦٢٧م. ولم تلبث أن أضحت في حُكم العرب بعد أن فتحتهاجيوش العرب المسلمين عام ١٤هـ/٦٣٥م.

لمحات في تاريخ دمشق العمراني العهد الرّوماني :

من المعروف أنّ السّلم الرّوماني والازدهار الاقتصادي الملحوظ الذي حظيت به دمشق في أيّام تبعيّتها للامبراطوريّة الرّومانيّة، قد ضاعف من عدد سكّانها ونجمت عنه حركة عمرانيّة واسعة. الأمر الذي استدعى توسيع المدينة، وإحداث تنظيم جديد فيها، يحقّق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحصينها. فأحيطت المدينة بسور واسع مستطيل بُني بالأحجار الضخمة، احتمى وراء بردى من ناحية الشمال، وفُتحت فيه سبعة أبواب: واحد في الشرق، وآخر في الغرب ؛ واثنان في الجنوب، هما باب كيسان والباب الصغير؛ وثلاثة في الشمال، هي باب توما وباب الجينيق (كان بقرب باب السّلام) وباب الفراديس.

وكان يشق المدينة شارع رئيسي عريض يمتدّ من الغرب إلى الشرق، ينحصر بين باب الجابية وباب شرقي، اشتهر بالشارع المستقيم ويبلغ طوله ١٥٠٠ متراً. وكان يتألف من طريق واسع في الوسط يقابل فتحة الباب الوسطى، ورواقين جانبيين مسقوفين يقابلان الفتحتين الصغيرتين للبابين الشرقي والغربي، تحملهما الأعمدة المتوّجة بتيجان كورنثيّة جميلة، التي مازال يظهر بعضها بين الفينة والأخرى خلال أعمال الحفر والبناء في الشارع. وكانت المخازن التجاريّة موزّعة على طول هذا الشارع بحذاء أروقته.

وهذا الشارع الرئيسي الجميل Decumanus Maxiums كان مزيّناً بالتماثيل، أدرك العرب أحدها الذي كان يتوسط الشارع، وهو عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه، وآخر على رأسه مثل الكرة فيها حديد. وكان يقطع هذا الشارع شارع آخر عرضاني متقاطع (يمتدّ من الشمال إلى الجنوب Cardo Maximus (وعند نقطة التقاطع قوس رباعيّة Tetrapylum تمّ الكشف عنها في منتصف القرن العشرين (عند محلّة طالع الفضّة)، وكانت على عمق ٤ أمتار ونصف من سطح الأرض الحاليّة، نظراً لارتفاع سويّة الشارع على مرّ العصور. وتمّ رفع هذه الآبدة إلى مستوى الشارع وترميمها، وهي قوس هامّة وجميلة تحتفظ بإحدى فتحاتها كاملة وبعض الأعمدة التي تزيّنها. ومن المحتمل أن تكون هذه القوس هي التي يسمّيها ابن عساكر بقنطرة سنان، كما حدّثتنا المصادر التاريخيّة عن وجود قوس أخرى إلى الغرب من هذه القوس، تهدّمت في القرن الثامن الهجري، واستخدمت أحجارها في البناء، كما ذكر المؤرّخ ابن كثير.

على أنّ الآبدة الأكثر أهميّة التي خلّفها العصر الرّوماني في دمشق كانت معبد جوبيتر، الذي كان من أشهر معابد العالم القديم، من حيث سعته وفخامة بنائه، وكأنّه وأبوابه وأسواره مدينة حصينة. بهذا الاعتبار عرفه العرب وأطلقوا عليه أحياناً تسمية (حصن دمشق)، والمدينة الداخلية أحياناً أخرى، معتبرين أسواره الخارجيّة هي أسوار المدينة اليونانيّة التي نسبوا بناءها إلى علام الإسكندر، كما جاء في رواية المؤرخ ابن عساكر. ولقد بني هذا المعبد على أنقاض المعبد الآرامي، وأسهمت في هندسته التقاليد المعمارية الشرقية إلى جانب فن العمارة الغربي الكورنثي، ولابُدّ أنه صُمّم وبُني من قبل مهندسين وصُنّاع دمشقيين كانت دمشق تشتهر بهم، أمثال الذي ذكرناه آنفاً.

وكانت (الآغورا) أو السوق العامّة تقع في الناحية الشرقيّة، وقد شُقّ بينها وبين المعبد شارع واسع له أروقة فخمة ما تزال تشاهد كثير من أعمدتها. ولمّا لم يعد نهر بانياس يكفي هذه المدينة الواسعة جرى تعزيزه بقناة استمدّت مياهها من مياه بردى أيضاً، وحملت بعض أقسامها على قناطر لاتزال تُشاهَد في حيّ القنوات غربي المدينة، وخُصّصت الأراضي الواقعة في الشمال الشرقي بعيداً عن الأسوار لكي تكون مقبرةلدفن الموتى. واتصلت المدينة بالعالم الخارجي بشبكة طرق مرصوفة تخرج من أبوابها إلى مختلف الاتجاهات، من أهمّها الطريق الآخذ إلى فلسطين ومصر.

وقُصارى القول، أن دمشق ظهرت في ذلك العصر مدينةً على النّسق الرّوماني، المطبوع بطابع القوّة والأناقة والجمال.

وفي ختام القرن الرابع الميلادي، حلّ العهد البيزنطي) ٣٧٩م)، ولم يحدث تغيير جذري في نظام المدينة، سوى أن معبد جوبيتر تحوّل إلى كنيسة للقدّيس يوحنّا المعمدان في حدود عام ٣٩٥م، واحتلّت بعض المنشآت الأرض الكائنة بين سورَي المعبد، وأحدثت أسواق ذات أروقة تصل بين أبواب المعبد الداخلي وبين أسواره الخارجية، يُشاهد جانب منها عند البابين الشمالي والغربي للجامع الأموي. وظلّت الأروقة ذات الأعمدة في الناحية الجنوبية، الممتدة من باب الزيادة في الجامع الأموي(عند سوق الصّاغة) باقية حتى القرن التاسع عشر، شاهدها السائح السكوتلندي جوزايا لزلي بورتر J.L.Porter في عام ١٨٥٥م ، وعدّ منها اثني عشر عموداً، فُقدت جميعها فيما بعد.

سيطرة الرومان على فلسطين:

سمح أباطرة الرومان لأبناء فلسطين بنوع من الحكم الذاتي، ونصبوا سنة (٣٧ق. م) "هيرودس الآدومي" ملكاً على "الخليل" و"بلاد يهودا"- أو"المملكة الجنوبية" المقاطعة المحيطة بـالقدس"يوديا" الرومانية، وكانت مساحتها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع.

وكان "هيرودس" قد اعتنق اليهودية، وفي سنة (١٩ق. م) رغب "هيرودس" في بناء الهيكل على طريقة بناء "سليمان"، فقام بهدمه وبنائه ثانيةً، وقد شهدت البلاد نوعًا من الاستقرار والهدوء طوال عهد "هيرودس"، الذي ظل يحكم هذه البلاد باسم "الرومان" حتى وفاته سنة (٤م).

وبعد وفاته وقعت البلاد في فتن داخلية، وعظمت الفتن واشتدت ولم تنقطع؛ سواء بين الرومان أنفسهم، أو بينهم وبين اليهود من ناحية أخرى، حتى تحولت "القدس" إلى ساحة حرب، وكثر القتلى في الشوارع والأزقة، وأدَّى ذلك إلى انتشار الأمراض الوبائية بالمدينة، وتعرَّضت القدس للعديد من الكوارث والآفات والأمراض والمجاعات.

وفي عهد الإمبراطور "نيرون" بدأ اليهود في التمرد على حكم "الرومان"، فقام أحد قادة الرومان- وهو "تيتوس"- باحتلال "القدس" في سنة (٧٠م) ، وحرق الهيكل، فلما علم اليهود بهدم الهيكل مضوا وأحرقوا كل ما كان بالقدس من قصور جميلة مع ما فيها من ذخائر وأموال، فرد عليهم "تيتوس" بقتل الكثير من اليهود، حتى قيل إن عدد القتلى بلغ أكثر من مليون، وإن عدد الأسرى بلغ (٦٧) ألفًا، وهي أرقام تتسم بالكثير من المبالغة والتهويل كعادة اليهود في إبراز وتضخيم ما لحق بهم من اضطهاد أو تنكيل على مرِّ العصور، لاستجداء شفقة الضمير الإنساني وابتزاز شعوب الأرض، وتهوين وتبرير كل ما يقومون به من جرائم وانتهاكات في حق أبناء الأرض العربية من شعب فلسطين.

وفي سنة (١٣٢م) قام اليهود بالثورة مرة أخرى بقيادة "باركوخبا"، واستمرت هذه الثورة لمدة ثلاث سنوات، حتى قام الإمبراطور "هادريانوس" بإخمادها بعد أن خرب "القدس"، وأبادها نهائيًا، وقام بتأسيس مستعمرة رومانية جديدة أطلق عليها "إيليا كابيتولينا"، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة- وهي التي جاء ذكرها في "العهدة العمرية" باسم "إيلياء"- وأقام مكان الهيكل اليهودي هيكلاً وثنيًا باسم "جوبيتر"، وظل الهيكل على هذا الوضع حتى ظهور المسيحية.



خريطة فلسطين تحت حكم الرومان

فلسطين تحت حكم الرومان :

ظلَّت فلسطين وبلاد الشام خاضعةً تحت السيطرة الفارسية لعدة قرون بلا ثورات ولا نـــزاعات داخلية، حتى نشب النزاع بين "الإسكندر الأكبر المقدوني" وبين "دارا" ملك الفرس في سنة (٣٢٢ ق. م)، وما لبث "الإسكندر" أن تُوفي وترك لخلفائه إمبراطورية واسعة؛ اشتعل الصراع حولها بين قواده لعدة سنوات، فشهدت فلسطين وبلاد الشام بسبب تلك النزاعات المستمرة حالةً من الفوضى والاضطراب، ظلت مستمرة حتى استولى عليها الرومان في نحو سنة (٦٣ ق. م) بقيادة القائد الروماني "بومبي"، بعد انتصـــاره على ملك "بونتوس"، وضـــمه آســـيا الصـــغري وســـوريا وفلسطين إلى الإمبراطورية الرومانية.

اليهود في ظل المسيحية :

ظل الرومان يمنعون اليهود من دخول "القدس" حتى تولى الإمبراطور "قسطنطين" في بداية القرن الرابع الميلادي، والذي اعتنق المســـيحية، وأعاد للمدينة اســـمها القديم "أورشـــليم القدس"، وأجبر اليهود في"القدس"على اعتناق المسيحية، فتظاهر بعضهم بالنصرانية، ولكنهم ظلوا على يهوديتهم، ولما امتنع بعض اليهود أن يتنصروا قتلهم، وهدم الهيكل الوثني الذي أقامه الرومان بدلاً من هيكل اليهود.

وأصبحت "القدس" في عهد "الرومان" تغلب عليها الصبغة الدينية المسيحية، بعد أن كانت منذ عهد "دواد" وابنه "سليمان"- عليهما السلام- ذات صبغة يهودية، وقد تأكدت تلك الهوية الجديدة عندما قامت الملكة "هيلانة"- والدة الإمبراطور "قسطنطين"- سنة (٣٣٥م) بزيارة "القدس"، وأمرت بهدم المعبد الذي بناه الوثنيون على جبل (الجلجلة)، وأمرت ببناء "كنيسة القيامة" التي يحج إليها المسيحيون حتى الآن، وأمرت كذلك ببناء العديد من الكنائس والأديرة على جبل الزيتون "الطور"، ومن أشهر هذه الكنائس "كنيسة الجثمانية" و"كنيسة مريم العذراء".

وفي سنة (٣٦١م) قام الإمبراطور "يوليان" بزيارة "القدس"، وكان قد عاد إلى الوثنية بعد اعتناقه للنصرانية، فأخذ في حشد اليهود إلى "القدس"، وبدأ في إعمار هيكلهم من جديد.

وفي سنة (٥٩١م) أرسل "برويز" كسرى فارس جيوشه إلى "فلسطين"، وأمرهم بتخريبها، فقاموا بتخريب معظم مدن "الشام"، وخاصة "القدس" و"الخليل" و"الناصرة" و"صور"، وخربوا كثيراً من الكنائس، وقتلوا كثيراً من النصارى؛ فلما رأى اليهود خلو بلاد "الشـام" من "الرومان" اجتمعوا من "القدس" و"طبرية" و"قبرس" و"دمشـق"، فكانوا نحو (٢٠) ألفًا، وأتوا إلى "صور" ليستولوا عليها، فعاد إليهم جيش الفرس، وحاصرهم وهزمهم، وقتل كثيراً منهم.

وظلت بلاد "الشـام" في أيدي الفرس إلى سـنة (٦٢٨م)، عندما اسـتعادها"هرقل" ملك الروم ودخل بجيوشـه إلى "القدس".

نكبة الدولة الرومانية وانحطاطها :

بدأ العد العكسي في حياة الدولة الرومانية اعتباراً من عام ٢٣٥ م فقد شهد ذلك العام ازدياداً خطيراً في الاضطرابات السياسية والاجتماعية وتصاعدت فيه الهجمات الخارجية وخصوصاً من القبائل الجرمانية وعودة نفوذ الإمبراطورية الفارسية في الشرق التي انتزعت أرمينيا من يد الرومان وسيطرت على أراضي ما بين النهرين وزحف الجيش الفارسي واجتاح إنطاكية وسوريا ولم يستطع الرومان صدّه حتى جاء الإمبراطور ديوكلتيانوس DIOCLETIAN الذي يعتبر مؤسس الإمبراطورية الثالثة وتمكن من إعادة الحكم بحيث يسند إلى أربعة أشخاص يتقاسمون السلطة وهو النظام الذي عرف باسم الحكم الرباعي وقد استمر العمل بهذا النظام حتى عام ٣٠٥ م ثم تبع ذلك صراع على السلطة استمر طيلة الفترة من ٣٠٦ إلى ٣١٣ م إلى أن جاء إلى العرش الإمبراطور قسطنطين الذي اعتبر حكمه نقطة تحول أساسية في مسار الإمبراطورية الرومانية.

تقسيم الامبراطورية الرومانية :

إنقسام الإمبراطورية الرومانية عام ٤٥٠م إلى :

١- الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية)
٢- الإمبراطورية الرومانية الغربية

إضمحلت وإنهارت الأخيرة خلال ٨٠ سنة من هذا الإنقسام .

خلال القرنين الثاني والثالث، حدثت ثلاث أزمات معاً هددت بانهيار الإمبراطورية الرومانية : الغزوات الخارجية، والحروب الأهلية الداخلية، وضعف الاقتصاد. وفي غضون ذلك، أصبحت مدينة روما أقل أهمية بوصفها المركز الإداري للامبراطوريه الرومانية. أظهرت أزمة القرن الثالث عيوب النظام المتجانس للحكومة الذي انشأه أوغسطس لإدارة الإمبراطورية الرومانية. أدخل خلفاؤه بعض التعديلات، ولكن الأحداث وضحت أن نظام عالمي جديد موحد أكثر مركزية هو النظام المطلوب.

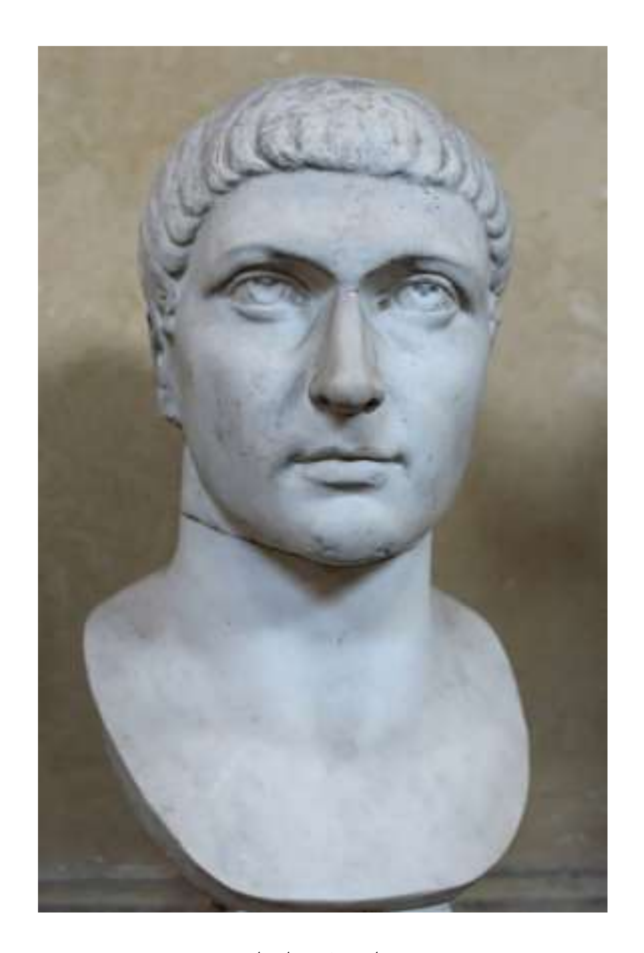
بدأ تقسيم الإمبراطورية في أواخر القرن الثالث من قبل ديوكلتيانوس في ٢٨٦، كانت تهدف إلى السيطرة بكفاءه على الإمبراطورية الرومانية الإمبراطورية الرومانية الغربية (Western Roman Empire) يشير إلى النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية، النصف الآخر من الإمبراطورية الرومانية أصبح يعرف باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، واليوم تعرف على نطاق واسع باعتبارها الإمبراطورية البيزنطيه

قســـم ثيودوســـيوس الأول (يطلق عليه أيضـــا اســـم "العظيم") الإمبراطورية الرومانية لولديه آركاديوس إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية مع عاصـمة بلاده في القسـطنطينيه وهونوريوس في الإمبراطورية الغربية مع عا صمة بلاده في ميلانو.



إنقسام الإمبراطورية الرومانية عام ٤٥٠م

عهد الإمبراطور قسطنطين :



الإمبراطور قسطنطين

خلال الصراع على السلطة شهدت الدولة الرومانية فوضى لم يسبق لها مثيل حيث كان التنافس على زمام الإمبراطورية بين سبعة رجال وهم ماكسيميان وغاليريوس ومكسنتيوس ومكسيمينيوس دايا وليسينيوس وقسطنطين بالإضافة إلى دوميتيوس ألكسندر الذي أعلن انفصاله في أفريقيا، وبدأ الجميع بالانهيار ولم يبق سوى ليسينيوس الذي كان يسيطر على المناطق الشرقية وقسطنطين الذي كان قد قوي وسيطر على المناطق الغربية، وقد توصل الإثنان إلى اتفاق على التعايش والاعتراف لكل من الآخر بسلطته وسيطرته على المناطق التي يحكمها، واستمرت هذه الهدنة حوالي عشر سنوات، وفي عام ٣٢٤ م وقع صدام بين الرجلين في معركة أدريانويل التي انتصر فيها قسطنطين وبهذا الانتصار قامت قوات قسطنطين بمطاردة قوات ليسينيوس في آسيا الصغرى وتمكن قسطنطين من اعتقال خصمه وإعدامه وأصبح قسطنطين هو الإمبراطور الوحيد في روما.لقد ساهم قسطنطين بتوفير الحرية للمسيحيين في روما بإصداره لمرسوم ميلان الذي وفر للمسيحيين حرية العبادة وقد اتخذ بعض الإجراءات التي تهم الدولة منها:

- إعادة النظام إلى الدولة.
- إدخال الإصلاحات التي رآها ضرورية.
- اعتناقه الديانة المسيحية واعتبارها الديانة الرسمية للدولة الرومانية.
- إنشاء عاصمة جديدة لدولته في منطقة بيزنطيوم على ضفاف البوسفور وسماها **nueva roma** أي روما الجديدة وقد عرفت فيما بعد باسم القسطنطينية.

الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

هوهنشتاوفن **Hohenstaufen** أو "هوهينستاوفن" **Hehencsteufan** أسرة من الأمراء في ألمانيا خلال العصور الوسطى، اعتلت العرش الإمبراطوري بين عامي ١١٣٨ و١٢٥٤ م. وقد استمدت الأسرة اسمها من قلعة عتيقة شُيِّدت في ستاوفن بجنوبي ألمانيا في القرن الحادي عشر الميلادي.ففي عام ١١٣٨ م اعتلى أحد أفراد أسرة هوهينستاوفن عرش ألمانيا، وهو كونراد الثالث، كما كان من حكام آل هوهنشتاوفن أيضاً فريدريك الأول بارباروسا، وهنري السادس، وفريديك الثاني.

الجدير بالذكر؛ أن الحقبة الهوهنشتاوفنية ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من تفت الإقطاع في ألمانيا، وانهيار السيادة الألمانية في إيطاليا. ولو حاولنا أن نستقرئ تاريخ الإمبراطورية الرومانية الآتي من خلال الأحداث، لأدركنا أن الحقبة التاريخية كانت صراعاً بين أباطرة الهوهنشتاوفن والبابوية، أما إذا تخطينا هذه الأحداث إلى خلفياتها البعيدة لبدا لنا الواقع صراعاً بين مفهومين للسيادة الواحدة، أحدهما سياسي والآخر روحي، وكان هذا نتيجة حتمية لمفهوم أكثر عمقاً واتساعاً مما كان يقتتل من أجله هنري الرابع وجريجوري السابع، ذلك أن الطرفين أضحى كل منهما يحمل الإدعاء الكامل بالعالمية.

الفنون الرومانية:

الفن الروماني يضم الفنون المرئية التي أُنتجت في روما القديمة، وفي أراضي الامبراطورية الرومانية .

الصيغ الرئيسية للفن الروماني هي :

العمارة ، التصوير ، النحت ، أعمال الفسيفساء ، الأشغال المعدنية ، قوالب النقود ، نقش الأحجار الكريمة ، نحت العاج ، زجاج التماثيل الصغير ، الخزف ، الرسوم التوضيحية المنمنمة - في الكتب تعتبر أحياناً، في المصطلحات الحديثة كصيغ صغرىمن الفن الروماني، بالرغم من أن الذين عاشوا ذلك العصر قد يختلفون حول اعتبارها صيغ "صغرى"

الأشغال المعدنية :

كانت مئات الفنون تستخدم في القصور وفي بيوت الأغنياء لتجعل كل شيء فيها عظيم النفقة إن فاتها أن تجعله جميلاً. فقد كانت أرضها في الغالب من الرخام المتعدد الألوان، أو الفسيفساء الذي عني فيه صانعوه بجمع المكعبات الصغيرة الكثيرة الألوان Cesserae، وبذلوا في ذلك الكثير من الجهد والوقت، فأخرجوا منها رسوماً مدهشة في واقعيتها وثباتها. وكان أثاث هذه القصور أقل عدداً من أثاث بيوتنا وأقل منه مجلبة للراحة، ولكنه يفوق في فخامة نقشه ودقة صنعه. فكانت المناضد، والكراسي، والمقاعد، والمضاجع، والأسرّة، والمصابيح، والأواني، كلها تصنع من المواد المتينة، كما كانت كثيرة الزينة. وكانت خير أنواع الخشب، والعاج، والرخام، والبرونز، والفضة، والذهب تخرط وتصقل بمنتهى الدقة والعناية، وتنقش عليها صور لأنواع النبات والحيوان، أو ترصع بالعاج، والفيروز، والصدف، والبرونز المنقوش، أو الحجارة الكريمة. وكانت المناضد تصنع أحياناً من خشب السرو أو الليمون الغالي، وكان بعضها يصنع من الذهب أو الفضة، والكثير منها يصنع من الرخام أو البرونز. أما المقاعد فكانت على أ شكال لا حصر لها، منها مقاعد تطوى إلى عروش للأباطرة ولكنها كانت أقل تشويهاً للعمود الفقري من مقاعد هذه الأيام. وكانت الأسرّة تتخذ من الخشب أو المعدن، وكانت ذات أرجل رفيعة ولكنها ثابتة متينة تنتهي في كثير من الأحيان برؤوس الحيوانات أو أقدامها، وكانت عليها شبكة برونزية تحمل حشية القش أو الصوف بدل الشبكات اللولبية التي تستخدم في هذه الأيام. وكانت نضد رشيقة ذات ثلاثة أرجل تستخدم في الأغراض التي تستخدم فيها نضدنا، وكانوا يضعون في أماكن مختلفة من الحجرات خزانات ذات عيون لتوضع فيها الكتب الملفوفة. وكانت مواقد من البرونز تدفئ الحجرات، ومصابيح من البرونز تضيئوها. وكانت المرايا تصنع أيضاً من البرونز، وتصقل صقلاً جيداً، وتنقش عليها أو تحفر فيها أزهار أو صور خرافية. وكان بعضها محدباً أو مقعراً أفقياً أو رأسياً لكي يغير من الصور المعكوسة عليها فيجعلها رقيقة أو ضخمة تثير الضحك.

وكانت مصانع كمبانيا تستخدم منتجات المناجم الأسبانية الفنية فتصنع الكثير من الآنية الفضية لتباع في الأسواق، وبذلك انتشرت صحاف الطعام الفضية في بيوت الطبقتين الوسطى والعليا. وقد عثر أحد الحفارين في عام ١٨٩٥ في حوض لبيت ريفي في بسكوريل Boscoreale على مجموعة عجيبة من الآنية الفضية لعل مالكها قد وضعها فيه قبل أن ينجو بحياته من نيران بركان ويزوف حين ثار في عام ٧٩ م، ووجدت على أحد الأقداح نقوش لا يكاد يمسسها أذى لأوراق نباتية بسيطة، ووجد على قدحين صورة هيكلين عظيمين بارزين، وعلى إناء آخر صورة أغسطس بين الزهرة والمريخ وهما الإله والآلهة اللذان يتنازعان فيما بينهما السيطرة على الجنس البشري، ومنها قدح يدل على شدة الخبث والدهاء وعليه نقش يمثل زينون الفيلسوف الرواقي يشير في سخرية إلى أبيقور وهو يلتهم قطعة كبيرة من الفطائر، وإلى جانبه خنزير رافع ساقه الأمامية يسأله في أدب جم أن يعطيه قطعة منها.

الحفـــر :

ويدل على ما وجد من النقود والجواهر في عصرـ الإمبراطورية الأول على ما وصـل إليه فن الحفر من رقي. ويدل على ما وجد منها من عصر أغسطس على نفس الذوق الجميل الذي تدل عليه الر سوم التي يشاهدها الإنسان على مذبح السلام كما يحتوي أحياناً على نفس هذه الر سوم. وكانت الأحجار الكريمة المستوردة من أفريقية وبلاد العرب والهند تقطع وتركب في الخواتم، ودبابيس الصدور، والعقود، والأسـاور، والأقداح، بل وفي الجدران أحياناً. وكان لبس خاتم في إصبع واحدة على الأقل من الضرورات الاجتماعية التي لا غنى عنها، وكان من المت'رفين عدد قليل يلبسون خواتم في جميع أصابعهم عدا واحدة منها. وكان الروماني يطبع إمضاءه بخاتمه، ولهذا كان يحرص على أن يكون هذا الخاتم فر يداً في رســـمه. وكان من بين الفنانين الذين ينالون أعلى الأجور عدد من قاطعي الجواهر أمثال آل د سكوريدس الذين صنعوا خاتم أغسطس. وقد و صل العصر الذهبي في قطع حجر القمو إلى مستوى من الرقي لم يفقه فيه عصر آخر، ولا يزال أجمل ما وجد في العالم من جواهر جوهرة أغسطس **Gemma Augusta** المحفوظة في ڤينا. وكان جمع الجواهر والحلي ذات النقوش البارزة هواية أثرياء الرومان-ومنهم بمبي وقيصر وأغسطس. وقد ظل ما في خزائن الأباطرة من جواهر يتكاثر على مر الزمن بما ورثوه منها عن أسـلافهم حتى باعه ماركس أورليوس لينفق من ثمنه على حربه ضـــد المركوماني. وقد أخذت إنجلترا منصـــب حافظ الخاتم الأكبر أو الخاص عن منصـــب حارس الأختام والجواهر الإمبراطورية في أيام الرومان.

الخـــزف :

وفي هذه الأثناء كان خزافو كبوا، وبتيولي، وكومية، وأرتيوم يملأون بيوت الإيطاليين بجميع أنواع الآلية الخزفية. وكان في أرتيوم خوابي للخلط تتسـع لعشرـة آلاف جالون. وقد ظل ما تصـنعه من صـحاف الطعام المطلية بقشرـة زجاجية حمراء مدى قرن كامل أكثر الصـحاف انتشـاراً في إيطاليا. ووجدت بعض هذه الصـحاف في إيطاليا بأجمعها فلم يكد يخلو منها مكان واحد فيها. وكانت الأختام الحديدية البارزة الحفر تسـتخدم في طبع كل مزهرية ومصـباح وقطعة من القرميد باسم صانعها، وكان يطبع عليها أحياناً اسما القنصلين الحاكمين دلالة على تاريخ صنعها.

هذا هو الحد الذي بلغه علم القدماء بفن الطباعة، وقد تركوه دون أن يرتقوا به إلى ما فوق هذا القدر، لأن النسّاخين الأرقاء كانوا يتقاضون أجوراً قليلة .

الزجــاج :

انتقل صـناع كوميا، ولترنوم، وأكويليا، من صـنع الخزف إلى صـنع الزجاج الفني الجميل. ومن أشـهر أمثلة هذه الآنية الزجاجية مزهرية پورتلاند وأجمل منها "المزهرية الزجاجية الزرقاء" التي عثر عليها في بمبي والتي نقش عليها عيد خمري لباخوس نقشـاً جميلاً ينبض بالحياة . ويقول پلني الأكبر واسـترابون: إن فن صـنع الزجاج قد نُـــقل في عهد تيبريوس من صـيداوالإسـكندرية إلى روما، وسرعان ما أخرج فنانوه قنينات صـغيرة، وقداحاً وطاسـات، وأواني أخرى متعددة الألوان دقيقة الصنع، جميلة المنظر أصبحت في وقت ما مطلب الأثرياء وجامعي الروائع الفنية. وقد

عرض في عهد نيرون ستة آلاف سسترس ثمناً لقدحين صغيرين من الزجاج المعروف في هذه الأيام باسم"ميلفيوري"Millefiori أو "الزهرات الألف"، صنعا بصهر عصى زجاجية مختلفة اللون. وكان أغلى من هذين ثمناً مزهريات "مورهين"Murrhine التي جيء بها من آسيا وأفريقيا. وكانت تصنع بوضع خيوط رفيعة من الزجاج الأبيض والأرجواني بعضهما بجوار بعض للحصول على الرسم المطلوب، ثم إشعال النار فيها، أو ترصيع جسم أبيض شفاف بقطع من الزجاج الملون، وقد جاء پومپي بروائع من هذا النوع إلى رومة بعد انتصاره على مثرداتس. واحتفظ أغسطس لنفسه بكأس كليوبطرة المصنوعة من زجاج مرهين، وإن كان قد صهر صحافها الذهبية. وقد دفع نيرون مليون سسترس ثمناً لقدح من هذا النوع، وكسر پترونيوس قدحاً آخر وهو يحتضر حتى لا يقع في يد نيرون. ويمكن القول بوجه عام إن الرومان لم يفقهم أحد في صنع الزجاج؛ وقلَّ أن يوجد في العالم مجموعات فنية أثمن من مجموعة الآنية الزجاجية الرومانية المحفوظة في المتحف البريطاني وفي متحف متروپوليتان للفنون بنيويورك.



قدح قفصي من كولونيا عُثر عليه في ميونخ، يعود إلى منتصف القرن الرابع الميلادي. مجموعة Staatliche Antikensammlung



مختارات من الزجاج الگالو-روماني من القرن الرابع

النحت الروماني :

انتقل فن الخزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق-من نقوش بارزة، وتماثيل صغيرة، ولعب، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسمك-حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي. وقد وجد الشيء الكثير من هذه في خرائب بمبي. وكانت قواصر الهياكل وطنفها تزينها نقوش تمثل سعف النخل ومثقفات وميازيب في صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة. وكان اليونان يسخرون من هذه الحليات، وقد أصبحت في عهد الإمبراطورية من الطرز العتيقة، ولم يكن أغسطس ممن يحبون أن تزين القصور بالطين محروقاً كان أو غير محروق.

ولعل ذوقه الأتيكي هو الذي سما بفني النقش والنحت حتى بلغا من الروعة في روما منزلة تضارع ما بلغته أحسن النقوش والتماثيل في البلاد التي امتدت إليها الحضارة اليونانية؛ فقد ظل الفنانون في روما جيلاً ينحتون الفساقي، و شواهد القبور، والعقود، والمذابح نحتاً تبدو فيه رقة الشعور، ودقة العمل، وروعة الشكل، وهدوءه، كما يبدو فيه قدر من التشكيل ومراعاة المنظور يرفع النقوش الرومانية إلى مستوى الآيات الفنية العالمية.

أما النحت فحسبنا أن نقول فيه إن مجلس الشيوخ احتفل بعودة أغسطس إلى روما في عام ١٣ ق. م بعد أن أعاد السلام إلى أسبانيا وغالة بأن أمر بإقامة "مذبح السلم الأغسطية Ara Pacis Augustae" في ميدان المريخ. وهذا المذبح أفخم ما بقي من أعمال النحت في روما، ولعل شكل مأخوذ عن مذبح برجموم Pergamum، ولعل فكرته مأخوذة عن طنف البارثنون المنقوش. وقد أقيم المذبح على مرتفع قليل في م ساحة م سورة شيد بعض أ سوارها من المرمر المنقوش. وكل ما بقي من هذا الهيكل قطع من هذه الأسوار . وتمثل إحداها تلس Tellus-الأم الأرض-وبين ذراعيها طفلان، وإلى جانبها ينمو الحب والزهر، وعند قدميها ترقد حيوانات وادعة راضية. وتلك هي المبادئ

الرئيسية التي قامت عليها إصلاحات أغسطس: عودة السرة إلى أحضان والديها، وعودة الأمة إلى الزراعة، وعودة الإمبراطورية إلى السـلم. والرسـم الأوسـط لا يكاد يفوقه رسـم آخر مهما عظم، والحق أن فيما جمعه من الأمومة الناضـجة، والجمال الأنثوي، ورقة القلب، ورشـاقة الشـكل، لكمالاً ورقة لا ترقى إليهما آلهات البارثنون الفخمة العظيمة. "وكان لطنف السور الخارجي بروز سفلي ذو درج مسنفة ، أو منقوش عليها تويجات الفاوانيا والخشخاش العريضة، وعناقيد كبيرة من ثمار اللبلاب. وهذه أيضاً نجد لها نظيراً في غير هذه التحفة الفنية. وعلى بروز آخر نقش موكبان يتحركان في اتجاهين متضادين ليلتقيا أمام مذبح آلهة السلام. وفي هذه المجموعات صور هادئة وقورة لعلها صـور أغسـطس وليفيا والأسرة الإمبراطورية، ومعها عدد من النبلاء والكهنة والعذارى الفسـتية والأطفال. وصـور الأطفال واقعية جذابة تسـتلفت النظر بحيائها وطهرها. ومن بينها طفل رضـيع يحبو كأنه لا يجد لذة في هذا الاحتفال، وآخر وهو ولد يفخر بما بلغه من العمر، وطفلة صـغيرة بيدها طاقة زهر، وأخرى تؤنبها أمها على عمل خبيث ومن ذلك الحين بدأ الأطفال يكون لهم شأن متزايد في الفن الإيطالي؛ ولكن فن النحت الروماني لم يصل في يوم من الأيام إلى ما وصـل إليه وقتئذ من قدرة على تصـوير السـجف، والمجموعات الطبيعية القوية المؤثرة، وتنظيم الأضـواء والظلال تنظيماً أوفى على الغية في الإتقان. وقد وجد الإيطاليون في هذا النقش كما وجدوا في شـعر فرجيل أكمل وسيلة للدعاوة لأنفسهم وإذاعة مجدهم في أنحاء العالم.

وليس ثمة نقوش رومانية تضـارع هذه النقوش إلا النقوش المنحوتة على الأقواس التي كانت تقاوم عند دخول القواد الظافرين. وأجمل ما بقي من هذه الأقواس قوس تيتس الذي بدأه فسبازيان وأتمه دومتيان لتخليد ذكرى فتح بيت المقدس، ويمثل أحد هذه النقوش المدينة المحترقة، وأسـوارها المهدمة، وأهلها الذين اسـتولى عليهم الرعب، وثروتها التي تنتهبها الفيالق الرومانية. ويمثل نقش آخر تيتس يسير إلى روما في مركبته بين الجنود، والحيوانات، وكبار الحكام، والكهنة، والأسرى، ومن ورائه ثريات الهيكل المقدسـة وغيرها من غنائم الحرب على اختلاف أنواعها. وقد كان الفنانون الذين حفروا هذه الرسـوم جد جريئين في تجاربهم: فقد حفروا صـوراً تختلف باختلاف المسـتويات، ووزعوها على سـطوح متفاوتة الارتفاع، ونحتوا خلفية الصـورة بحيث تمثل العمق، ولونوا الصـورة كلها لتحمل إلى الرائي درجات مختلفة من الاكتظاظ والبعد، فوق ما تحمل من المعاني الأخرى. وأما الأعمال التي تمثلها الصـورة فلا تظهر كأنها حوادث متفرقة بل تبدو مستعمرة دائمة، كما تبدو في طنف بلاد النهرين ومصر، وكما تبدو فيما بعد على أعمدة الإمبراطورين تراجان وأورليوس؛ وبذلك اسـتطاعت أن تمثل معنى الحركة والحياة على خير وجه. كذلك لم يعمل العرف والمثل الأعلى عملهما في الصورة فيخرجاها عن الواقعية ويفرضا عليها ما فرضه الفن الأتيكي على صور "مذبح السـلام" اليوناني؛ بل إن أناسه أناس واقعيون من لحم ودم وأقذار نحتوا على سـنن التقاليد الإيطالية تقاليد الواقعية والحيوية. ولم يكن موضوعها هو الآلهة المكملة بل كان هو الآدميين الأحياء.

وهذه الواقعية القوية هي التي تميز فن النحت الروماني. ولولا إخلاص الرومان المتواتر لهذه النزعة المتأصلة في نفوسهم لما أضافوا إلا القليل لعالم الفن. وقد حدث في عام ٩٠ ق. م أن جاء على روما رجل يوناني من أهل إيطاليا الجنوبية يدعى بستليز Pestiles، وأقام فيها ستين عاماً كاملة، أخرج فيها تحفاً فنية من الفضة والعاج والذهب، وجاء إليها بالمرايا الفضية، وأخرج نسخاً متعددة من روائع الفن اليوناني، وكتب خمسة مجلدات عن تاريخ الفن. فكان بذلك فساري و سليني زمانه في آن واحد. كذلك قدم يوناني آخر يدعى أرسسلوس لقيصر تمثالاً ذائع الصيت لفينوس جنتركس. ونحت أبولونيوس الأثيني تمثال الترسو بلفدير Torso Belvedere في الفاتيكان، وهو تمثال خلت فكرته من الغلو، فليس فيه عضلات بارزة، بل يمثل رجلاً في كمال القوة وصحة الجسم، ولعل نحته في روما نفسها. وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا التمثال أنه بلغ الكمال غلى الحد الذي كان يبغي صاحبه أن يمثله فيه. وقد ظلت مناحت الفنانين وقتاً ما تعمل جاهدة في إعطاء الآلهة الإيطالية صوراً يونانية، ولم تستثن من ذلك التجريدات القدسية كالفرصة والعفاف. ويغلب على الظن أن جليكون Glycon الأثيني نحت في هذا الوقت نفسه وفي مدينة روما تمثال هرقل الفرنيزي. ولسنا نعرف متى صنع تمثال أبلو بلفدير ولا متى صنع، ولعله صورة رومانية لتمثال أصيل نحته ليوكارس Leochares الأثيني. ويعرف كل طالب علم كيف آثار جماله الهادئ نشوة ونكلمان Winkelmann الأورانية . ونحت ليونو في ذلك الوقت تمثالين هما تمثال يونو الفرنيزية المنحوت من حجر السماق والمحفوظ في متحف نابلي، وتمثال يونو اللدفيزية المحفوظ في ترم Terme-وهو تمثال فاتر، عابس، ينم عن الاستقامة والعدالة؛ إذا نظر إليه الإنسان بدأ يفهم طواف جوف وتجواله.

كانت هذه التماثيل كلها كما كان تمثال برسيوس واندرمدا Perseus and Andromeda الجميل المحفوظ في متحف الكبتول من الطراز اليوناني الذي اتخذ طرازاً عاماً في النقش ومثلاً أعلى له، وقدس تقديساً يبعث على الأمل والسآمة. وأكثر من هذه النقوش إلفاتاً للنظر واسترعاء للانتباه التماثيل النصفية التي هي بمثابة معجم من البرونز والرخام لجميع وجوه الزمان من عهد بمبي إلى عهد قسطنطين. وهذه أيضاً قد اتخذ بعضها مثلاً أعلى وخاصة رأسا يوليوس وكلوديوس، ولكن النزعة الواقعية التسكانية القديمة ومغميات الموتى التي لم يكن فيها شيء من المجاملة والملق، والتي لم تكن تغيب قط عن أعين المثالين، قد جعلت الرومان لا يستنكفون قط أن يمثلوا بمعارف قبيحة على شرط أن يظهروا في تماثيلهم أصحاء أقوياء. وقد أوصى الكثيرون منهم بتماثيلهم للميادين والأماكن العامة، وبلغت هذه التماثيل الموصى بها من الكثرة حداً خيل معه في وقت من الأوقات أن الذين يملكون روما من الموتى أكثر ممن يملكونها من الأحياء؛ وقد بلغ من حرص بعض الكبراء على أن توضع تماثيلهم في الأماكن أنهم لم يصبروا حتى تنصرم

آجالهم، فأقاموا لأنفســـهم تماثيل قبل وفاتهم. ودفعت الغيرة الأباطرة إلى تحريم هذه العجلة في التخليد حتى تتسع روما للأحياء من أبنائها.



التفاصيل من عمود تراجان مع منجنيق



مشهد استعاري للإمبراطور أغسطس،
يلاحظ استمرار النمط اليوناني في منحوتات الدولة الرومانية.

البورتريه :

وأعظم التماثيل النصفية الملونة هو التمثال المعروف باسم "رأس قيصر" المصنوع من حجر البازلت والمحفوظ في متحف برلين. ولسنا نعرف من الذي يمثله هذا التمثال النصفي رغم هذه التسمية، ولكن شعره القليل، وذقنه المحدد، ووجهه الرفيع البارز العظام، وما فيه من خطوط عميقة دالة على كثرة القلق والتفكير، والعزيمة المستسلمة للحقائق بعد أن زالت عن الأعين غشاوتها وعن العقول أوهامها، كل هذه تتفق مع صفات قيصر الذي تعزو إليه الرواية هذا التمثال.

ويلي هذا التمثال النصفي في القدر مباشرة التمثال الضخم الذي يمثل رأس قيصر والمحفوظ الآن في نابلي: وفي هذا التمثال تعمقت أخاديد الوجه حتى نمت عن حقد ومرارة، كأن هذا الجبار قد عرف آخر الأمر أن ليس في العالم عقل بلغ من السعة قدراً يمكنه من فهم العالم دع عنك حكمه. وترى الواقعية التي تصل إلى حد يبعث على الاشمئزاز بادية في تمثال بمبي المقام في ناي كارلسبرج جلبتوتك **Ny Carlsberg Gluptotek** بكوبنهاجن **Copenhagen** وينطق هذا التمثال بأن صاحبه قد نسي في البداية الكهولة وهزائمها ما ناله بشجاعته من مجد ونصر في عهد الشباب. ولدينا لأغسطس نحو مائة تمثال، كثير منها جيد غاية الجودة، متقن غاية الإتقان منها : تمثال أغسطس الغلام (المحفوظ في الفاتيكان) والذي يبدو فيه صاحبه جاداً ثاقب البصر نبيلاً-وهو أجمل صورة لغلام حقيقي في جميع عصور التاريخ على الإطلاق. ومنها تمثال أغسطس في الثلاثين من عمره (المحفوظ في المتحف البريطاني)-وهو تمثال من البرونز تبدو فيه العزيمة القوية الصادقة، ويذكرنا بقول ستونيوس إن الإمبراطور كان يسعه أن يطفئ نار الفتنة بنظره؛ ومنها تمثال أغسطس القس (في متحف ترم) ذو الوجه الدال على التفكير العميق بارز من السجف المحيطة به من كل جانب؛ وتمثال أغسطس القائد الذي عثر عليه في خرائب قصر ليفيا الريفي في بريما بورتا **Prima Porta** والمحفوظ في الفاتيكان؛ وقد غطى الدرع البرونزي الذي يحمل صدر هذا التمثال الشهير بنقوش غريبة تربك الناظر وتحوله عن تأمل التمثال نفسه . ووقفة أغسطس كما يصورها هذا التمثال ثابتة قوية، وساقاه أقوى ما تكونان لشخص عليل مثله؛ ولكن الرأس يمثل القوة الهادئة، والثقة بالنفس تكشف عن يد الفنان العظيم ونفسيته.

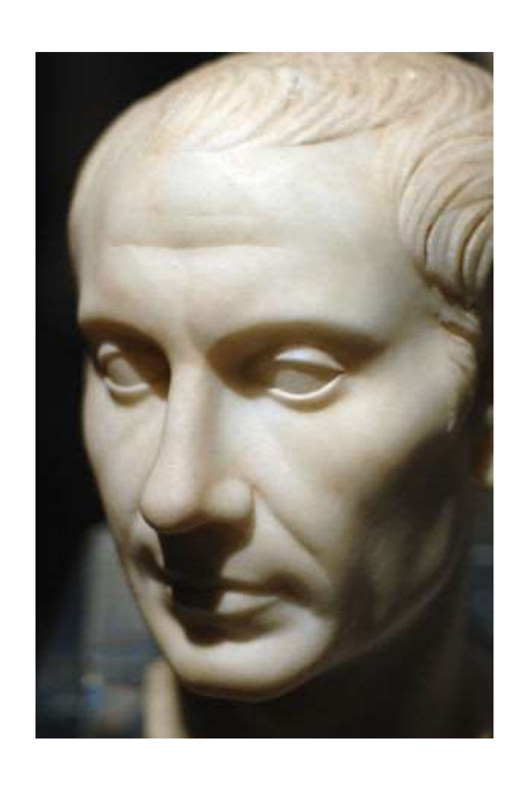
وكانت ليفيا حسنة الحظ إذا سخرت الأقدار فناناً عظيماً لصنع رأسها المحفوظ في كوبنهاجن. ترى في هذا الرأس الشعر الجميل، والأنف الروماني الأقني الذي ينم عن قوة الخلق، والعينين الدالتين على الحنان والتفكير، والشفتين الجميلتين الدالتين على القوة والثبات. وتلك هي المرأة التي وقفت وراء عرش أغسطس تدعمه بهدوئها، والتي غلبت جميع منافسيها وأعدائها، وسيطرت على الناس جميعاً عدا ولدها. وكان تيبيريوس هو الآخر رجلاً محفوظاً. ذلك أن تمثاله الجالس المحفوظ في متحف لاتران، وإن نحت على طراز مثل أعلى موضوع، يعد آية فنية أخرجتها يد مثال لا يقل براعة عن المثال الذي نحت من حجر الديوريت تمثال خفرع المحفوظ في المتحف المصري. أما كلوديوس فلم يكن حظه حظ من سبقوه، وما من شك في أن المثال كان يسخر منه، أو أنه كان يمثل الصفات التي وصفه بها سنكا في هجائه المشهور. فقد صوّره في صورة جوبتر المتعب المتضجر، بديناً، ظريفاً، أبكم. وأجهد نيرون نفسه في أن ينمي

حا سة الإحساس بالجمال؛ ولكن أعظم ما كان يرغب فيه هو الشهرة والضخامة، ومن أجل هذا لم ير لزنودوتس Zenodotus اسكوباس Scopas زمانه شيئاً أفضل من أن يقضي وقته في نحت تمثال له في صورة أبلون يعلو مائة وسبع عشرة قدماً . وأمر هدريان أن يوضع هذا التمثال في صدر المدرج الفلافي، ومن ثم سمى هذا المدرج باسم الكلوسيوم Collosseum لضخامة هذا التمثال .

وعاد فن النحت إلى واقعيته في عهد فسبازيان الأمين، فسمح لمثاليه أن يكونوا صادقين في تصويره في صورة السوقي الحق، ذي معارف غليظة خشنة، مغضن الجبهة، أصلع الرأس ضخم الأذنين. وخير من هذا وأكثر منه دلالة على الرحمة التمثال النصفي المحفوظ في ترم Terme، والذي يدل على نفس شغلتها شئون الدولة عن نفسها؛ ووجه رجل الأعمال الذي يطل على الناظر إليه من الأس الضخم المحفوظ في متحف نابلي. ويصل إلينا تيتس في جمجمة كالسابقة مكعبة الشكل، ووجه غير جميل. وإن المرء ليصعب عليه أن يعتقدا أن هذا الشخص الذي يبدو في تمثاله كأنه من الباعة المتنقلين هو حبيب البشر أجمعين. وقد أوتي دومتيان من بعد النظر في العصر الفلافي ما جعله يعمل على أن يبغضه الشعب في حياته فيحطم جميع تماثيله بعد وفاته.

ولما خرج الفنان من القصر وأخذ يجول في الشوارع استطاع أن يطلق العنان للنزعة الإيطالية الخبيثة، نزعة الحقيقة الفكهة المضحكة. وما من شك في أن شيخاً طاعناً في السن أقل حكمة ومالاً من الوزير الفيلسوف هو الذي يصوره التمثال الهزيل الكث الشعر الذي كانوا يقولون عنه من قبل غنه تمثال سنكا. واستطاع الفنانون المشهورون في فترة من الزمن أن يمثلوا عضلات الرياضيين تمثيلاً يخلدها على مدى العصور. وشقت تماثيل المصارعين طريقها إلى أكبر البيوت، سواء كانت بيوت الأثرياء الريفية أو قصور الكبراء في الحواضر. وكان المثالون الرومان رحماء وهم ينحتون تماثيل النساء: فتراهم بين الحين والحين ينحتون تمثالاً لامرأة سليطة حمقاء، ولكنهم صنعوا بالإضافة إلى هذا تماثيل لبعض العذاري الفسقية، ومثلوا وقارهن ورشاقتهن أحسن تمثيل، كما صنعوا في بعض الأحيان تماثيل تتجلى فيها رقة القلب مجسمة كتماثيل الكليتي Clytie المحفوظة في المتحف البريطاني، وأخرى لنساء من الأشراف هشة لينة تسحر اللب سحر دُمَى وتو Watteau أو فروجونارد Frogonard(٢٣). وكانوا جد بارعين في تمثيل الأطفال كما يدل على ذلك تمثال الغلام البرونزي المحفوظ في متحف نيويورك، أو تمثال الطفلة البريئة المحفوظ في متحف الكبتول. وكان في وسعهم أن ينحتوا أو يصبوا تماثيل حيوانات مدهشة في دقتها ووضوح معالمها، كما نرى ذلك في رؤوس الذئاب التي وجدت في نيمي عام ١٩٢٩، أو الخيل الواثبة في سانت مارك St. Mark. نعم إنهم لم يبلغوا قط ما بلغته مدرسة بركليز الفنية من كمال وبراعة في الصقل؛ ولكن منشأ هذا النقص أنهم كانوا يحبون الفرد أكثر مما يحبون الطراز، وأنهم كانوا يعتزون بالنقائص الحقيقية التي هي سمة الحياة. وقصارى القول أن هؤلاء الفنانين رغم قصورهم قد سموا إلى أعلى مكانة في تاريخ الفن التصويري.





فن البورتريه الروماني يتميز بواقعية "الدمامل وكل التفاصيل"

تمثال لرأس يوليوس قيصر



تمثال انطونيوس ١٣٠ ق.م

.

تصوير الانتصارات:

لقد كان من يزور روما في الزمن القديم يجد فن التصــوير أكثر انتشــاراً من فن النحت في هياكلها ومســاكنها، وأروقتها، ذات العمد، وميادينها؛ وكان يعثر فيها على الكثير من أعمال كبار الفنانيين الأقدمين أمثال بولجنوتس Polygnotus وزيوكســيس Zeuxis، وأبليز Appeles، وبروتجنيس Protogmese وغيرهم. ولم تكن الأعمال أ قل قيمة أو أقل تقديراً في الإمبراطورية الواســعة الثراء من صــور عهد النهضــة الأوربية في أمريكا الغنية في هذه الأيام؛ وكان يجد أعمال ر سامي الإ سكندرية ورومة أعظم وفرة في رومة القديمة من صور النهضة في أمريكا الحديثة وذلك لحســن تعهدها وشــدة العناية بحفظها. لقد كان الفن قديماً في إيطاليا حيث كان كل جدار يتطلب الفن، والتجميل. وأتى على إيطاليا حين من الدهر كان نبلاؤها أنفسهم يمارسون هذا الفن، ولكن تيار الحضارة الهلنستية الجارف جعل التصوير يوناني الطابع شديد الخضوع للعرف والتقاليد حتى أنتهى الأمر بأن عجب فالريوس مكسمس Valerius Maximus من أن فابيوس بكتور Fabius Pictor ينزل من علائه فيصور على جدرانه "هيكل الصحة" . غير أنا نجد حالات شــاذة لا ينطبق عليها هذا التعميم: من ذلك أن أرليوس Arellius قد ذاع صــيته في أواخر عهد الجمهورية لأنه كان يستأجر العاهرات ليكن نماذج لصور الآلهات؛ وحدث في عهد أغسطس أن ا شتغل بالتصوير شريف أبكم يدعى كونتس بديوس Quintus Pedius لأن عاهته قد ســدت في وجهه جميع ســبل الأعمال الأخرى؛ واســتخدم نيرون لتزيين بيته الذهبي مصوراً يدعى أمليوس Amulius كان يرسم في وقار جم وهو مرتد جبته .

ولكن هؤلاء الرجال كانوا متفرقين في بحر المصورين اليونان الخضم الذين أخذوا يخرجون في رومة وبمبي و سائر أنحاء الجزيرة نســخاً من الرســوم اليونانية مطابقة لها أو مختلفة بعض الشيــء عنها، تمثل موضــوعات يونانية أو مصرية.

وكاد فن التصــوير في روما أن يكون مقصــوراً على المظلمات والألوان المائية الممزوجة بمادة غروية لاصــقة توضــع فوق ســطح جاف. وكان المصــورون يلجأون في بعض الأحيان غلى تثبيت الألوان بالحرارة، وذلك بإذابتها في الشــمع الشــديد الحرارة. أما من حيث حجم الصــور فإنا نذكر أن نيرون أمر بأن ترســم صــورته على قطعة من القماش يبلغ ارتفاعها مائة وعشرين قدماً- وهذه الصورة أول ما لدينا من صور استخدم فيها قماش التصوير. وقد سبق القول إن الألوان كانت تستخدم في تلوين التماثيل، والهياكل، والمناظر المسرحية، والصور الكبيرة المرسومة على الأقمشة التيلية لعرضها في السوق العامة في أوقات الاحتفال بالنصر، ولكن مواضعها المحببة كانت هي الجدران الخارجية في المباني. وقلّما كان الرومان يضــعون الأثاث مســتنداً إلى الجدران أو يعلقون عليها الصــور، ذلك أنهم كانوا يفضــلون أن يستخدموا الجدار كله ليرسموا عليه صورة واحدة أو مجموعة من الصور المتصلة بعضها ببعض في موضوعها. وبهذه الطريقة أ ضحت الصورة الجدارية جزءاً متمماً للبيت وعنصراً أ سا سياً في هندسته المعمارية.وقد حفظت لنا أبخرة فيزوف الحارقة نحو ثلاثة آلاف وخمســمائة منها - وهي يزيد عددها في بمبي وحدها على عدد كل ما وجد منها في سائر أنحاء العالم القديم.

وإذ كانت بمبي في أيامها من المدن المتو سطة الحجم غير العظيمة الـ شأن فإن في و سعنا أن نتـ صور عدد الر سوم الجدارية التي كانت تزدان بها المنازل والأضرحة في إيطاليا القديمة. وقد نقل أحســن ما بقي من هذه الرســوم إلى متحف نابلي، ولا يزال لجمالها الهادئ رغم انتقالها إلى مكانها الجديد أعظم الأثر في نفس من ينظر إليها؛ ولكن الأقدمين وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها في عمق ألوانها وفيما بها من إطار هندسي يجعل لكل صــورة من هذه الصور معنى خاصاً وموضعاً خاصاً. وقد تركت الصور الجدارية التي في بيت فتاي في أماكنها الصلية، فترى في المطعم ديونيـ شس يفاجئ أدرياني النائمة، وترى على الجدار المقابل لهذه الـ صورة ديدالس Daedalus يعرض بقرته الخـ شبية على با سفائي Pasifa . وفي الطرف الأقـ صى من الجدار ترى هرمس ينظر في هدوء إلى هفيـ ستس Hephaestus ؛وهو يشــد إكســيون Ixion إلى عجلة التعذيب. ونشــاهد في حجرة ثانية مظلمات مضــحكة متتابعة فيها صــور متعددة لكيوبد إله الحب يـ سخر مما في بمبي من صناعات بما فيها صناعة الخمر في فتاي. وقد عدت عوادي الأيام على هذه الصــورة التي كانت من قبل ناضرة براقة، ولكن ما بقي منها يكفي لأن يشــعر الزائر بما يجب أن يكون عليه من تواضع وحياء، فصور الأجسام البشرية تكاد تبلغ الغاية في الإتقان والجودة، وتكاد تنبض بالحياة وتثير دم الشهوة في عروق الأحياء من بني الإنسان.

ولقد حاول الخبراء أن يفهموا ماهية فن التصــوير في إيطاليا القديمة ويصــنفوا عصــوره وأنماطه بالاعتماد على ما وجدوه من نماذج له في إيطاليا القديمة. وهذه الطريقة في التصنيف خطرة غير مأمونة لأن بمبي نفسها كانت يونانية أكثر منها لاتينية؛ ولكن ما بقي في روما وضواحيها من رسوم قديمة يتفق غلى حد كبير مع تطور فن التصوير في بمبي. ففي الطراز الأول (القرن الثاني قبل الميلاد) حين كانت الجدران تغطي بقشرة كاملة قبل الر سم عليها، كانت الجدران في أغلب الأحيان تلون بحيث تبدو كأنها مطعمة بألواح من الرخام كما تشــاهد في "بيت ســلت" في بمبي. وفي الطراز الثاني أو الطراز المعماري (القرن الأول قبل الميلاد) كان الجدار يطلى ليمثل بناء أو واجهة أو بهواً ذا عمد، وكثيراً ما كانت العمد ترســم كما تبدو للناظر إليها من الداخل، وبينها مظاهر الريف الخلوية، وبهذه الطريقة كان الفنان يـ ضفي على الغرفة التي لا نوافذ لها في أغلب الظن محيطاً ذا نـ سيم عليل من الأ شجار والأزهار والحقول، والجدول، والحيوانات الهادئة أو المرحة اللاعبة.

وكان في و سع ساكنها الـ سجين فيها أن يتخيل أنه مقيم في حدائق لوكلس، ولم يكن ذلك ليكلفه أكثر من النظر إلى الجدران كما كان في وسعه أن يصيد السمك، أو يقتنص الحيوان، أو يداعب الطيور ويدللها، ويعتز بها في غير فصولها وأيامها، وذلك لأن الطبيعة كانت تنقل إليه في منزله فلا يتحمل هو مشــقة الانتقال إليها. وفي الطراز الثالث أو طراز التحلية (١- ٥٠م) كانت الأشــكال الهندســية المعمارية للزينة لا غير، وكانت تضــع المناظر الطبيعية في المنزلة الثانية بعد صــور الآدميين. وفي الطراز الرابع المختلط المعقد كان الفنان يترك العنان لخياله يخترع تراكيب وأشــكالاً غريبة، ويضــعها في مواضــعها وهو مرح ســاخر مما تتطلبه الحشــمة والوقار، ويكدس في صــورته الحدائق والعمد والبيوت الريفية والجواســق بعضــها فوق بعض كتشــويش الرســوم في هذه الأيام ؛ وكثيراً ما كان يحصــل بهذا على الأثر الذي تحدثه في الناظر صورة تكملها ذكريات لا وعيية سلطت عليها الأضواء. وكان فن العمارة في جميع هذه الطرز

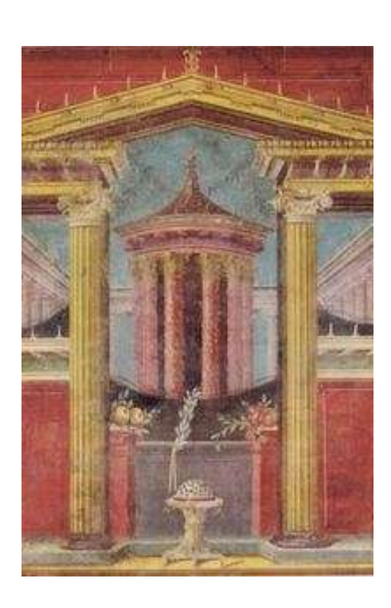
المتقاربة إما خاضعاً للتصوير ومسيطراً عليه يخدمه ويستخدمه، فأنشأ فيه بذلك تقاليد عادت إلى اليقظة بعد ستة عشر قرناً على يدي نقولاس بوسن Nicholas Poussin .

ومن دواعي الأسف أن ما بقي من موضوعات الرسوم الكبرى قلّما يتعدى الأساطير اليونانية؛ فالآلهة، وجن الحراج، والأبطال، والخاطئون المذنبون- زيوس، والمريخ، وديونيشس، وبان، وأخسيل، وأديسيوس، وإفجينيا، وميديا هذه كلها تتكرر تكراراً يبعث على الأمل والسآمة، وإن كانت هذه التهمة بعينها يمكن توجيهها إلى فن النهضة. وثمة صور قليلة تمثل الحياة الهادئة الساكنة، كما أننا نعثر في مواضع متفرقة على مطرقة أو صاحب حانة أو قصّاب يلتمع فوق جدران بمبي. وكثيراً ما يسيطر الحب على المنظر برمته فترى فتاة مطرقة يتنازعها شوق كمين ليس معدوم الصلة بإيروس إله العشق الواقف إلى جانبها، وترى الفتيات والشبان يمرحون على الكلأ يتبادلون نظرات الوجد والهيام، وأرباب الخمر والفسق يلعبون كأن المدينة لم تعرف في حياتها شيئاً غير الحب والخمر؛ وإذا ما حكمنا على نساء بمبي من صورهن التي على الجدران كانت هؤلاء النسوة خليقات بأن يكون جمالهن محور الحياة بأجمعها في تلك المدينة، فنحن نراهن منهمكات في لعبة "الكعاب" أو متكئات في رشاقة على القيثارات، أو نشاهدهن يقرضن الشعر والأقلام بين شفاههن، ودلائل التفكير بادية على ملامحهن، ووجوههن هادئة من أثر النضوج، وأجسامهن سليمة صحيحة كاملة النمو، وأثوابهن مسبلة عليهن، فضفاضة أنيقة كأنها من نحت فدياس، يمشين كأنهن كلهن هلن اليونانية التي سلبت عقل باريس بن بريام، مدركات قداستهن. وترى إحداهن ترقص رقصة باخوسية لعلها في هواء رقيق، وذراعها ويدها وقدمها اليمنى من أجمل ما رأته العين في تاريخ التصوير. ويحب أن تضم إلى هذه الروائع بعض صور الرجال أيضاً كصورة تسيوس Theseus وهو ينتصر على المونوتور Minotaur وهرقل وهو ينجي ديانيرا Deianira أو يتبنى تلفوس Telephus، وأخيل يسلم وهو غضبان آسف برسيس Briseis المتمنعة الآبية. وكل شكل رسم في هذه الصورة الأخيرة يكاد يبلغ الغاية في الكمال ويصل فيه التصوير البمبياني إلى ذروة الإبداع. وللفكاهة أيضاً نصيبها من التصوير؛ فهذا زعيم أشعث يتمثر على عكازته، وهذا جني ظريف يهز ساقيه في مرح تهكمي، وهذا سلينس Silenus أصلع بذيء يصور وهو في نشوة موسيقية. وللحانات والمواخير أيضاً مكانها في زينة الجدران، ولا يجد السائح المتقصي حاجة لأن يقال إن بريابس Priapus لا يزال يزهو بقواه الثمينة على جدران بمبي. وفي الطرف الآخر من هذه السلسلة حيث توجد بيوت الضواحي نرى طائفة من الصور الدينية توحي بأن المكان كان يستخدم للاحتفال بالطقوس الديونيشية الخفية؛ ففي أحد المظلمات نشاهد بنتاً أمعنت في تقواها بغير رفق حتى شلت حركتها، تقرأ في كتاب يبدو أنه كتاب مقدس؛ وفي مظلم آخر يتقدم موكب من الفتيات ينفخن في الأبواق، ويأتين بالقرابين؛ وفي مظلم ثالث نرى سيدة عارية ترقص على أصابع قدميها وإلى جوارها راهبة مبتدئة راكعة على ركبتيها، منهوكة القوى من شدة ما قاست في أحد الطقوس الدينية . وأجمل من هذه كلها نقش جداري عثر عليه في خرائب ستابيا Stabiae من نوع نقوشبوتيتشلي Botticelli ومتقدم عليها، ويسمي هذا النقش الربيع: وهو يمثل امرأة تمشي في حديقة على مهل تقطف الأزهار، ولا يرى منها إلا ظهرها ورأسها تديره بخفة ورشاقة إلى خلفها؛ وقلّما استطاع فن من الفنون أن يصور ما في هذا الموضوع السهل من شاعرية تصويراً مؤثراً في النفس مثيراً للعواطف كما صوره هذا الفنان.

وأقوى ما وجد من الصور في هذه الخرائب صورة ميديا التي عثر عليها في هركيولانيم Herculaneum وحفظت في متحف نابلي، وهي تمثل امرأة مطرقة عليها ثياب فاخرة تفكر في مقتل أبنائها؛ ويلوح لنا أن هذه صــورة منقولة عن الصــور التي أجاز عليها قيصرــ مصــورها تموماكس Timomachus البيزنطي بأربعين ألف وزنة (تالنت) أي ١٤٤٠٠٠ دولار أمريكي.

ولم يوجد في روما إلا القليل من الصــور التي تبلغ هذه المنزلة، ولكن عثر في بيت ليفيا المقام في بريما بورتا Prima Porta على مثل رائع من صــور المناظر الطبيعية التي تســمو فيها إيطاليا على بلاد اليونان، فيه تخدع العين فيظن الإنسان أنه يجتاز بهواً إلى تكعيبة في أرض رخامية من ورائها أجمة من النبات والأزهار بلغت من الإتقان حداً يمكن العالم النباتي في هذه الأيام من أن يتبينها ويصــتفها؛ فكل ورقة من أوراقها رســمت بشــكلها ولونها الطبيعيين، والطيور تجثم على مواضع متفرقة منها كأنها تحط عليها إلى وقت ما، والديدان تزحف بين الأغصان والأوراق. ويقرب من هذه الصورة في روعتها ورقتها عرس الديرنديتي التي وجدت في التل الإسكويلي في عام ١٦٠٦ والتي درسها روبن Rubens وفان ديك وجيتة بحماســة بالغة. وقد تكون هذه منقولة عن صـورة يونانية، وقد تكون صـورة أصـلية من عمل رسام يوناني استوطن رومة، أو من عمل روماني أصيل. وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن ما عليها من صور الأشــخاص- كصــورة العروس الهادئة الحيية، والآلهة التي تســديها النصــيحة، والأم المنهمكة في الاســتعداد للعرس، والعذارى ينتظرن ليعزفن على القيثارة ويغنين- كل هذه قد رسمت برقة وحساسية ترفعان هذا الرسم الجداري إلى منزلة الآثار الفنية القديمة الممتازة.

على أن فن التصــوير الروماني يخلو من عنصرــ الابتكار، وســبب ذلك أن الفنانين اليونان نقلوا معهم تقاليدهم وأساليبهم إلى كل مكان نزلوا فيه، وحتى النزعة الثائرية الغامضة التي في هذه الصور قد تكون من أثر مهارة الفنانين الاســكندريين؛ ولكن فيها مع ذلك دقة في الخطوط، وغزارة في اللون نعرف منهما لم بلغ المصــورون أمثال أبليز Epplles وبروتوجنيز Protogenes من الشهرة مثل ما بلغه منها المثالون من طراز بولكليتس وبركستليز. واللون في بعض الأحيان واضح غزير كما لو كان جيورجيون Giorgione هو الذي وضعه، كما أن تدرج الأضواء والظلال يوحي في بعض الأحيان أنه من عمل رمبرانت Remebrandt. وترى تارة رســماً خالياً من الدقة يذكر الإنســان بواقعيه فان جونج المنفرة. وفن المنظور في الرسم غير صحيح كما أن السرعة في العمل تفسد نضج التفكير. ولكن ما في الرسوم من حيوية نضرــة يغطي على هذه الأغلاط كلها، فتناســب الثياب يخدع العين، ومناظر الغابات والأشــجار كانت بلا ريب من أسباب البهجة لسكان المدن المكتظة بالسكان. ويجب ألا ننظر إلى هذه الرسوم بعين هذه الأيام، فأذواقنا اليوم أقل تحرراً وأكثر تحفظاً من أذواق الأقدمين، ونحن نفضل أن نترك الجدران كما هي مقصورة على وظيفتها، وقد كنا حتى الأمس القريب نتردد في أن نغطيها بالألوان. أما الإيطالي فكان الجدار له بمثابة السجن، وقلّما كان يطل منه على العالم من خلال نافذة؛ ولهذا كان يرغب في أن ينسى هذا الحاجز القائم أمام عينيه، وأن ينخدع بطريق الفن إلى جنان الســلام المخضرــة الناضرة. ولعله كان في تفكيره هذا على حق، فإن شــجرة مرســومة على جدار الخير من منظر يتألف من ألف قمة من قمم ســطوح المنازل الخشــنة غير المصــقولة التي تشــوه جمال الســماء كأنها قرح خبيثة في الشمس، ويطل عليها المرء من نافذة مسحورة في جدار.





بورترية لامرأة المتحف الملكيفي اسكتلندا.فرسك روماني من ٣٠ - ٤٣ ق.م

متحف متروبوليتان للفنون



The Severan Tondo)سيفيرانتوندو)،لوحة من العائلة الامبراطورية



فنان يرسم لوحته - بومبي Pompeii Pompeian



بومبي – النمط الثاني Pompeii -Boscotrecase

العمارة الرومانية:

ورثت العمارة الرومانية من الأغريقية كافة فنونها في العمارة والنحت والزخرفة وكان فناً ديكتاتورياً ينتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية بمعنى أن ما كان ينفذ في روما كان ينفذ في جميع ولايات الإمبراطورية. وبالرغم من هذا نجد بعض الاختلاف في بعض المعابد والتي اضطرتها الظروف أن تتخذ هذا الشكل إما بسبب تغير الزمن أو المكان كما هو موجود في بعض المعابد الرومانية بسوريا حيث اهتم المعماري السوري في العصر الروماني بهيئة التقطيع عن مثيله في أي مكان آخر.

كما ذكرنا فالعمارة الرومانية قد اشتقت كل عناصرها تقريباً من الحضارة الإغريقية ولكن الرومان أضافوا طابعهم الخاص الذي لا يخطئه أحد, ويتضح هذا التأثر في معبد ((فورتينا فيرليس-٢ ق.م))في روما وهو من أقدم المعابد الرومانية ومن أجملها وأهم ما يميز الحضارة الرومانية هو الطريق الجديد الذي انتهجته هذه العمارة بحيث إنها اتجهت إلى الاهتمام بالمباني الدنيوية عن الدينية فلم يهتموا بالمعابد الدينية فكانوا يكتفون بمحراب في كل بيت ، ومن أهم المعابد الدينية والذي يعتبر نموذجاً آخر من النماذج المعمارية سيباي في تيفولي وقد استخدمت فيه الخرسانة والتي استخدمت من قبل الشرق ولكن في التحصينات, وقد عرف الرومان كيفية إخفاء الشكل الغير مقبول للخرسانة عن طريق تكسيتها بالطوب أو الحجر.

كما أنهم اتجهوا إلىالاهتمام بالأماكن العامة عن الخاصة وأيضاً استخدام العقود بأشكالها المختلفة والتي اتخذت عدة أشكال جميلة.كما أنشات مرافق التسلية كالمدرجات والمسارح كما انشات الطرق والمدن . وقد تأثرت العمارة الرومانية بالمبانى اليونانية فى سيسيليا وجنوب ايطاليا ويظهر ذلك في الطراز اللى استخدمته فى بناء مبانيهم. وتوصل الرومان لأشكال معمارية ثورية ، الأقواس كانت عنصرها الأساسى فى البناء. ومن مميزات العمارة الرومانية ارتباطها بفن النحت والرسم الذي تأثر بالفن اليونانى .

وصلت العماره والفنون الرومانيه لذروتها فى عهد الامبراطور) تراجان)، وفى العصر الأوغسطي)٣٠ق.م - ١٤م) ظهرت حركة للمواءمة مابين الواقعية ومثالية الفن اليونانى ، و فى عهد هادريان رجع الفن الرومانى للمثالية مرة أخرى مع احتفاظه بالتأثيرات الشرقية.



البانثيون الرومانى

أهم الفنون الرومانية على الإطلاق وهو فن العمارة الذي استطاعت به أن تحمي نفسها من غزو اليونان، والذي أظهرت فيه قدرتها على الابتكار وجرأتها وقوتها. على أن الابتكار لا يكون بغير لقاح فهو كالنسب مزيج جديد من عناصر موجودة من قبل؛ والثقافات جميعها انتقائية في حداثة عهدها لأن التعليم يبدأ بالتقليد، فإذا ما بلغت الروح أو الأمة أشدها طبعت بطابعها-إن كان لها طابع-جميع أعمالها وألفاظها. لقد أخذت روما ، كما أخذ غيرها من مدائن البحر الأبيض المتوسط، نظم العمد الدورية والأيونية والكورنثية من مصر وبلاد اليونان، ولكنها أخذت نظام العقود والأقواس والقباب من آسية، ومن مزيجهما أقامت مدينة من القصور، والأروقة ذات العمد، والمدرجات، والحمامات لم ير العالم مثيلاً لها من قبل. ولقد أضحى فن العمارة الروماني هو التعبير الفني عن الروح الرومانية والدولة الرومانية: فهو يمثل الجرأة، والتنظيم، والفخامة، وقد رفعت القوة العضلية هذه الصروح المنقطعة النظير فوق التلال فكانت هي الروح الرومانية ممثلة في الجلاميد الصم.

وكان معظم كبار المهندسين المعماريين في روما رومانيين لا يونان، وقد كتب أحد هؤلاء المهندسين واسمه ماركس فتروفيوس بليو **Marcus Vitruvius Pallio** كتاباً في العمارة يعد من مهمات الكتب العالمية القديمة في هذا الفن (حوالي ٢٧ ق.م). ذلك أنه بعد أن قضى فترة من الزمن مهندساً حربياً يعمل تحت إمرة قيصر في أفريقية، ومهندساً معمارياً في عهد أكتافيان، اعتزل العمل الرسمي في شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية وأسماها منزلة. وهو يقول عن نفسه "إن الطبيعة لم تهبني طول القامة، ولم تبق السنون على شيء من جمال وجهي، وسلبني المرض قوة جسمي؛ ولهذا أرجو أن أكسب رضاء الناس بعلمي وبكتابي". وكما أن شيشرون وكونتليان قد جعلا الفلسفة من مستلزمات الخطيب، كذلك رآها فتروفيوس من مستلزمات المهندس المعماري، فهي تحسن أغراضه كما يحسن العلم وسائله وأدواته، وهي "تسمو بمداركه وتجعله رقيق الحاشية، عادلاً، وفياً، غير شره، ولا يمكن أن يتم عمل صالح من غير إيمان قوي ويدين طاهرتين" . وقد وصف مواد البناء، والأعمدة، وأجزاءها، ومختلف أنماط المباني في روما، وأضاف إلى الكتاب بحوثاً في الآلات، والساعات المائية، ومقاييس السرعة ، ومجاري مياه الشرب المسقوفة، وتخطيط المدن والصحة العامة. وقد أشار فتروفيوس باستعمال النظام الإشعاعي في تخطيط المدن (وهو النظام الذي خططت عليه المدينة الإسكندرية القديمة وواشنجتن الحديثة) بدل النظام المربع الذي ثبت قواعده هبودامس **Hippodamus** في كثير من المدن اليونانية، أشار فتروفيس باستعمال هذا النظام الإشعاعي ولكن الرومان ظلوا يخططون مدنهم على النظام المربع نظام معسكراتهم. ومما يؤثَر عنه أنه حذّر إيطاليا من أن الماء الذي تشربه في كثير أجزائها يؤدي إلى تضخم الغدة الدرقية، وقال إن التسمم قد ينتج من الاشتغال بالرصاص، وفسر الصوت بأنه حركة اهتزازية في الهواء، وكتب أول بحث باق حتى الآن في علاقة هندسة البناء بالأصوات. وقد كان لكتابه الذي كشف من جديد في عصر النهضة أعمق الأثر في ليوناردودافنشي، وبلاديو **Palladio** وميكل أنجلو.

ويقول فترفيوس إن الرومان يبنون بالخشب والآجر، والجبس الناعم والمسلح والحجر والرخام. وكان الآجر المادة الشائعة الاستعمال في الجدران، والعقود والأقواس، وكثيراً ما كان يستعمل هو والجبس لتغطية الملاط. وكان الآجر يصنع من الرمل، والجير، وتراب الرخام، والماء، ويصقل صقلاً جيداً ويوضع طبقات بعضها فوق بعض، يصل سمكها في بعض الأحيان إلى ثلاث بو صات. ومن أجل هذا ا ستطاع ذلك الآجر أن يحتفظ بـ شكله تـ سعة عـ شر قرناً كما نـ شاهد ذلك في الكلوسيوم أما المسلح فلم تبلغ أمة من الأمم إلى وقتنا هذا ما بلغه الرومان في صنعه واستخدامه، فقد كانوا يأخذون الرماد البركاني الكثير بقرب نابلي، ويخلطونه بالجير والماء، ويضعون فيه قطعاً من الآجر، والفخار، والرخام، والحجارة، ويخرجون منها منذ القرن الثاني قبل الميلاد ملاطاً في صلابة الصخور، يمكن أن يصعب في أي قالب، ولا يكاد يستعصي عليه أي شكل يراد أن يشكل به. وكانوا يصبونه كما نصبه الآن في أحواض مصنوعة من ألواح خشبية. وبفضله استطاعوا أن يغطوا مسافات كبيرة لا عمد فيها بقباب صلبة خالية من الأكتاف الجانبية التي تحمل السقف المقوس. وهذه هي الطريقة التي شيّدوا بها قمة البانثيون، وقمم الحمّامات الكبرى. وا ستخدمت الحجارة في تـ شييد معظم الهيكل وبيوت الكبراء، وكان من أنواعها نوع نصف شفاف يستخرج من كبدوكية ينفذ الضوء من خلاله، حتى أن هيكلاً بنى به كان ينال كفايته من ضوء النهار وجميع نوافذه مغلقة.

وبدأت رغبة الرومان في ا ستخدام الرخام على أثر فتح بلاد اليونان، وقد أ شبعوا هذه الرغبة با ستيراد العمد أولاً، ثم باستيراد الرخام، ثم باستخراجه من محاجر كرارا القريبة من لونا Luna . وكان استخدام الرخام قبل أيام أغسطس مقصوراً على الأعمدة والألواح المستوية، ثم استخدم في عهده لتغطية الآجر والمسلح؛ وإذا ما قال إنه ترك روما مدينة من الرخام فيجب ألا يفهم من قوله هذا أكثر من المعنى السالف الذكر، وهو أن بعض ما فيها من آجر ومسلح في أجزاء متفرقة منها قد غطى بألواح من الرخام. أما الجدران المشيدة من الرخام المصمت فكانت نادرة، وكان الرمان يميلون إلى أن يجمعوا في البناء الواحد بين حجر مـصل الأعبل الأحمر والرمادي، وحجر عوبية البصلي ذي اللون الأخضر ورخام نوميديا الأسود والأصفر، وبين رخامهم الأبيض المستخرج من محاجر كرارا وأحجار البازلت، والمرمر، والحجر السماقي؛ ولم تبلغ مواد البناء في عصر من العصور ما بلغته في روما من تعدد في الأنواع والألوان.

وقد أ ضافت روما إلى الطرز الدورية، والأيونية، والكورنثية الأنماط التـسكانية والأنماط المركبة من خليط من هذه كلها أو من بعضها بصورها الأصلية أو بتعديل فيها. وكثيراً ما كانت العمد تقام من حجر واحد بدل أن تكون من حجارة مثقوبة يرتكز بعضها فوق بعض. وكانت للعمد الدورية قواعد أيونية، واتخذت لها شكلاً جديداً رفيعاً خالياً من الثنايا، وقد تكون للتيجان الأيونية التي تعلو الأعمدة أربع تلافيف في بعض الأحيان حتى يكون منظرها واحداً من جميع الجوانب؛ أما العمد والتيجان الكورنثية فقد بلغت في تطورها حداً من الجمال والرقة لم تبلغه نظائرها اليونانية وإن كان الإفراط في التجميل والتنميق قد أفـسد هذا الطراز من العمد في العـصور المتأخرة. ومثل هذا يقال عن الإفراط في ر سم الأزهار فوق التلافيف الأيونية لـصنع التيجان المركبة من طرز مختلفة كما نـشاهد ذلك في قوس تيتس. وكانت التلافيف تنتهي أحياناً بأشكال حيوانية أو آدمية توهم الرائي بأنها ميازيب على صورة حيوانات أو أناس على غرار ما صنع منها بعدئذ في العصور الوسطى. وكثيراً ما كان الرومان المسرفون يخلطون بين طرز مختلفة في

البناء الواحد، كما نشـاهد ذلك في ملهى مارسـلس؛ يضـاف إلى هذا أنه قد بلغ بهم الشـح في بعض الأحيان حداً جعلهم يتركون العمد الجانبية ملتصقة بجسم الهيكل نفسه كما نشاهده في البيت المربع Maison Carre في نيمز Nimes. وظل الرومان يضيفون العمد إلى مبانيهم يزينوها بها ولو لم يعد لها عمل أصيل بعد أن سلبها تطور العقود ما كان لها من شـأن قديم في اسـتناد هذه المباني إليها-وبقيت هذه العادة قائمة إلى عصرنـا الحاضر دون أن يعرف مصدرها الذي أخذت عنه.

هياكل روما:

لقد احتفظت روما في جميع هياكلها إلا قلة ضـئيلة منها بنظام الأروقة ذات العمد، المبسـوطة عليها عوارض رئيسية تحمل السقف. وكان أغسطس متحفظاً في الفن شأنه في كل شيء سواه، ولذلك استمسكت جميع الأضرحة التي بنيت بأمر منه بالتقاليد الصـحيحة القديمة. ثم أخذ الأباطرة من بعده يضـاعفون عدد الهياكل التي يقيمونها لآلهتهم التي تنافسـهم في السـلطان والجاه، ويغشـون فجورهم بسـتار من التقي المعماري، حتى ازدحمت التلال و سدت الشوارع بالمزارات المقرمدة المذهبة. وكان جوبتر بطبيعة الحال صاحب النصيب الأوفر منها، فكان من بين هياكله الكثيرة هيكل جوبتر المرعد، وهيكل جوبتر المثبت الذي ثبت أقدام الرومان وأوقف هربهم في القتال، واقتسم مع يونو ومنيرفا أقدس مزارات رومة فوق تل الكبتول. فقد أقيم في الحجرة الوسطى تمثال ضخم من الذهب والعاج لجوبتر الأفضل والأعظم Jupiter Optimus Maximus يحيط به من الجانبين رواق معمد ذو ثلاثة طبقات. وتعزو الرواية التاريخية أول صورة من صور هذا الصرح الأعظم من الصروح الرومانية المقدسة إلى تاركونيوس بسكس، وقد دمرته النار عدة مرار، وكان في كل مرة يعاد بناؤه بعد تدميره. واختلس اسـتلكو في عام ٤٠٤ م أبوابه البرونزية المذهبة ليؤدي بها رواتب جنده، ونهب الوندال قراميد السـقف المصـفحة بالذهب، ولا تزال بعض قطع من أرضـيته باقية إلى اليوم.

وكان يقوم على القمة الشمالية من قمم هذا التل نفسه هيكل يونو المنذرة أو الحارسة Juno Moneto، وهناك كانت دار سك العملة. ولا حاجة إلى أن نذكر للقارئ أن اسم دار السك (Mint) والنقود (Money) مصدر كثير من المطامع، مشـتق من لفظ منيتو الذي كانت تلقب به يونو. وعلى المنحدر الجنوبي من منحدرات هذا التل كان يقوم معبد سـاترن (زحل) أقدم آلهة لكبتول. ويرجع الرومان تاريخ بناء هذا الهيكل لذلك الإله إلى عام ٤٩٧ ق. م؛ وقد بقي منه حتى الآن ثمانية عمد أيونية وعارضة واحدة فوق بعض هذه العمد. وفي السوق الكبرى عند سفح التل كان المعبد الصغير المخصص ليانوسJanus إله البدايات كلها. وكانت أبوابه لا تفتح إلا في زمن الحرب ولم تغلق في أثنائها إلا ثلاث مرات في تاريخ رومة القديم. وفي الركن الجنوبي الشرقي من أركان السوق كان هيكل كاستر وبلكس Castor And Pollux الذي شـيد في عام ٤٩٥ ق. م؛ وقد وصـلت إلينا من بقايا الهيكل الذي جدده تيبيريوس ثلاثة عمدة كورنثية رفيعة، وهي بإجماع الخبيرين أجمل العمد الرومانية على الإطلاق.

وأضــاف أغســطس إلى هذه الهياكل في ســوقه هو هيكلاً للمريخ المنتقم Mars Ultor وفاءاً بنذره قبل فلباي Philippi، وما تزال ثلاثة من عمده الفخمة قائمة في مكانها إلى اليوم. وكان أحد أطراف ساحته الوسطى عبارة عن نصف دائرة ذات سقف مقبب، وهي طراز معماري أصبح فيما بعد طراز محراب الكنائس المسيحية الأولى. وأقام أغســطس على تل البلاتين هيكلاً فخماً من الرخام الخالص للإله أبلون نظير معونته له في أكتيوم، وزينه بتماثيل من صنع ميرون Miron واسكوباس Scopas، وأضاف إليه مكتبة فخمة ومعرضاً فنياً، وبذل كل ما في وسعه ليشعر الناس أن الإله قد غادر بلاد اليونان وجاء إلى روما يحمل معه إليها زعامة العالم الروحية والثقافية؛ بل إن أصــدقاء أغسطس، بعد أن زالت أسباب التحرج من هذا النمس بوفاة والدة أغسطس، قالوا إن أبلو متخفياً في صورة ثعبان رشيق سريع الحركة هو الذي استولدها هذا الزعيم الداهية. وكان في الجزء الشمالي الغربي في المدينة هيكل عظيم لإيزيس Issis وعلى تل البلاتين مزار فسيح لسيبيل. وكانت فيه، ملاذات لبعض المعاني المجردة مجسدة-كالصحة، والشرف، والفضيلة، والوئام، والوفاء، والحظ، وكثير من أمثالها. وكانت كل هذه الهياكل تقريباً تحتوي ساحات ملأى بالتماثيل والرسوم الملونة. وقد جمع فسبازيان في معبد السلم العظيم الذي أقامه كثيراً ن الكنوز الفنية التي كانت في بيت نيرون الذهبي، وبعض المخلفات التي جاء بها من أورشــليم وأباح للناس مشــاهدتها. ويمتاز هيكل فرتونا فريلس Fortuna Virilis القائم في ســوق بريوم Forum Boarium بأنه أكمل بناء في روما من عهد ما قبل أغســطس احتفظ بأجزائه إلى اليوم. وكانت نســاء العاصــمة يترددون كثيراً على هذا الهيكل للعبادة فيه، فقد كن يعتقدن أن الآلهة تعلمهن كيف يخفين عيوبهن عن أعين الرجال.

وقد أضاف مهندسو روما إلى هذه الهياكل وإلى العشرات العشرات من الهياكل الأخرى المشيدة على الطراز المربع القديم، أضافوا إليها عدة هياكل دائرية الشكل تكشف عن سيطرتهم الحديثة على مشكلة تشييد القباب. وتقول الرواية التاريخية إن هذا الطراز من البناء مأخوذ على كوخ رميولوس المســتدير الذي احتفظ به كما يحتفظ بالآثار الدينية على تل البلاتين قروناً طوالاً.

ولا يكاد يقل عنه في القدم بيت فســتا Aedes Vestae الجميل المجاور لهيكل كاســتروبلكس؛ وكانت ســاحته الوســطى المغطاة جدرانها بالرخام الأبيض تحيط بها عمد كورنثية جميلة، وكان ســقفها قبة من الشــبهان المذهب. وكان إلى جوارها قصر العذارى الفستية-ويتكون من أربع وثمانين حجرة مشيدة على نظام الأديرة حول بهو ذي عمد. ولم يكن البانثيون قد أصبح بعد هيكلاً مستدير الشكل؛ فقد كان في صورته التي أقامه عليها أجربا مستطيلا، ولكن كانت له ساحة مستديرة أمامه. وقد أقام مهندسو هدريان فوق هذه الساحة الهيكل المستدير والقبة الضخمة اللذين لا يزالان حتى الآن أعظم شاهدين على جرأة الإنسان وشجاعته.

التحول الفجائي إلى الطراز المقوس :



قبة البانثيون، منظر داخلي

لقد كانت روما في عمارتها الدنيوية أعظم منها في عمارتها الدينية، ذلك بأنه كان في وسعها في أول العمارتين أن تتحرر من قيود التقاليد، وأن تجمع بين الهندسة والفن-بين المنفعة والقوة من جهة، والجمال والشكل من جهة أخرى-بطريقة اختصت بها هي لا يشاركها فيها غيرها من المدن. لقد كان الأساس الذي قامت عليه العمارة اليونانية هو الخط المستقيم (مهما أدخل عليه من التنظيم الدقيق كما يشاهد في البارثنون): كالعمود الرأسي، والعارضة الأفقية، والقوصرة المثلثة الشكل؛ أما أساس هندسة البناء الرومانية الخالصة فقد أصبحت الخط المنحني؛ ذلك أن الرومان كانوا ينشدون العظمة، والإقدام، والضخامة، ولكنهم لم يكن في وسعهم أن يسقفوا مبانيهم الواسعة على مبادئ الخطوط المستقيمة والأروقة ذات العمد إلا إذا أقاموا فيها مجموعة من العمد التي تعترض طرقاتها، وكانت سبيلهم للتغلب على هذه المشكلة هي الأقواس بشكلها المستدير في الغالب؛ وما العقود إلا أقواس استطالت، وما القباب إلا أقواس تحركت ودارت؛ ولعل القواد الرومان وأعوانهم قد ألفوا في مصر وآسية الأشكال المقوسة، وإزدادت ألفتهم لها على مر الأيام، فأيقظوا في مواطنيهم التقاليد الرومانية والتسكانية القديمة التي طال العهد بطغيان الأنماط اليونانية عليها، فأخذت روما تستخدم العقود استخداماً بلغ من اتساعه أن اشتق منه فن البناء كله اسم جديد أصبح علماً عليه ولم يفارقه قط. وقد أنشأ الرومان القبوة المفصلية بوضع شبكة من الأضلاع المكونة من الآجر على طول خطوط الالتواء قبل أن يصب الملاط المسلح في الإطار الخشبي لعمل السقف؛ ثم أنشئوا، بوضع قبوتين اسطوانيتين متعامدين، شبكة من الأضلاع والحنيات تستطيع أن تتحمل فوقها بناء أثقل منها كما تستطيع أن تتحمل دفعاً قوياً من الجانبين. هذان هما المبدآن اللذان قام عليهما الانقلاب الفجائي في فن العمارة الرومانية وتحوله من طراز الخطوط إلى طراز الأقواس.

وبلغ الطراز الجديد كماله في الحمامات والمدرجات الكبرى، وكانت حمامات أجربا، ونيرون، وتيتس الحلقة الأولى من سلسلة طويلة انتهت بحمامات دقلديانوس، فقد كانت هذه صروحاً من الملاط المسلح مغطاة بالجبس أو الآجر تعلو علواً شاهقاً في الهواء. وكانت مزينة من داخلها بفساقي من الرخام والفسيفساء، وبأعمدة مختلفة الألوان، وسقف مزخرفة، وصور ملونة وتماثيل. وكان فيها حجرات لخلع الملابس، وحمامات ساخنة وباردة، وحجرة وسطى ذات هواء دفيء، وبرك للسباحة، ومواضع للتمرينات الرياضية، ومكتبات وحجر للمطالعة، وأخرى للبحث، وأرائك للراحة، وأكبر الظن أنها كانت تحتوي أيضاً على معارض فنية. وكانت أغلب الحجرات تسخن من مركز عام تمتد منه أنابيب كبيرة من الصلصال، وتسير تحت أرض الحجرات وفي داخل الجدران. وكانت هذه الحمامات الحارة أوسع وأفخم ما شيد من المباني العامة، ولم يوجد لها قط نظائر من نوعها في العالم كله. وكانت جزءاً من الاشتراكية في الترفيه عن الشعب حاولت به الزعامة أن تبرر سلطانها المطلق المتزايد.

وكانت هذه النزعة نفسها هي الحافز على بناء أعظم دور التمثيل في التاريخ كله. وكان عدد هذه الدور في رومة أقل منها في العواصم الحديثة، ولكنها كانت أوسع منها رقعة. وكان أصغرها هو الملهى الذي شاده كورنليوس بلبس Cornelius Balbus في ميدان المريخ (١٣ ق. م)، والذي كان يتسع لسبعة آلاف و سبعمائة من النظارة؛ وقد أعاد أغسطس بناء ملهى بمبي الذي كان يتسع لسبعة عشر ألفاً وخمسمائة، وأتم بناء ملهى آخر سماه باسم مرسلس Marcellus ويتسع لعشرين ألفاً وخمسمائة. وكانت هذه الدور تختلف عن مثيلاتها في بلاد اليونان في أنها كانت مسورة، وفي أن مقاعد النظارة كانت تستند في أبنية ذات أقواس وقباء بدل أن تستند إلى منحدرات التلال. وكان المسرح وحده هو المسقف، ولكن النظارة كانوا يتقون الشمس بمظلو من نسيج التيل (Velarium) كانت في ملهى بمبي تغطي مساحة عرضها ٥٥٠ قدماً. وكانت فوق المداخل مقصورات للأعيان وذوي المناصب الكبرى في الدولة، وكان لبعض المسارح ستائر لم تكن ترفع إلى أعلى إذا بدأ التمثيل بل كانت تنزل في فتحات معدة لها. وكان المسرح يرتفع عن أرض الملهى بنحو خمس أقدام، وكان الجزء الخلفي منه يتخذ في العادة شكل بناء أنيق يمتد من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر، فيمكن الممثلين بذلك من أن يسمعوا أصواتهم للعدد الجم من النظارة الذين يضمهم الملهى. ويحدثنا سنكا عن "صنّاع المسارح الذين يخترعون حمالات ترتفع من نفسها أو أرضيات ترتفع في سكون من الهواء". وكان تغيير المناظر يحدث بوساطة مناشير دوارة أو بتحريك مجموعة منها إلى طرفي المسرح أو إلى أعلاه فتنكشف بذلك المجموعة التي تليها. وكان يستعان على إسماع النظارة أصوات الممثلين بوضع جرار فارغة في أرض المسرح وجدرانه. وكانت أمكنة النظارة تبردها جداول مائية تجري في ممراتها، وكان مزيج من الماء والنبيذ وعصير الزعفران ينقل أحياناً إلى أعلى المقاعد في أنابيب ثم يرش على النظارة في هيئة رشاش عطر وكان داخل الملهى يزداد بالتماثيل وكانت صور كبيرة ترسم على المسرح بدل المناظر المتغيرة في هذه الأيام. ولعلنا لا نجد الآن في العالم كله ملهى مهما عظم يبلغ في الاتساع والفخامة ما بلغه ملهى بمبي في روما.

المباني العامة :

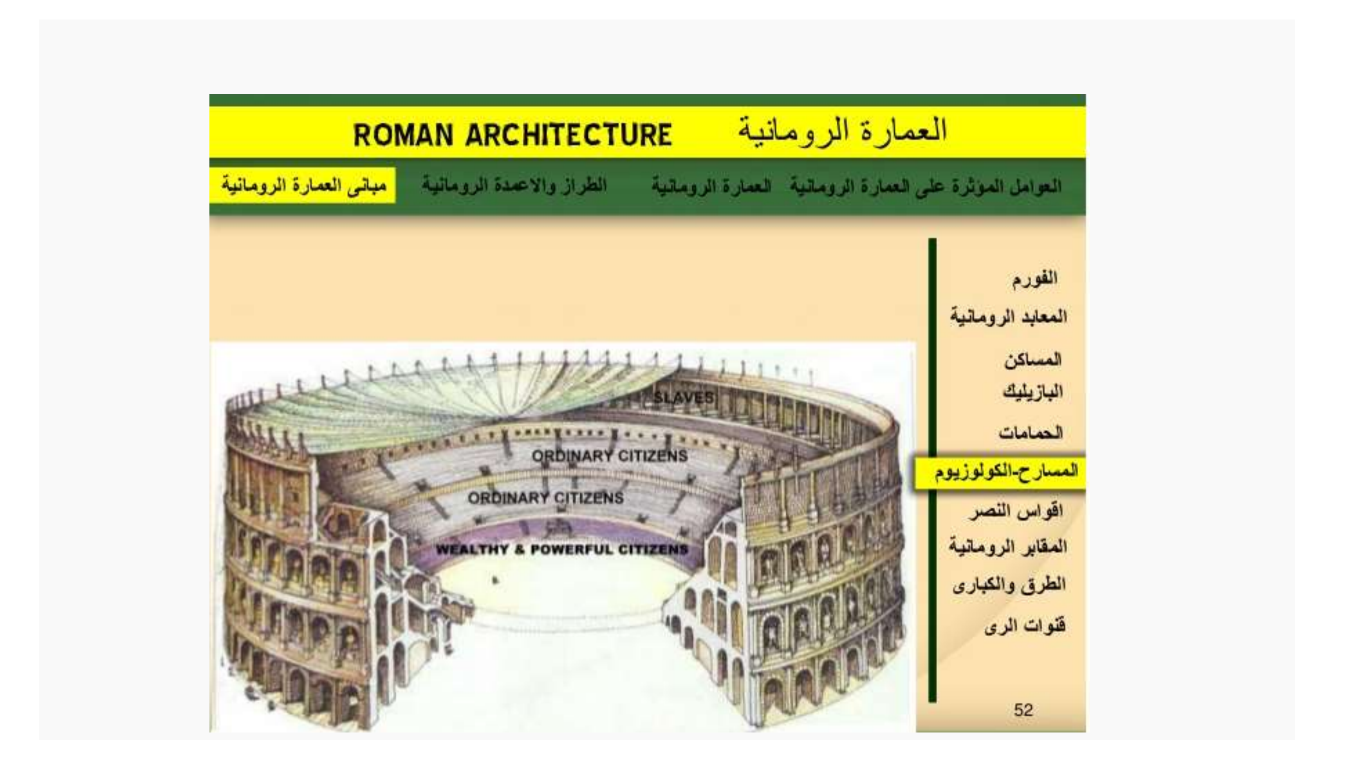
وكانت حلبة الألعاب ومضـــمار الركض والمدرج أحب إلى الشـــعب من دار التمثيل. وكان في روما عدة مضـــامير تستخدم أكثر ما تستخدم في المباريات الرياضية. وكان سباق الخيل والعربات وبعض الألعاب الأخرى تعرض في حلبة فلامنيوس في ميدان التاريخ أو في الحلبة الكبرى التي جدد قيصر بناءها بين تلي بلاتين وأفنتين. وكانت هذه الحلبة في شكل قطع ناقص طوله ٢٢٠٠ قدم وعرضه ٧٠٥، وكان فيها مقاعد خشبية في ثلاث جهات منها تتسع لمائة وثمانين ألفاً من النظار. وفي وسعنا أن نقدر ثروة روما إذا عرفنا أن تراجان أعاد بناء هذه المقاعد من الرخام.

وكان بناء الكلوسيوم بناء متواضعاً إذا قيس إلى هذه الحلبة الكبرى، فقد كانت مقاعده لا تتسع لأكثر من خمسين ألفاً، ولم يكن تصميمه جديداً؛ لأن مدن إيطاليا اليونانية كانت من زمن بعيد تحتوي مدرجات مثله؛ فقد أنشأ كوريو Curio كما قلنا من قبل مدرجاً في عام ٥٣ ق.م ، وبنى قيصرـــ مدرجاً آخر في عام ٤٦، وبنى اســـتاتليوس تورس Statilius Taurus مدرجاً ثالثاً في عام ٢٩ ق. م. وكان فسبازيان هو الذي بدأ المدرج الفلافي- وهو الا سم الذي كان الرومان يطلقونه على الكلوســيوم- كما كان تيتس هو الذي أتمه في عام ٨٠ م، ولا نعرف اســـم المهندس الذي أشرف على بنائه. وقد اختار فســبازيان لبنائه البحيرة التي كانت في قصرـ نيرون بين التل الكئيلي Caelian والتل البلاتيني. وقد شـيد من الحجر الترافتيني على شـكل إهليلجي يبلغ طول محيطه ١٧٠٠ قدم. وكان ارتفاع سـوره الخارجي ١٥٧ قدماً، وكان مقســـماً إلى ثلاثة أطباق يقوم بعض طابقه الأول على أعمدة تســكانية-دورية، ويقوم طابقه الثاني على عمد أيونية، والثالث على عمد كورنثية، وبين كل عمودين عقد. وكانت الدهاليز الرئيـسية مـسقوفة بأقبية ا سطوانية تتقاطع في بعض المواضع على طراز أديرة العصور الوسطى. وكان داخله مقسماً أيضاً إلى ثلاث طبقات تستند كل منها إلى أعمدة، وتنقـسم إلى الحلقات من المقـصورات والمقاعد، متحدة في مركزها تقطعها طرقات ذات درج فتقـسمها إلى "أوتاد"Cunei. ويبدو داخله للناظر إليه في هذه الأيام كأنه كتلة ضـــخمة من البناء قطع فيه صـــانع جبار عقوداً وطرقات ومقاعد. وكان داخله يزدان بالتماثيل وغيرهما من وسائل التجميل، وكانت كثير من صفوف المقاعد مصنوعة من الرخام، وكان للمدرج ثمانون مدخلاً خصـــص أثناء منها للإمبراطور وحاشـــيته. وكانت هذه المداخل والمخارج Vomitoia تكفي لإخراج الجماهير الغفيرة التي تملأ هذا المدرج الضـــخم في دقائق معدودات. وكان يحيط بالحلبة التي يبلغ اتساعها ٢٨٧ قدماً في ١٨٠ سور يبلغ ارتفاعه خمس عـشر قدماً يعلوه دبرزون يحمي وحو شه الآدميين من وحوش الغاب. وليس الكلو سيوم من المباني الجميلة المنظر، وإن ضخامته نفـسها لتنم عما في الطبيعة الرومانية من خشونة، كما تكشف عما فيها من عظمة. وكل ما يمكن أن يقال في مديحه أنه أكثر الخرائب التي خلفها العالم الروماني

القديم روعة. لقد كان الرومان يبنون كما يبني الجبابرة، ولو أننا طلبنا إليهم أن يصـــقلوا مبانيهم كما يصـــقل الصياغ الحلي لكلفناهم ضد طباعهم.



المسرح الروماني







الكولوسيوم – روما

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
51

يقع مبنى الكولوسيوم Colosseum في منخفض تحيط به تلال مرتفعة. بنى الإمبراطور "فسبازيان" عام ٧٢ ميلادية الطوابق الأرضي والأول والثاني، ثم أضاف "تيتوس" الطابق الثالث عام ٨٠ ميلادية. يعد من أضخم المباني الرومانية، إذ تبلغ أبعاده من الخارج ١٨٨متراً طول و١٥٦ متراً عرض وارتفاعه ٤٨ متراً، أما أبعاد حلبة الصراع فتبلغ ٧٦متراً طول و٤٦ متراً عرض. يرتكز المبنى على مجموعة من العقود والأقبية التي ترتبط مع بعضها بممرات داخلية مرتبطة مع المدرجات بواسطة فتحات تؤدي إلى حلبة السباق، واستفاد المعماريون من الأقبية باستخدامها كمستودعات لمستلزمات الألعاب وحبس الحيوانات المفترسة، وكانت المدرجات مقسمة بممرات حلقية إلى أربعة مستويات.
والواجهة تمثل أربعة طوابق فصلت بواسطة تكنات مستمرة الدوران حول البناء، وبالطوابق السفلية فتحات معقودة نصف دائرية عددها ثمانون بأكتاف مربعة، وأمام الأكتاف عمد مستديرة متصلة بها وقد استعمل الطراز الدوري في الطابق الأرضي، والأيوني في الطابق الثاني، والكورنثي في الطابق الثالث.

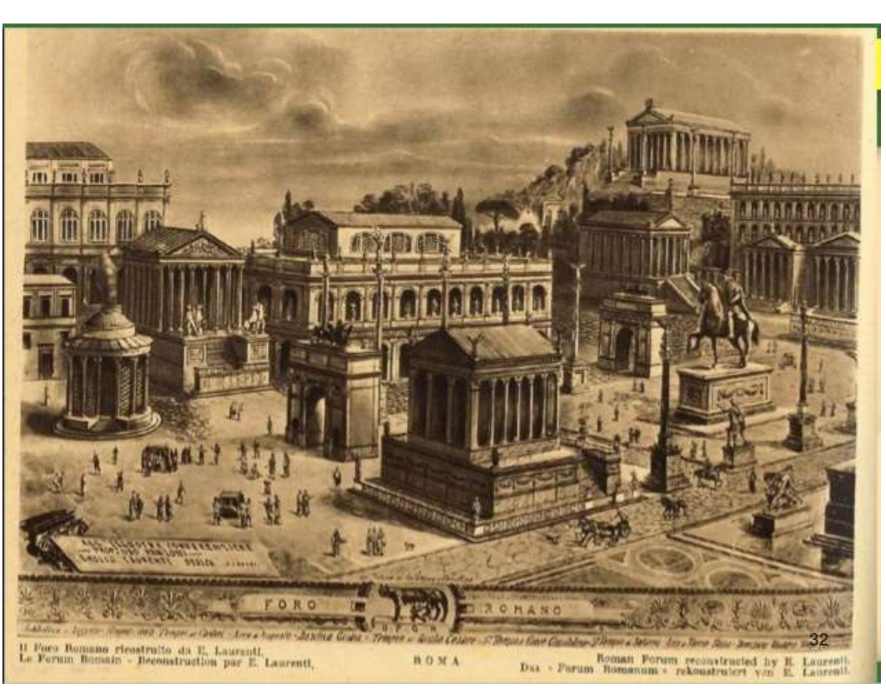


The Colosseum

لقد أنشأ الفنانون الرومان فنهم من خليط مختار من الطرز الأتيكية، والآسيوية، والإسكندرية، فجمعوا فيه بين التحفظ والضخامة والرشاقة. غير أنهم لم يمزجوا في يوم من الأيام هذه الصفات لينشئوا منها تلك الوحدة الأساسية التي هي أساس من أسس الجمال. وإن فيما تتصف به المباني الرومانية الخالصة من قوة وفجاجة لمسحة شرقية، فهي تبعث في النفس الرهبة لا الجمال؛ وإن بنثيون هدريان نفسه ليعد ن عجائب الصروح أكثر مما يعد من روائع الفن؛ فليس لنا أن نتطلع في الفن الروماني إلى رقة الشعور ودقة التنفيذ اللهم إلا في حالات نادرة كالنقوش والتحف الزجاجية الباقية من عصر أغسطس. بل يجب أن نتوقع هنا وجود فن هندسي يهدف إلى الغاية في الصلابة والاقتصاد والمنفعة، إلى افتتان العصامي بالضخامة والزينة وإصرار الجندي على الواقعية، وإلى فن المحارب ذي القوة الباطشة. وإذا كان الرومان لم يصقلوا فنهم صقل الصياغ فما ذلك إلا لأن الفاتحين لا يصبحون قط صياغاً، ولذلك صقلوه صقل الفاتحين.

وما من شك في أنهم قد أنشأوا أكثر المدن فتنة وروعة في التاريخ، وأوجدوا فناً مرناً، تصويرياً ومعمارياً في مقدور كل إنسان أن يفهمه، وشادوا مدينة يستطيع كل مواطن أن يعيش فيها وينتفع بها. لقد كانت جماهير الأحرار في تلك المدينة فقيرة كثيرة الثراء، ولكنها كانت إلى حد ما تمتلك كثيراً من ثروتها: فقد كانت تأكل حب الدولة، وتجلس بغير أجر، أو بأجر هو والعدم سواء، في دور التمثيل، وفي حلبات الألعاب، وفي المدرجات وميادين السباق. وكانوا يمارسون ضروباً من الرياضة البدنية، ويتناولون المرطبات، ويستمتعون بضروب التسلية، ويتعلمون في الحمامات؛ ويتفيئون ظلال مئات من الأروقة ذات العمد، ويمشون تحت القباب والعقود المنقوشة المزينة التي كانت تغطي أميالاً كثيرة من شوارع روما، وتغطي ثلاثة أميال في تاريخ المريخ وحده، ولم يشهد العالم قبل روما عاصمة مثلها، فقد كان في وسطها سوق عجابة صخابة تدور فيها رحى العمل بلا انقطاع، وتتردد في جنباتها أصداء أصوات الخطباء، وتدور فيها المناقشات التي تزلزل قواعد الإمبراطورية، ومن حولها حلقة من الهياكل، والباسلقات، والقصور، ودور

التمثيل، والحمامات، في كثرة منقطعة النظير؛ وتحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحوانيت مكتظة بالبائعين والمشـــترين، تدوي فيها أصـــواتهم، وتليها حلقة ثالثة من البيوت والحدائق، فخلقة رابعة من المعابد والحمامت مرة ثانية، وتنتهي بدائرة من القصـــور الريفية الصـــغيرة ذات الحدائق، ثم الضـــياع التي تدفع بأطراف المدينة إلى الريف وتربط الجبال بالبحر. هذه هي روما القياصرة-مزهوة، قوية، براقة، مادية، قاسية، ظالمة، مشوشة غير منظمة، سامية رفيعة الذرى






ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
انواع المبانى
مواد البناء و طرق الانشاء
استخدام العقود فى :
١- البوابات والمداخل
16


ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
انواع المبانى
مواد البناء و طرق الانشاء
الفن الرومانى
استخدام العقود فى :
٢- نظام الصرف الصحى
الصرف الصحى - ماكسيما، روما، (٥٧٨ قبل الميلاد).
Cloaca Maxima, Roma, (578 B.C.).
17


ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مباني العمارة الرومانية
انواع المباني
مواد البناء و طرق الانشاء
الفن الروماني
عمارة الرومان مكنتهم من بناء قبوات وقباب واسعه باستعمال الحديد مثل :
١.القبو نصف الدائرى: محمله على حائطين متوازيين.
٢.القبو المكون من قبوتين نصف إسطوانتيتين متقابلتين
٣.القبو نصف الكروي.
crown
haunch
haunch
spring
spring
18


ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مباني العمارة الرومانية
انواع المباني
مواد البناء و طرق الانشاء
الفن الروماني
٢-القبو المكون من قبوتين
نصف إسطوانتيتين متقابلتين
barrel vault
groin
groin vault
19

العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | **العمارة الرومانية** | الطراز والاعمدة الرومانية | مبانى العمارة الرومانية

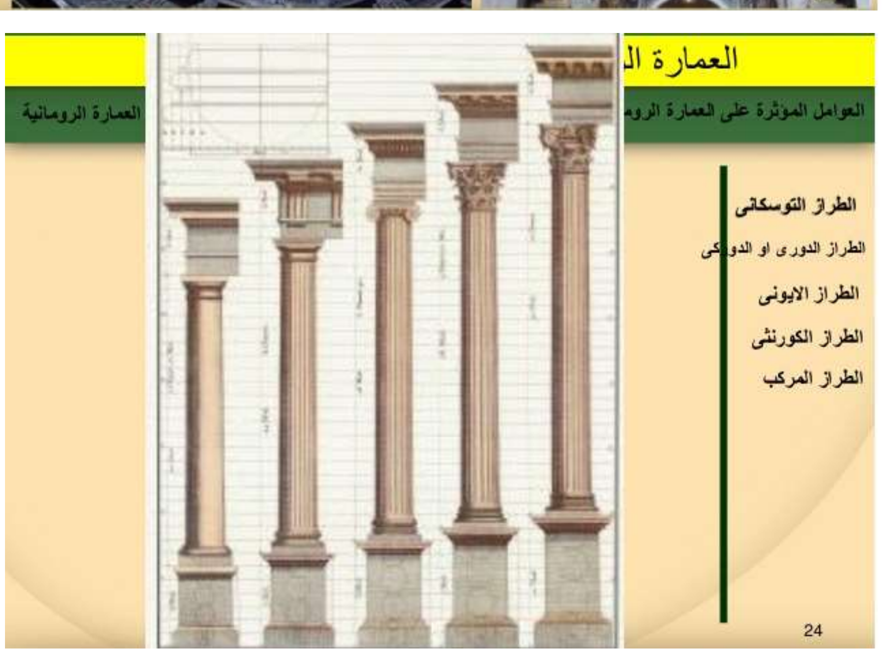
انواع المبانى

مواد البناء و طرق الانشاء

الفن الرومانى

- ❖ سلسلة من البانوهات والوحدات الغاطسة فى السقف تُستخدم فى :
  - تخفيف الاحمال
  - تزيين وديكور للاسقف والقبوات
- ❖ اضافة الكرسى الحامل للاعمدة

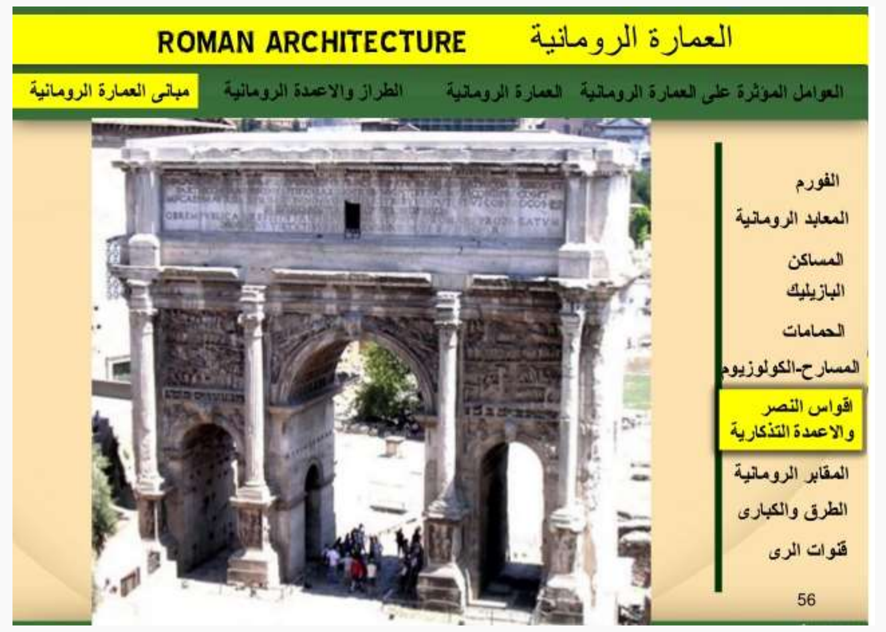
22




العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
بجانب الأبنية المختلفة، فقد شيد الرومان مجموعة من الكباري وأقواس النصر والنصب التذكارية. وكانت بعض الأقواس تقام عند تقاطع شارعين مهمين. كما كان بعضها تخترقه طريق لمرور العربات والخيول ويترك البوابتين الجانبيتين للمشاة.
ومن الأمثلة على ذلك قناطر "أوجستس"، وقوس "تيتوس"، وعمود تراجان الذي بناه له المعماري الدمشقي "أبولودور" تخليداً لانتصار الإمبراطور "تراجان"، وهو بارتفاع ٣٩.٨٥ متراً.
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
57


العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
قوس تيتوس
قنطرة أوجستس
59


ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
58


ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
56



ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
المعابد ذات المسقط الافقى المستدير
معبد البانثيون
The Pantheon in Rome
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
جميع الأماكن المقدسة
36



ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
تنوعت بين
القصور –
مساكن خاصة –
مساكن ايجارية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
PALACE OF DIOCLETIAN : SPALATO
44



ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
منزل فى العصر الرومانى
45



ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
بازيليكا قسطنطين
بدأ بناء هذا
البازيليك الروماني
من قبل الإمبراطور
Maxentius بين
٣٠٧ و ٣١٠ و
الانتهاء من
قسطنطين الكبير بعد
٣١٢. على الرغم
من أنه كان واحدا
من أهم المعالم
الأثرية في العصور
الكلاسيكية
القديمة،لم يتبقى
منها سوى
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
Basilica دور العدالة
46

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مبانى العمارة الرومانية

- الفورم
- المعابد الرومانية
- المساكن
- البازيليك
- الحمامات
- المسارح-الكولوزيوم
- اقواس النصر
- المقابر الرومانية
- الطرق والكبارى
- قنوات الرى

البازيليك هو بناء ضخم مستطيل الشكل، كان مخصصاً للتجارة والقضاء والمكاتب الإدارية، وهو يتكون من ثلاثة أروقة أعرضها في المنتصف، وكان المدخل عبارة عن باب في الرواق الأوسط. وكان يعمل منصة للقضاة في مقابل المدخل في حنية كبيرة ترتفع أرضيتها عن منسوب أرضية المبنى.

ومن أشهر النماذج على ذلك بازيليكا قسطنطين بروما (٣١٠-٣١٣ ق.م)، وهي تتكون ثلاثة أروقة، الأوسط مقسم إلى ثلاثة فراغات مغطى بقبوات متقاطعة، والفصل بين الرواقين الجانبيين والرواق الأوسط يتم عن طريق دعائم ضخمة تحمل عقوداً تحمل أعلاها القبوات، كما تغطى الأروقة الجانبية بقبوات دائرية.

47



قلعة الأكروبوليس, تقع فى عاصمة اليونان أثينا بمقاطعة أتيكا باليونان وهى قلعة قديمة تقع على قمة تل. ولقد اضيف الموقع عام ١٩٨٧ إلى قائمة اليونسكو



المسرح الروماني – تركيا



إنسيولا في اوستيا أنتيكاروما



قناطر سيغوفيا،اسبانيا



بونتدوجارد،جسر القناة في جنوب فرنسا


ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الحمامات من المبانى التى تميز بها الرومان عن غيرهم ممن سبقوهم . وهى لم تكن للاستحمام فقط بل كانت مركزا للتدريب الرياضى والاجتماعات العامة والخاصة والمحاضرات .وهى تشبه إلى حد ما الاندية الرياضية الحالية وكانت الحمامات فى العادة تحتوى على العناصر التالية :
- المبنى الاساسى :ويتكون من بهو محاط بالعناصر الاخرى ، وهى غرف الماء الدافى والماء البارد وحمامات البخار .
- حوش او فناء كبير يحيط بالمبنى الاساسى ،به أشجار وتماثيل ونافورات وتقام فيه المباريات الرياضية
- عدة مبانى تحيط بالمجموعة مكونة من مكتبة وقاعات وغرف خلع الملابس وخزان كبير يغذى الحمامات بالماء
- مجموعة كبيرة من الحجرات والمحلات التجارية ومداخل الحمامات وهى تحيط بالمجموعة من الخارج
Baths
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
49


ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
تنقسم فى عهد الرومان الى ٣ انواع مع ملاحظة الفرق كبير بين القبر والمقبرة
١- القبور Columbarier
أقبية تحت الارض وبحوائطها فتحات معقودة ليدخل منها الانية على رفات الموتى بعد حرقها
٢- المقابر التذكارية Monumental Tombs
أبنية مستديرة الشكل ذات اتساع معين ،محاطة ببواكى وترتكز على اسفال مرتفعة وسقف مخروطى الشكل
٣- القبور الهرمية Pyramid Tombs
وقد ادخلت فى روما عقب فتح مصر عام ٣٠ ق . م على شكل الاهرام
ELEVATION SECTION
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
60



الأزياء في العصر الروماني :

كانت الملابس في روما القديمة ، تتكون بصفة عامة من الشملة ، التونيكوالستولا تثبت بواسطة بروش، والبناطيل القصير.



ولم تكن ثياب النســاء والرجال في روما أكثر ترفاً من ثياب نســاء العصرـ الحديث، أو أكثر فخامة أو أغلى ثمناً من ثياب الأشراف في العصور الوسطى. ولم تكن الأزياء تتبدل في روما بالسرعة التي تتبدل بها في المدن الحديثة، بل كان الثوب الحســن يبقى مدى الحياة في بعض الأحيان دون أن يصــبح زياً عتيقاً. ولكننا إذا وازنّا بين حياة الطبقات العليا في روما وبينها في عصر الجمهورية قبل أن يأتي بمبي لوكلس بغنائم الشرق وملذاته، حكمنا بأن روما أضحت في العصر

الذي نتحدث عنه جنة ينعم بها المترفون بأفخر الثياب وأشــهى الطعام المختلف الأنواع، وأجمل الأثاث، وأفخم البيوت. ولمّا أن جرد الأشراف مما كان لهم من زعامة سـياسـية، وكادوا يحرمون كل سـلطان سـياسي، وانسـحبوا من الجمعيات السـياسـية إلى قصـورهم، ولم يكن عليهم من أنفسـهم وازع من الأخلاق اللهم إلا وازع الفلسـفة، أطلقوا العنان لشهواتهم وأخذوا يسعون لاغتراف اللذة والتنعم بفن الحياة.

أنواع الملابس :

ملابس الرجال :

إذا جاز لنا أن نحكم على الرومان من بضـــع مئات من التماثيل، قلنا إن رجال الرومان في عهد نيرون كانوا أكثر بدانة، وألين أجساماً، وأرقى ملامح من أمثالهم في عصر الجمهورية الناشئة. لقد كانت سيطرة الرومان سبباً في احتفظ الكثيرين منهم بالصـلابة وشـدة المراس، يخشـاهم الناس أكثر مما يحبونهم؛ ولكن الطعام والخمر والكسـل أثرت في أجسام غير هؤلاء فأكسبتهم بدانة لو أنها كانت في أسرة سبيو لجللتها العار. وكانوا لا يزالون يحلقون لحاهم- أو على الأصــح كان لهم حلاّقون (Tensores) يحلقون على لحاهم. وكان اليوم الذي يحلق فيه الشــاب لحيته أول مرة يوم يحتفل به في حياته. وكثيراً ما كان يهب شـــعر عارضـــية الأول إلى إله من الآلهة دليلاً على ورعه وتقواه. وقد احتفظ العامة من الرومان بعادتهم التي كانوا عليها في عهد الجمهورية عادة تقصــير شــعر رؤوســهم، أو إزالته كلها، ولكن عدداً متزايداً من الغنادرة كانوا يقصون شعرهم. وهكذا يمثل لنا ماركس أنطونيوس ودومتيان. وكان كثير من الرجال يتحلون بالشعر المستعار، ومنهم من كانوا ينقشون على قحوف رؤوسهم ما يشبه الشعر. وكانت جميع الطبقات في العهد الذي نتحدث عنه تلبس داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة أو الصدرة الواسعة؛ أما الطوغة (Toga) أو الجبة الرومانية فلم تكن تلبس إلا في المناسبات الرسمية، وكان يلبسها الموالي حين يستقبلهم الشريف الذي يحميهم، والأشراف إذا ذهبوا إلى مجلس الشــيوخ أو مشــاهدة الألعاب. وكان قيصرـ يلبس طوغة أرجوانية ويتخذها شــعاراً لمنصبه، وقد حذا حذوه في هذا كثيرون من كبار الموظفين، ولكن الطوغة الأرجوانية لم تلبث أن أصبحت امتيازاً خاصاً بالأباطرة. ولم يكونوا يعرفون السرــاويل (البنطلون) التي تضـــايقنا في هذه الأيام، ولا الأزرار الخدّاعة التي لا فائدة للكثير منها، ولا السرــاويل المنتفخة الضــيقة عند الركبتين. لكن الرجال بدءوا في القرن الثاني يلفون أرجلهم باللفافات العريضـة، أما الأحذية فكانت تختلف من الخف البسـيط- وهو نعل من الجلد أو الفلين مشـدود بشرـيط من الجلد بين الإصــبع الكبرى والتي تليها كما يفعل أهل نيبون - إلى الحذاء الكامل المصــنوع كله من الجلد أو الجلد والقماش. وكانوا ينتعلونه عادة مع الطوغة في المناسبات التي تتطلب ارتداء الثياب الكاملة .

ملابس النساء :

أما النســاء الرومانيات في عهد الإمبراطورية الأول، كما نشــاهدن في المظلمات وفي التماثيل وعلى النقود، فقد كن ذوات شبه قريب بنساء الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين إذا استثنينا من هذا التعميم أنهن كلهن تقريباً كن ذوات بشرـة سـمراء. وكانت أجســامهن متوســطات في النحافة، وكانت أثوابهن تخلع عليهن قواماً رشــيقاً فاتناً، وكن يدركن قيمة ضياء الشمس، والرياضة، والهواء الطلق، وما لها من أثر في صحة الجسم واعتدال القوام،

وكان منهن من يمارسن الألعاب الرياضية بالأثقال، ومنهن من لا ينقطعن عن السباحة، ومن يعشن على نظام خاص من الطعام. وكان بعضهن يربطن صدورهن بالمشدات. وكانت النساء في العادة يمشطن شعرهن ويعقدنه خلف العنق، وكن في الغالب يغطينه بالشباك، ويربطنه بشريط فوق الرأس. وتطلبت الأزياء المستحدثة بعدئذ تنظيماً جديداً للشعر أرقى من هذا التنظيم القديم، فكان يرفع أحياناً فوق أسلاك معدنية، وتضاف إليه غدائر مستعارة شقراء اللون مأخوذة من شعر الفتيات الألمانيات. وكانت المرأة المتطرفة على الطراز الحديث تستخدم عدداً من الجواري ساعات طوالاً في تدريم أظافرها وتصفيف شعرها.



تمثال الامبراطور تيبريوس يرتدي شملة من القرن الأول الميلادي



تمثال رخامي روماني من القرن الأول الميلادي
يوضح ملابس النساء في تلك الفترة.

المراجـــع

- رأفت عبد الحميد، الفكر الســـياسي الأوربي في العصـــور الوســـطى، دار قباء للطباعة والنشرـــ الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠١.
- محمود ســـعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا في العصـــور الوســـطى، دار النهضـــة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٦.
- موريس بيشـــوب، تاريخ أوروبا في العصـــور الوســـطى/ ترجمة علي الســـيد علي، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥.
- أشرف صـــالح محمد ســـيد، قراءة في تاريخ وحضـــارة أوروبا العصـــور الوســـطى، ط١، بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي،٢٠٠٨.
- فتح العرب لمصر (١٩٩٦). د. ألفرد بتلر، تعريب: محمد فريد أبو حديد. مكتبة مدبولي: القاهرة
- خطط الشام. محمد كرد علي
- Bennett, J. *Trajan: Optimus Princeps*. ١٩٩٧. Fig. ١. Regions east of river were held only in the years the Euphrates
- Constantine I (٣٠٦–٣٣٧ AD) by Hans A. Pohlsander. Written ٢٠٠٤-٠١-٠٨. Retrieved ٢٠٠٧-٠٣-٢٠.
- تعدى إلى الأعلى ل:أ ب ت Taagepera، Rein (١٩٧٩). "Size and Duration of Empires: Growth-Decline Curves, ٦٠٠ B.C. to ٦٠٠ A.D". *Social Science History* (Duke University Press) ٣ (٣/٤): ١١٨. doi:١٠,٢٣٠٧/١١٧٠٩٥٩. JSTOR ١١٧٠٩٥٩.
- John D. Durand, *Historical Estimates of World Population: An Evaluation*, ١٩٧٧, pp. ٢٥٣–٢٩٦.
- Turchin، Peter؛ Adams، Jonathan M.؛ Hall، Thomas D (December ٢٠٠٦). "East-West Orientation of Historical Empires". *Journal of world-systems research* ١٢ (٢): ٢١٩–٢٢٩. ISSN ١٠٧٦-١٥٦X. اطلع عليه بتاريخ ١٢ August ٢٠١٠.
- فتح العرب لمصر. د. ألفرد بتلر

الفهـــرس